قصص الحيوان
في الأدب العربي

عبد الرزاق حميدة

٢٠٢٥م

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة

م. رزق عبد السميع أحمد

المشرف العام على النشر

إيهاب الملاح

كتب ثقافية

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

حميدة، عبد الرزاق .
قصص الحيوان فى الأدب العربى/ عبد الرزاق حميدة.
– ط 01 – القاهرة: دار المعارف، 2024
248 ص، 23.5 سم
تدمك 7 9526 02 977 978
1 – الحيوانات فى الأدب العربى.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 810.9031
رقم الإيداع: 31157/ 2024
رقم أمر التشغيل: 1/2024/140
رقم الكونجرس: 9 – 842140 – 01 – 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

فهرس

مقدمة ٧
الفصل الأول: صلة الإنسان بالحيوان: ١٣
١ – الصلة الروحية ١٣
٢ – الطوطمية واللامساس ١٩
٣ – الصلة المادية ٢١
الفصل الثاني: الأساطير – الخرافات – المواعظ
١ – الأساطير ٢٥
٢ – الخرافات الحيوانية..... ٣٠
٣ – قصة الموعظة ٣٤
التلميح أو الرمز ٣٦
الفصل الثالث:
الموطن الأول لقصص الحيوان وتنقلها ٣٩
الفصل الرابع:
غاية القصة الحيوانية ٤٥
الفصل الخامس:
صلة العرب بالحيوان، وعقيدتهم فيه ٥١
تشكيل الجن بأشكال الحيوان ٥٧
قصص من أساطير الحيوان عربية ومنقولة ٦٥

الفصل السادس:
قصص الحيوان في القرآن الكريم وعند المفسرين: ٧٧
١ – بقرة بني إسرائيل ٧٧
٢ – ناقة صالح ٨٠
٣ – الفيل والطير الأبابيل ٨٣
٤ – النملة والهدهد ٨٦
٥ – غراب ابني آدم ٩١
٦ – حية آدم ٩٢
طابع قصص الحيوان عند مفسري القرآن ٩٦
الفصل السابع:
قصص الحيوان في الأمثال:
١ – قصة الضبع والثعلب والضب ١٠٢
٢ – قصة الحية ذات الصفا ١٠٤
٣ – قصة الذئب والشاة ١٠٧
٤ – قصة مجير أم عامر ١٠٩
٥ – قصة الثعلب والعنقود ١١٠
أمثال لقمان ١١١
قصص جديدة أو منقولة ١١٤
قصة البازي والديك ١٢٣
الفصل الثامن:
الفرس بين العرب والهند ١٢٥

الفصل التاسع:
كليلة ودمنة لعبد الله بن المقفع ١٣٥
كتاب كليلة ودمنة ١٣٧
أبواب الكتاب: مميزات ابن المقفع في كتابته ١٣٩
مقلدوه في القرن الثاني. سهل بن هرون. أبان بن عبد الحميد ١٥٣
الفصل العاشر:
«تداعي الحيوانات على الإنسان» ١٦١
الفصل الحادي عشر:
نتائج الفطنة والصادح والباغم للشريف بن الهبارية ١٦٩
الصادح والباغم ١٧٧
الفصل الثاني عشر:
سلوان المطاع لابن ظفر ١٩١
الفصل الثالث عشر:
فاكهة الخلفاء ومرزبان نامه لابن عربشاه ١٩٩
فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ٢٠٠
كتاب مرزبان نامه، موازنة بينه وبين فاكهة الخلفاء ٢١٢
الفصل الرابع عشر:
قصص الحيوان في ألف ليلة وليلة ٢١٧
الفصل الخامس عشر:
الخرافات الحديثة: لافونتين ٢٢٣
العيون اليواقظ في الحكم والأمثال والمواعظ وصفاتها ٢٢٧

***

مقدمة

سمعت في الصغر كثيرًا من قصص الحيوان وغيرها، وأعجبت بها إعجابًا كبيرًا، وكنت أصغي إلى محدثي بهذه القصص مشتاقًا، حتى ينتهي من حديثه. فأستزيده أو أستعيده، ولا ينتهي مجلسنا إلا وقد وعيت عنه أكثر ما قال. وصورت لنفسي صورًا من أبطال القصص وشخصياتها، تفيض بالحياة والعواطف والانفعالات، يشترك في تكوينها محدثي بما يظهره من حركاته وإشاراته، وارتفاع صوته وانخفاضه، وطلاقة وجهه أو عبوسه. وبما يخلعه على هذه الشخصيات من أوصاف الشجاعة أو الجمال أو الخداع أو النبل أو غيرها.

ثم تعلمت القراءة، وحفظت أكثر ما كانت تمدنا به كتب المطالعة من هذه القصص، وكان مختصرًا منمقًا، ووعيت ما كانت تنتهي به القصص من مغزى. واستقرت في النفس عباراتها شعرًا أو نثرًا، وما زالت صفحاتها بادية لعيني، وصورها ماثلة في خاطري، وذكرياتها حاضرة في نفسي. تعيد ما كنت أشعر به من سرور. وما زالت صور المدرسين أمامي وهم يشرحون هذه القصص، أو يمثلون حوادثها، أو يترنمون بمغزاها؛ والأطفال في غفلة عن العظات والعبر التي تتضمنها، لاشتغالهم بذات القصة، واهتمامهم بطرافة الموضوع.

ودارت الأيام دورتها، ووقفت موقف المعلم، وعنيت بهذه القصص، ورأيت كتبها قد كثرت، وأنواعها قد تعددت، وأطوالها قد اختلفت، وأصولها قد تشعبت في الشرق والغرب، وفي القديم والحديث؛ ورأيت رجال التربية قد أثروا فيها بنظرياتهم وآرائهم؛ فتنوعت أساليبها، وتدرجت عباراتها، وصارت سهلة موجزة في السنوات الأولى من حياة التلاميذ. ثم أخذت في الطول والعمق كلما نما عقل التلميذ؛ ولكنها ظلت محبوبة إليهم. يقرءونها لذاتها، ويلتهمون ما يصل إلى أيديهم منها، ولا يفرقون بين الخيالي والواقعي مادام مستكملا عناصر التشويق والإمتاع.

وسنحت لي فرصة الدراسة الأدبية، والبحث العملي لما شغلت بتدريس الأدب؛ وعنيت بقصص الحيوان في الأدب عامة، وفي الأدب العربي خاصة فرأيت بعض القصص العربي أصيلًا، وبعضه دخيلًا تبناه العرب حتى صار جزءًا من أدبهم.

ورأيت أن تطور القصص قد ماشى العصور التاريخية إلى حد بعيد. فقصص الحيوان في الجاهلية قليلة، ويغلب أن يكون من الأساطير الأجنبية، وأكثر ما عندهم تفسير لظواهر طبيعية تتعلق بخلق الحيوان أو خلقته، كطوق الحمامة وذنب الضب.

ورأيت أن غاية قصص الحيوان في القرآن دينية، وكذلك كانت غاية المفسرين في تفسيرها مع ميل هؤلاء إلى التوسع في الإجابة على ما ينشأ من أسئلة تستوضح ما أجمله القرآن، معتمدين على أسباب النزول أحيانًا، وعلى النقل عن اليهود والنصارى أحيانًا.

وطفت موجة من التأثير الأجنبي في قصص الحيوان الأخلاقية، وكانت شديدة قوية جاءت من الفرس في النصف الأول من القرن الثاني الهجري في أول عهدنا بالترجمة من اللغات الأجنبية، وأعني بذلك كله «كتاب كليلة ودمنة»، الذي كان فتحًا جديدًا فى الكتابة العربية، وظل مثلا عاليًا في الأسلوب الكتابي، ونموذجًا لأكثر الذين كتبوا في الخرافات من أدباء الشرق والغرب. وتبعه كثيرًا من الأدباء ساروا على نهجه في التأليف شعرًا ونثرًا، ولا نجد في كتاب القصص الحيوانية في الأدب العربي من خالف ابن المقفع في الطريقة أو الغاية التي أرادها من كتابه - إلا قليلا - وإن اختلف الأسلوب والقصص؛ فقد نظم هذا الكتاب وقلده المقلدون مع احتفاظهم بطريقته في إيراد القصص، والعناية بالحكمة والموعظة، والمغزى العام الذي يلزم القصة دائمًا.

ومن هذا القليل الذي أشرت إليه ما أريد به إبداء آراء ومعتقدات في مسائل فلسفية كرسالة إخوان الصفا التي تسمى «تداعي الحيوانات على الإنسان». ثم انتقلت القصة الحيوانية إلى معين آخر تستقي منه في أواخر القرن التاسع عشر وهو الخرافات الغربية، وطابعها قصر القصص واستقلالها. ثم اتجه الأدباء إلى العناية بالأطفال، فكثر أدب الطفولة قصصًا وغير قصص، وتنوعت القصص وغاياتها، وطولها، ومصادرها التي أخذت منها، حتى أصبح أدب الأطفال غنيًا بقصص الحيوان غنىً لم تشهده اللغة العربية من قبل.

إن هذا القصص الحيواني خفيف لطيف، يستهوي القارئ ويثير إعجابه! فمن الغريب حقا أن يكون الحمار واعظًا، أو الثور ناصحًا،

أو أن يضرب الحصان الأمثال، أو أن ينطق الفيل بالحكمة، أو أن يرشد الثعلب إلى حسن السياسة، أو أن يهدي الكلب إلى الوفاء، أو أن يكون الذئب محذرًا من الغدر والحيلة، أو أن يتعلم الإنسان عن هذا الحيوان أو ذلك الطائر فضيلة من الفضائل، أو أن ينأى بفضل موعظة الحيوان عن الرذائل! ولكنها أمثال تساق للموعظة. وقصص تروى للهداية، وحكايات تنير لعقول الناس سواء الصراط.

والقارئ يجد في هذا النوع من القصص جمالًا، ويستمتع به استمتاعًا، وقد لا يرضى أن نصرفه عما يجده من جمال واستمتاع، بأحكام نقررها، أو بنقد توجهه، أو مقارنة بين هذه القصص، أو ثناء على مؤلفيها، أو دراسة لأخلاق الحيوان فيها، أو بيان ما يرمي إليه كاتبوها من غايات خلقية أو سياسية أو ما شابه ذلك.

ولكن الدراسة العلمية لهذه القصص تستلزم الحكم والنقد والمقارنات، والثناء والبيان، وقد حاولت ذلك كله في هذا الكتاب، وجعلت الأمثال أساسًا، ولم أعرض أحكامًا من غير أن تستند إليها، فكثرت في الكتاب قصص الحيوان، نصًا أو اختصارًا وتلخيصًا، وقد كانت عنايتي بالنصوص واستخلاص الحقائق منها أساسًا فيما كتبت، وسيجد القارئ في أحكامي عليها اعتدالًا وإنصافًا ومحاولة للوصول إلى الحق بقدر ما استطعت، وأرجو أن يكون في ذلك كله ما يرضي ويفيد.

وكنت أود أن يشمل البحث ما كتبه مؤلفو القرن العشرين من قصص موضوعة ومقتبسة، وما ترمي إليه من غاية في تربية العقل أو الخيال، وأن أتتبع هذه القصص ومناسبتها لأعمار التلاميذ أسلوبًا وغاية. ولكن هذا

يحتاج وحده إلى كتاب، فلم أقدم عنه إلا فقرات قليلة تجمل ما تركت تفصيله.

وأقدم للأستاذ الدكتور إبراهيم سلامة - أستاذ النقد والبلاغة بدار العلوم - عظيم شكري، لإرشاده وحسن توجيهه، وما كان له من فضل عظيم في البحث والترتيب والأحكام التي تطبع هذا الكتاب بطابعها.

كما أسجل اعترافي بالجميل لشخص كريم له فضل في إعداد كتبي ومراجعتها وتحقيق نصوصها، وله كبير الفضل في تشجيعى عليها، ومعاونتي في كتابتها، وتصحيحها، فله مني عاطر الثناء، ومن الله أحسن الجزاء.

القاهرة

ربيع الأول سنة ١٣٧٠هـ
يناير سنة ١٩٥١م

عبد الرزاق حميدة

الفصل الأول
صلة الإنسان بالحيوان

ترجع صلة الإنسان بالحيوان إلى أقدم العصور التي عاشا فيها معًا على ظهر الأرض، وقد شغل الإنسان بالحيوان منذ ذلك الزمن البعيد.

ونشأت بينهما صلة روحية أنشأها الخيال الإنساني. وأعانه على إنشائها الحيوان نفسه بما فيه من غرائز لا تتخلف، ومن صمت يحيطه بالغموض والأسرار، ومن قوة تقذف الرعب منه في القلوب، ومن منفعة عامة ترتفع به إلى درجة عظيمة في الفضل.

ونشأت بينهما صلة مادية أيضا، فتنازعا البقاء حينًا. وتعاونا أحيانًا؛ وتلقى الإنسان عن الحيوان دروسًا ساعدته على أن يرتقي في مدارج الحضارة، وأن ينتقل من أطوار البداوة إلى حياة المدنية.

١ - الصلة الروحية:

تجلت هذه الصلة فى إكبار الإنسان للحيوان وتقديسه تقديسًا بلغ به مرتبة الآلهة.

وسبب ذلك أن عقل الإنسان الأول كان أقل مقدرة على التعليل الصحيح وأضعف من أن يفهم أسباب الأشياء الحقيقية، فاعتقد في الحيوان اعتقادات متعددة، منها أن للحيوان روحًا مثل روحه، وأنها تبقى بعد موته، وتكون قادرة في الحالتين على الخير والشر؛ فكان من الطبيعي أن يتقرب إلى قوة الخير، وأن يسترضي قوة الشر، وأن تكون وسيلته إلى

ذلك القرابين والتقديس، وعبادة الحيوان لذاته، أو لأن روحًا مقدسة تحل فيه.

وربما رأى في الحيوان رمزًا أو صورة لإله، أو لقوة أعلى منه لا يراها فعبد الحيوان على أنه مظهر أو رمز لهما[١].

واعتقدت بعض الأمم البدائية أن روح الحيوان قد حلت من قبل في إنسان، إذ رأوا في بعض الحيوان شبها بصديق مات أو قريب هلك، فأجلُّوا ذلك الحيوان إجلالًا قريبًا من العبادة[٢].

وحسب بعض القبائل أن روح الآباء تحل في أجسام الحيوان، فعبدوه لهذا الحلول. وكانت هذه العبادة حلقة بين عبادة أرواح الماضين الخيرة المسماة «Manes-Worship» وعبادة الحيوان الذاتية[٣].

واعتقد بعض الناس في انتقال الأرواح بعد الموت من جسم إلى آخر سواء أكان جسم إنسان أم حيوان وهو الذي يسمى «Metempsychosis»[٤] أو التناسخ.

وهذا الاعتقاد الغريب في التناسخ قد بلغ حد الإيمان بمقدرة الإنسان على أن يتحول ذئبا مثلا، ويسمى هذا الاعتقاد «Lycanthropy».

وقد قال المصريون القدماء بالتناسخ، ونقلها عنهم الفيلسوف اليوناني فيثاغورس. وقال بها البوذيون من الهنود أيضًا وربطوا هذا الانتقال - انتقال الأرواح بين الأجسام - بفكرة الثواب والعقاب. ويقال إن كل

(١) Animal: The Worship of Chambers's Ency. P. 287. vol.1

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المجلد الأول ص ٣٨٨ من: Chambers's Ency..

(٤) دائرة المعارف البريطانية: مادة Metempsychosis.

تناسخ متأثر بهذه الفكرة عند غيرهم من الناس، قد بدأ من عندهم، وتأثر بالبوذية أو الهندوسية.

ويقول درنك ووتر[١] في تفسير التناسخ أو انتقال الأرواح «Transmigration of souls»، بأنه بعد كثير من التجارب في عدد من الأجسام تتحرر الروح أخيرًا من الشخصية الذاتية «Individuality» وتتصل ببراهما الروح العام، ويتعين عدد هذه الأجسام بالأفعال الحسنة والسيئة التي تفعلها الروح وهي في الجسم.

وقد كتب الأستاذ أحمد بك أمين عن هذه النظرية فقرة في «ضحى الإسلام»[٢] ويقول في ختامها: إن الهنود قد ربطوا الثواب والعقاب والجنة والنار بنظرية التناسخ، فقالوا إن الغرض من جهنم تمييز الخير من الشر والعلم من الجهل، فالأرواح الشريرة تتردد في النبات وخشاش الطير ومرذول الهوام إلى أن تستحق الثواب فتنجو من الشدة وتتردد فيما هو أرقى.

وكان فيثاغورس يرى تناسخ الأرواح بين الإنسان والحيوان، وأن تحرير النفس يكون بترقيها في دورة الحياة، وذلك بالشعائر الدينية وبالفكر والتأمل والفلسفة.

ويظهر أن فكرة التناسخ أقدم وأعم من هذه المذاهب، فهي مرتبطة بفكرة النفس المادية.. وخلاصتها[٣] أن النفس مستقلة عن البدن وأنها مادية، ويمكن أن تخرج من الجسم وتدخله عن طريق الفم والأنف... وأكثر

---

(١) Drinkwater, The Outline of Literature P. 134

(٢) جـ ١ ص ٢٣٨ وفي قصة الأدب في العالم جـ ١ ص ٦٣ تفسير لها أيضًا.

(٣) Metempsychosis, Ency. Brit. P.٣٣٦. vol 15

من آمن بهذه الفكرة يعتقد أن الروح المادية حشرة أو فراشة أو طائر أو ما أشبه ذلك، وأنها تستطيع أن تترك جسدها الأول إلى جسد آخر مادامت قادرة على التنقل، وقد تختار لنفسها حيوانًا أو نباتًا كما تختار إنسانًا. وقد ظهرت هذه النظرية في اليونان في القرن السادس ق. م. ونشر حولها أدب كثير... واختلف في نشأتها هناك فقيل إنها محلية وقيل إنها مصرية أو هندية، والراجح أنها جاءت إليهم من مصر. وهذه العقيدة تلزم معتنقيها أن يحرموا لحم الحيوان كما يحرم الواحد منهم لحم أخيه الإنسان، وهذه من مبادئ الدين البراهمي والفلسفة الفيثاغورية.

ويقول بنفي[1] «Theodor Beniey»، إن فكرة التناسخ قد جاءت من المصريين، لأنه ليس لها وجود عند أحد من الأجناس الهندية الأوروبية إلا عند الهنود. ومما لا شك فيه أن بعض الصلات قد نشأ في القديم بين النيل ونهر السند، وربما كان الفنيقيون الناقلين لهذه العقيدة من مصر إلى هناك[2].

أما عبادة الحيوان في مصر فقد ظهرت هناك من أقدم العصور. وكانت أقدم من الحضارة المصرية - ويقول سبنس عنها[3]- مما لاشك فيه أن الباعث على عبادة الحيوان أولا كان الخوف الممزوج بالإعجاب والرهبة من قوة المخلوق العجيبة، ثم تطورت الفكرة في الحيوان فصار يمثل الإله، وأنه الصورة المادية للصفات المقدسة العلوية، فكان من ذلك أن صار الثور والخروف بما لهما من مقدرة عظيمة على الإنتاج - يمثلان بعض آلهة الطبيعة وعودة الحياة في كل عام. ويقول «لم يكن في طوق الآلهة أن تحتفظ بالحياة

(١) عالم ألماني شهير ترجم البانجا تانترا عن السنسكريتية سنة ١٨٥٩م.

(٢) المجلد الأول ص ٢٨١ من: Chamber's Ency.

(3) Myths & Legends of Ancient Egypt by Lewis Spence P. 282-294.

الدائمة إلا بانتقال الأرواح من جسد إلى جسد».

وقد عُبد الحيوان في مصر في عصورها القديمة فعبد العجل والبقرة والخروف والتمساح والقط والجمل والثعبان والسبع والضبع والصقر وغيرها.

ويقول برجسون[1] (١٨٥٩ - ١٩٤٠م) عن عبادة الحيوان:

«ففي مصر القديمة مثلا ظلت هذه العبادة شائعة حتى النهاية، فالإله الذي نبت من صورة حيوانية أبى أن يتخلى عن هذه الصورة تخليًا تامًا، فَتُوِّجَ جسمه الإنساني برأس حيوان».

ونحن ندهش اليوم لهذا، لا سيما وللإنسان في نظرنا قيمة سامية، فنحن نخصه بالعقل ونعلم ألا تفوق إلا ونبلغه بالعقل، ولا نقص إلا ويستطيع العقل أن يسده، بيد أن الأمر لم يكن كذلك قبل أن يثبت العقل كفاءته، أي حين كانت ابتكاراته نادرة، فما تظهر قدرته اللانهائية على الابتكار. وحين كانت الأسلحة والأدوات التي يزود بها الإنسان لا تصمد لأسلحة الحيوان وأدواته الطبيعية، بل إن التفكير نفسه، وهو سر قوته، كان يبدو له عنصر ضعف، لأنه منبع التردد، على حين أن الحيوان إذ يستسلم لغريزته يستجيب استجابة مباشرة موثوقة، حتى إن عجز الحيوان عن الكلام كان يحاط بهالة من الأسرار، فصمته ترفع وتوفير لوقته أن يضيع معنا في حديث، هذا كله يفسر لنا لِـمَ لَـمْ تنفر الإنسانية من عبادة الحيوان. فتُرى لم قصدت إليها ؟ إنما عبد الحيوان لخاصة مميزة فيه، لقد كان الثور في مصر القديمة يمثل قوة الطعان، وكانت اللبؤة رمز التهديم، وكان النسر لعنايته بصغاره،

(١) منبعا الأخلاق والدين ص ١٦٦ تعريب سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم.

شعار الأمومة».

وما زالت عبادة الحيوان موجودة إلى الآن في الشعوب المتأخرة، بل إن في الشعوب المتحضرة من لا يزال يعبد الحيوان، فهنود أمريكا الشمالية يعبدون «المانيتو Manitou» وهو حيوان في أكثر الأحوال ويحمل الإنسان جلده كأنه تميمة، وينقش رسمه على الجسد أو يحفره على السلاح[١].

والهند من أهم الأمم الحديثة التي ما تزال عبادة الحيوان باقية فيها عند البراهمة، والبقرة المقدسة لا يحافظ عليها الهندوسي فقط ولكنه، يعبدها ويسجد لها يوميا وهو يقدم لها الحشيش والأزهار[٢].

«وما زالت لها الحرية المطلقة في السير في الشوارع والوقوف في الميادين وتعطيل حركة المرور من غير أن يزعجها أحد أو يبعدها إلى مكان خاص[٣]. وما زال الخلاف بين المسلمين والهندوس بسبب البقر حديث الدنيا وكم أزهقت بسببه أرواح وثارت ثورات وفتن، فالمسلمون يذبحون البقر والهندوس يقتلهم ويبخع نفوسهم أن تذبح آلهتهم.

وما زال تقديس الحيوان لمعنى من المعاني، والتفاؤل به، أو التشاؤم منه، في أماكن أو في مناسبات موجودًا في أرقى أمم الأرض حضارة. وما زال بعضه شارة لبعض الأمم كالسبع على العلم الإنجليزي، والنسر على العلم الألماني، وهكذا.

هذه مظاهر من التقديس القديم الذي كانت تتمتع به بعض هذه الحيوانات، في تلك الأمم. ولعل بعض الأمم الراقية ترى فيه ما كان يراه الأقدمون من أسرار وبركة وحماية وفأل حسن. ولكن يمنعهم من عبادته

(1) Animal: the Worship of Chambers's Ency.

(٢) قصة الحضارة ص ٥١٠ The Story of Civilization.

(3) The Story of Civilization.p 510.

تقدم العقول أو تعاليم الأديان. فيكتفون بالتبرك به.

٢ - الطوطمية واللامساس:

ومما يتصل بعبادة الحيوان وتقديسه ما يسمى «الطوطمية واللامساس»، وأولى الكلمتين جديدة في اللغات المتحضرة ولكنها قديمة المدلول في كثير من الأمم والقبائل، وقد دخلت اللغة الإنجليزية سنة ١٧٩١م من قبيلة ojibwy من هنود أمريكا الشمالية. وقد أطلقت كلمة Totem عندهم على الحيوان المقدس، والقبيلة التي تعبد هذا الحيوان وأفراد هذه القبيلة وسمي كل من هذه «طوطما»[١].

أما «الطوطم الأصلي» فهو كائن من الطبيعة تجله بعض القبائل المتوحشة. وقد يكون جمادًا أو نباتًا أو حيوانًا. والطوطم الحيواني أكثر شيوعا ويعتقد كل فرد من أفراد القبيلة «الطوطمية» أن بينه و بين «طوطمه» علاقة نسب. وهو يحمي صاحبه ويساعده، ويبعث إليه الأحلام اللذيذة. وصاحبه يجله ويقدسه. ويقابل هذه المساعدة بالامتناع عن قتل الطوطم إذا كان حيوانًا. وكثيرا ما يتفانى فيه، بلبس جلده، أو بنقش صورته على جسده أو ما أشبه ذلك[٢].

أما علاقة النسب التي بين الإنسان والطوطم فتختلف باختلاف الأماكن: ففي بعضها يعتقد أعضاء العشيرة أنهم منحدرون من الطوطم نفسه، وفي بعض الجهات الأخرى يظن أعضاء العشيرة أنهم منحدرون من شخص له علاقة من بعض الوجوه بالطوطم كـ «المانيتو» في أمريكا

(١) أساطير العرب في الجاهلية ص ٥٤ عبد المعيد خان، وقصة الحضارة ص ٦٠.
(٢) Chambers's Ency جـ ١ ص ٢٨٨.

الشمالية.

وأهم مظاهر الطوطمية هي:

١ – اعتقاد أعضاء العشيرة أنهم يمتون بعلاقة الدم إلى ذلك الطوطم.

٢ – تعظيم الطوطم وتقديسه ورفعه إلى مقام العبادة واتخاذه إلها للعشيرة.

٣ – تسمية العشيرة باسم الطوطم.

٤ – تحريم أكله ولمسه والنظر إليه، ومن يتعرض لذلك يصاب بأذى.

٥ – توهم أصحابه أنه ينذر بالخطر قبل وقوعه.

٦ – الاحتفال بدفن الطوطم والحزن على وفاته.

وقد ساعدت الطوطمية على توحيد القبيلة التي تعتقد في طوطم واحد وفرضت عليهم كثيرًا من الواجبات من أهمها ما يسمى «التابو Taboo»، أو اللامساس.... وهو نظام مبني على قيود دينية تحرم بعض الأشياء المقدسة واستخدامها والنظر إليها والقرب منها بسبب القداسة التي لهذا الحيوان أو النجاسة التي هو عليها[1].

وكان الخروج على هذه النواهي واستباحة هذه المحرمات سببا في حلول العقاب بفاعلها. وكان الموت هو العقاب في المخالفات الكبيرة وبعض الأمراض في المخالفات الصغيرة.

على أن بعض الحيوان المقدس كان يؤكل في حالات معينة على أنه رسم ديني كما أكل «الجالاز Gallas» – بعض قبائل الأحباش – السمك الذي عبدوه؛ أو كان يتخلص منه لسبب ما، كما أغرق المصريون

(١) الدكتور علي عبد الواحد «المسئولية والجزاء» ص ٨٧.

القدماء عجلهم «أبيس»، إذا بلغ سنا معينة[1].

وفي الطوطمية كلام كثير ولكنا عرضنا لها بايجاز مبينين أهم مظاهرها لأنها نوع من عبادة الحيوان وتقديسه[2].

٣ - الصلة المادية:

وتجلت هذه الصلة قديما وحديثا في فضل الحيوان على الحضارة والناس: وقد أرجع كثير من الباحثين الفضل في نشأة الحضارة وتقدمها إلى ما تعلمه الإنسان عن الحيوان من مقدمات الحضارة في الأزمنة القديمة: فالحيوان هو الذي أرغمه على التجمع، إذ كان ضعف الإنسان أمام قوة بعض الحيوان سببا من أسباب تجمع الناس وتعارفهم ليدفعوا عن أنفسهم ما يتعرضون له من خطر هذا الحيوان القوي[3].

وقد تعلم منه كيفية الادخار فساعده ذلك على الاستقرار في مكان وعلى الانصراف إلى أعمال أخرى كجمع القوت... «فالكلب الذي يدفن العظم والسنجاب الذي يجمع الجوز كي يستمتع به في مستقبل الأيام، والنحل الذي يملأ الأقراص بالشهد والنمل الذي يخزن الطعام لليوم المطير،كانت من بين مبتدعي الحضارة وكانت هذه وغيرها من المخلوقات الحاذقة الماهرة مما علم آباءنا الأولين فن الادخار للغد من الزائد عن اليوم، أو الاستعداد للشتاء بما يكثر من خيرات الصيف»[4].

وكان من فضله أن علم الإنسان المقدرة على البحث عن الطعام في

(1) The Story of Civilization ص ٦٠.

(٢) انظر كتاب «النظم الاجتماعية والسياسية عند الساميين»، للمرحوم محمود جمعة من ص ٩٩ - ١٤٢، وهو ينفي معرفة العرب وممارستهم للطوطمية.

(٣) ص ٣٠ The Story of Civilization لمؤلفه Durant

(٤) المرجع نفسه ص ٦.

الأرض فقد كان الإنسان الأول يبحث عن الطعام بيد عارية قد تدمي أو تكل عن الحفر في الأرض الصلبة، فلما رأى الحيوان يستخدم مخالبه وأنيابه أعجب بها ولما سنحت الفرصة استعارها للبحث، أو صنع مثلها من أغصان الأشجار[١].

ولما انتقل الإنسان من حياة الصيد غير الآمنة، إلى حياة الرعي الأكثر أمنًا وطمأنينة، كان للحيوان فضل عليه أيضًا، فإنه ألف الحيوان وربى الأغنام وانتفع بها في أعمال الزراعة، واستخدم ألبانها ولحومها في الطعام[٢].

ولا يعرف بالدقة متى كان ذلك، ويظن أنه بدأ عندما استحيا الإنسان صغار الحيوان الذي قتله في الصيد، وجاء بها إلى خيمته ليتلهى بها الأطفال ثم كبر الحيوان الصغير، وأنس بالناس، وعاش بينهم صديقًا وخادمًا، يحمل الأثقال ويثير الأرض ويسقي الحرث، وأجره على ذلك ما يقدم إليه من الطعام والمأوى.

ثم تكاثر الحيوان، وكان منه ما يجود باللبن، فاستراحت المرأة من طول الرضاع، ووجد الأطفال طعامًا جديدًا يمكن الاعتماد عليه، فقويت صحتهم وقلت الوفيات بينهم.

وقد عقد «ديورانت»، فصلا عنوانه «أسس الصناعة»، يقول فيه[٣]: يظهر أن الإنسان كان راضيا في أول الأمر بما تمده به الطبيعة من ثمرات الأرض طعامًا، ومن جلود الحيوان وأوباره كساء... ثم حاكى الحيوان في آلاته وصناعته، إذ رأى القرد يقذف أعداءه بالحجارة والثمار، ويكسر

(١) المرجع نفسه ص ٦.
(٢) ص ٨.
(٣) ص ١٢ The Story of Civilization.

الجوز والأصداف بالأحجار، ورأى كلب البحر يبني السدود، والطيور تبني الأعشاش و الشمبانزي تقيم الأكواخ، فحسد الحيوان على قوة مخالبه وأسنانه وقرونه وخراطيمه وجلوده؛ فصنع آلات وأسلحة تشبه هذه وتنافسها. وأخذ من الحيوان كثيرًا من أدواته، فصنع المغارف والملاعق والآنية والصحاف والأكواب والمواسي من أصداف الشواطئ، والآلات الصلبة والرقيقة من القرون والعاج، ومن الأسنان والعظام، ومن الشعر والجلد؛ واتخذ لهذه الآلات الأيادي من الخشب، وشدها بشرائح من الشجر، أو بخيوط من جلود الحيوان وعضلاته، وربما دهنها بدمه.

وفى صناعة النسيج اهتدى الإنسان بالحيوان، فبيت العنكبوت وعش الطائر، وتشابك الأوراق والأغصان في الغابات، تضرب مثلًا واضحًا جدًا على أن النسيج يحتمل أن يكون من أقدم الفنون التي عرفها الإنسان؛ وفضل الحيوان ظاهر في تعليم الإنسان هذا الفن[1].

وهذا قليل من كثير من فضل الحيوان على الإنسان وهدايته إلى طريق الحضارة. أما مظاهر هذه الصلة في العصور الحديثة فهي أكثر من أن تذكر.

وفضل هاتين الصلتين على الإنتاج الأدبي قديم وعظيم.

أما الصلة الروحية فقد كان لها مظاهر أدبية متعددة منها ما جاء على شكل أساطير قصصية تسمى «الميثولوجي، ومنها خرافات تسمى الـ Fables بمعناها العام، ومنها قصص لها مغزى خلقي، وربما كانت جزءًا من الخرافات وهي المعروفة باسم «Apologue»، أو الموعظة.

وعندنا نوع من القصص الدينية كان الحيوان موطن إعجاز فيه، وهي

(١) المرجع نفسه ص ١٣.

قصص وقعت حوادثها فعلا وأعنى بها قصص المعجزات التي كان الحيوان فيها مظهر الإعجاز كالبقرة والناقة والنملة والهدهد.

وكانت الصلة المادية مصدر أدب قويًا يصف الحيوان وصفًا خارجيًا في الغالب أو يتحدث عن منافعه ويذكر بعض خصال الخير فيه، أو يصف جمال منظره، أو يقص بعض المغامرات في صيده، أو ما يشبه ذلك. وعندنا في الأدب العربي شيء كثير من هذا كوصف امرئ القيس للفرس، والنابغة الكلب الصيد، وطرقه للناقة.

وننتقل الآن إلى الكلام عن هذه الآثار الأدبية التي تنشأ من العلاقة الروحية.

***

الفصل الثاني
الأساطير ـ الخرافات ـ المواعظ

١ ـ الأساطير:

الأسطورة أو «Myth» قصة من القصص الخرافية، أو حكاية من الحكايات الخيالية، وبخاصة تلك التي توجد عند الأمم في حالاتها الأولى.

وتشتمل على أشخاص أو حوادث أو أعمال فوق طاقة البشر، وفيها فكرة عامة تدور حول ظواهر طبيعية أو تاريخية[١].

أما الميثولوجي Mythology أو الأساطير فيقصد بها مجموعة هذه الحكايات، كما يقصد بها أيضا دراسة هذه الأساطير دراسة علمية، كالبحث في أصلها، ومواطنها، وعلاقاتها بالدين، ودلالتها على أخلاق الأمة ومعتقداتها وهكذا. وقد شغل الإنسان من قديم الزمن بمظاهر الطبيعة التي كانت تواجهه صباح مساء ولم يستطع لها تفسيرًا، وأبى أن يتركها بلا تفسير فشغل بها وأنشأ هذه الأساطير حولها.

وقد سأل الإنسان منذ ذلك الحين عن أصل العالم والإنسان والحيوان. وكيف نشأت النجوم، وعلى أي نظام تسبح في أفلاكها، وكيف تتحرك الشمس والقمر، وكيف كانت هذه الشجرة حمراء الزهر، وكان على ذيل هذا الطائر علامة سوداء وغير ذلك من الأسئلة[٢].

---

(١) مادة The Shorter Oxford English Dictionary: Myth.

(2) The Outline of Literature P. 17.

وقد أجاب عن ذلك متأثرًا بإحساسه بالمساواة بينه وبين بقية المخلوقات، إذ اعتقد عندئذ أن في كل حيوان روحًا كروحه، وأن لكل شيء شخصية كشخصيته. وحاول حل مشاكل الطبيعة متأثرًا بهذه المعتقدات، وأجاب عن تلك الأسئلة في قصص سُميت الأساطير. وكان من هذه الأساطير عدد كبير يدور حول الحيوان، وكان يسمو فيها إلى درجة الألوهية أحيانًا.

ومما يثير العجب أن يكون هناك تشابه عظيم بين أساطير الأمم؛ أما تعليل هذا التشابه فقيل فيه إنه نتيجة الصدفة فقط، لكنه تعليل غير مقبول فالصدفة لا تؤدي إلى الاتفاق الكثير الدقيق الموجود بين هذه الأساطير. وقيل إن هذا التشابه عند الهنود والفرس واليونان والرومان والجرمان والروس والكلتيين وأهل اسكندیناوه راجع إلى وحدة الأصل، لأنهم ورثوها عن آبائهم الأولين الذين كانوا يعيشون في مرتفعات آسيا الوسطى، وهاجرت معهم لما هاجروا إلى آسيا الصغرى وأوروبا.

ولكن هذا التعليل على وجاهته يضعف إذا عرفنا أن مثل هذه الأساطير قد عرف عند الشعوب غير الآرية كالصينيين وهنود أمريكا[1].

ولعل أرجح الأقوال في عموم الأساطير وتشابهها أنها نتيجة تجارب عامة، وعقليات متقاربة، وعواطف متجانسة يشترك فيها الناس جميعا قبل أن تطغى عليهم المؤثرات الخاصة كالبيئة والثقافة والحضارة وعوامل الزمن،. المؤثرة في تطور الأساطير.

(١) أورد درنكوتر بعض هذه الأساطير المتشابهة في ص ٣٠ من كتابه السابق وانظر قصة الأدب ص ١١٥ جـ ١.

فقصة ديانا وأنديميون Diana and Endymion اليونانية قد عرف مثلها الأستراليون المتأخرون والسنغاليون وبعض قبائل أفريقية؛ وخلاصتها عند اليونان كما يأتي[1]:

كانت ديانا إلهة القمر تسوق جيادها الناصعة البياض عبر السماء فلمحت أنديميون، الراعي الجميل الفاتن، نائمًا على سفح جبل، فانحنت عليه وقبلته وكانت تقف بعربتها كل ليلة في ذلك المكان لتستمتع بلحظة سعيدة، لكنها بعد قليل من الزمن لم تحتمل التفكير في أن يفلت منها جمال أنديميون، فأغرقته في نعاس دائم، وأخفته في كهف لا يدنسه إنسان.

«هذه القصة تمثل أسطورة من أساطير النجوم وأنديميون فيها رمز للشمس الغاربة التي يتطلع إليها القمر كلما بدأ رحلته ليلا».

ولا تختلف عند الجماعات الأخرى التي أشرنا إليها إلا في التفاصيل. أما الفكرة العامة فواحدة.

وبعض المفسرين للأسطورة يجعلها رمزًا للقوى النفسية والأخلاقية أو مظاهر الطبيعة، كأسطورة إيزيس وأوزوريس، لكن هناك خطرًا في الالتجاء إلى مثل هذا التفسير في كل الحالات. إذ إن بعضها لا يمكن تعليله على هذا النحو، فضلا عن أن مرحلة الرمز في تاريخ التطور الإنساني متأخرة.

وخذ مثلًا لذلك القصة الهندية التي تحدثنا عن السبب في ارتفاع قاع «مضيق Palk»، الذي بين الهند وجزيرة سيلان، وهي جزء من قصة

(١) The Outline of Lit. P. 30 وقصة الأدب جـ ١ ص ١١٦.

«رامايانا[1] Ramayana»، فإن «راما»، فقد زوجته الجميلة «سيتا» بحيلة دبرها له «رافانا Ravana» ملك سرنديب، ولما علم بحقيقة الأمر قصد مسرعًا إلى مكان «رافانا» فى مدينة لانكا بجزيرة سيلان. وفي طريقه إلى الساحل الجنوبي مر بإقليم تسكنه قبيلة متوحشة في هيئة القرود، فحاولت أن تعوقه، لكنه شق طريقه بينها في غير خوف. فأعجبت القرود ببسالته وحالفته وتطوع جيش جرار منها بصحبته ليعاونه على عدوه.

بلغ «راما» - على رأس جيش القرود - الشاطئ الجنوبي. ولما عاقه البحر عادت القرود إلى جبال هملايا وحملت منها أثقالًا لا حصر لها من الصخر، فقذفت بها في الماء فشيدت جسرا يصل ما بين الأرضين، وعطف إله البحر على «راما» أيضًا - فرفع له قاع البحر حتى يهون على القردة ما كانوا يصنعون؛ وما دامت السماء سماء والأرض أرضًا فسيظل هذا الجسر ناطقا باسم «راما»[2].

وعبر جيش القردة إلى مدينة «لانكا» وحاصروها ودامت الحرب بين المغيرين والمدافعين قوية عنيفة حتى هزم (رافانا) وقتل، وتخلصت «سيتا» وعادت إلى زوجها.

فليس في هذه القصة رمز ما، وإن كانت تفسيرًا ساذجًا لبعض مظاهر الطبيعة.

---

(١) قصة الأدب في العالم جـ ١ ص ٥١.

(٢) ولا تزال الجزر الصغيرة المنتشرة بين الهند وسيلان تسمى عند الأهالي «جسر راما». وهي التي تسمى في كتب الجغرافيا جسر آدم، «رامايانا» ملحمة هندية قديمة «كالماها بهاراتا»، تحتوي كثيرًا من أساطير الهند في أصل العالم والخلق وفيها أساطير تاريخية وفلكية واجتماعية . «قصة الأدب في العالم جـ ١ ص ٤٨».

ومهما يكن من شيء فإن الباحثين فى الأساطير لم يتركوها بلا تفسير، ومن الذين قالوا بأنها رمزية فلاسفة «إيونيا» وأخذ عنهم أفلوطين وغيره من فلاسفة الإسكندرية، وهذا التفسير يقبل عندما يكون المؤلفون من الفلاسفة أو العلماء أو القساوسة الذين يمكن أن يقصدوا إلى الرمز وأن يجعلوا الأسطورة شاملة للمغزى الديني أو الفكرة الفلسفية التي يريدون توضيحها في هذا الثوب من الأدب؛ لكن هذا النوع غير موجود في عهود الأساطير الأولى.

وهناك مذهب ظهر في القرن الرابع ق.م يعرف باليوهيميرية Euhemerism نسبة إلى الفليسوف اليوناني يوهيميرس Euhemerus وخلاصته أن الأساطير نشأت من التاريخ الحقيقي. وأن الآلهة وكبار الأشخاص فيها كانوا ملوكًا وأبطالًا وأصبحوا آلهة بعد موتهم. ولكن هذا التفسير لا يمكن أن يشمل نشأة كل الأساطير التي ملأت العالم ولا علاقة لها بالتاريخ.

وقد قيل في الأساطير إنها قصص موضوعة لتفسير الشعائر الدينية التي يتوارثها البدائيون ولا يفهمون لقيامها معنى. وأقوال أخرى[1].

ومما يلحق بهذه الأساطير قصص المسخ، أو تحول بعض الناس حيوانًا بقوة سحرية مثلا، روى لنا منها في الأساطير الإغريقية قصة «باخوس» إله الخمر[2] وخلاصة القصة أن باخوس قد أجر سفينة من قرصان «تيرينيا» لتنقله من مكانه إلى مكان، ولكنهم بدلا من أن يذهبوا به إلى غايته اتجهوا به

(١) قصة الأدب ص ١٢٣.

(٢) Comus and Lycidas by Milton P.556.

إلى آسيا كي يبيعوه رقيقًا. فحول الإله الشراع والمجاديف إلى ثعابين، وصار أسدًا وأنبت اللبلاب حول السفينة، وانطلقت أصوات الصفارات من كل جانب، وجن جنون الملاحين جميعًا، ووثبوا إلى البحر، ومسخوا دلافين.

وهذه تبين عقيدة الناس فيما يستطيع الآلهة أن ينزلوه من عقاب إذا أراد أحد بهم سوءًا.

هذه الأساطير كانت عرضة للتغير بالزيادة والنقص في عصر الرواية ولما عرف الناس الكتابة ودونوها أصبحت أقدر على الاحتفاظ بشكلها والبعد عن التغير إلا إذا كان قصدا.

والأساطير تنشأ من الأدنى إلى الأعلى، وتظل خاضعة للتحوير والتبديل[1] حتى تدون كما سبق. وعندئذ تدور دورة أخرى فتعود من الشعراء والأدباء إلى العامة.

٢ - الخرافات الحيوانية «Fables»:

وتعرف هذه بأنها قصة يمثل الحيوان فيها دورًا إنسانيًا[2].

وفي مادة fable في دائرة المعارف البريطانية[3] نجد دكتور جونسون Dr. Johnson يقول في تعريفها. «يبدو أن الخرافة في أحسن وأدق حالاتها قصة تخترع فيها شخصيات غير عاقلة من الحيوان أو الجماد، لغاية خلقية، تمثل وتتكلم، ولها عواطف ومشاعر كالناس».

---

(١) Mythology مادة Chambers's Ency.

(٢) Chambers's Ency. vol'l-p. 821 (مادة Beast-fable).

(٣) جـ ٩ ص ٢٠ مادة Fable.

أما دائرة المعارف اليهودية[1] فتعرف الخرافة «fable» بأنها قصة رمزية خلقية، يمثل الحيوان أو النبات فيها أحيانًا ويتكلم كالإنسان. والفرق بينها وبين قصة الحيوان (Beast–Tale) أن قصة الحيوان ليس لها مغزى، وإن قام الحيوان فيها بدور إنساني.

ويقول شارل أوبرتان (Ch.Aubertin) في كتابه القيم «خرافات لافونتين Fables de Lafontaine»[2] : إن كلمة خرافة أو Fable يمكن أن يكون لها: معنيان: معنى عام، وهو قريب من «قصة خيالية» ومعنى خاص ضيق؛ وتدل الكلمة في معناها هذا على قصة قصيرة من الشعر أو النثر ذات تمثيل مسرحي، ممثلوه في أكثر الأحوال من الحيوان، لكن طبيعة الإنسان تبقى ظاهرة دائمًا، ويبقى هو ملحوظًا أبدًا.

إن الخرافة بهذا المعنى ترجع إلى أصل قديم جدًا، إنها شكل من الأشكال الأولى للشعر، ونوع من الأنواع المتعددة للفن الساذج الماهر في الوصف والقصص؛ ويميزها طابعان خاصان يوضحان مبدأها ويكونان منشأها:–

١ – عالم الحيوان الذي أخذت منه شخصياتها ويجب أن يحتفظ بحقيقته و أن يمثل الحياة الحقيقية، أو الطبيعية المادية والخلقية لكل نوع، ولا يسمح فيها لكائن رمزي أو خيالي محض أن يتدخل.

٢ – ومن جهة أخرى هذه الكائنات الحقيقية، أبطال القصة الخرافية تتصف بالعقل والنطق الإنساني؛ فهي من الحيوان ولكنها أنصاف أناسي.

هذان هما العنصران اللذان يجب أن تجمع بينهما الخرافة ويستطيع المرء بالرجوع إليهما أن يعرف الخرافة أينما وجدت.

(١) جـ ٧٠ ص ٢٣٤ مادة Fable.
(٢) ص ١٩.

ونخرج من هذا بأن كلمة خرافة «Fable» لها معان متعددة:

(١) أنها قصة حيوانية لا مغزى لها «Beast Fable».

(٢) أنها قصة حيوانية لها مغزى وعندئذ تساوي «Apologue».

(٣) أنها تساوي قصة خيالية (Fiction) فهي أعم من قصة حيوانية.

ولكن المعنى الأدبي الاصطلاحي الذي يكاد يجمع عليه مؤرخو الأدب والنقاد ودوائر المعارف هو: أنها قصة حيوانية يتكلم الحيوان فيها ويمثل مع احتفاظه بحيوانيته، ولها مغزى. ولا فرق عندئذ بينها وبين موعظة «Apologue» بالرغم مما ذكرته دائرة المعارف البريطانية من فرق بينهما[١].

أما استعمال كلمة «خرافة» العربية في هذا المعنى فهو استعمال صحيح وأرى كلمة خرافة أنسب كلمة عربية لكلمة Fable و Apologue معًا.

جاء في القاموس المحيط[٢] أن الخرافة «حديث مستملح كذب. وربما كان مأخوذًا من اسم رجل من عذرة استهوته الجن، فكان يحدث بما رأى فكذبوه».

وفي اللسان[٣] «وذكر ابن الكلبي في قولهم حديث خرافة ـ أن خرافة من بني عذرة أو من جهينة اختطفته الجن، ثم رجع إلى قومه، فكان يحدث بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس فكذبوه، والراء فيه مخففة، ولا تدخله الألف واللام لأنه معرفة، إلا أن يراد به الخرافات الموضوعة من حديث الليل، أجروه على كل ما يكذبونه من الأحاديث، وعلى كل ما يستملح ويتعجب منه».

(١) جـ ٩ ص ٢٠.

(٢) جـ ٣ ص ١٣٢.

(٣) جـ ١٠ ص ٤١٢.

وأي حديث يستملح ويتعجب منه أكثر من حيوان ينطق بالحكمة والموعظة الحسنة، ويرمي إلى المعنى البعيد!

إنها بهذا المعنى الأخير الذي جاء في لسان العرب يمكن أن تطلق على كلمة Fable و Apologue أيضًا.

وما لنا نحاول أن تثبت صلاحية كلمة خرافة لتدل على قصة الحيوان الحكيم الواعظ وقد استعملت في هذا المعنى منذ زمن بعيد؟ لقد استخدمها في هذا المعنى ابن النديم إذ يقول في كتابه الفهرست[1].

قال محمد بن إسحق: «أول من صنف الخرافات وجعل لها كتبًا وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الفرس الأول».

وبعد أن يتكلم عن ابن عبدوس الجهشياري وما حاوله من تأليف كتاب فيه أسمار العرب والعجم والروم قال: «وكان قبل ذلك ممن يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم جماعة، منهم عبد الله ابن المقفع وسهل بن هرون، وعلي بن داود كاتب زبيدة، وغيرهم».

وهذا نص صريح في استعمال كلمة خرافة. ولا مانع إذن من استعمالها لتدل على هذين النوعين. فإذا خيف اللبس - وهو موجود في اللغات الأجنبية - فلا مانع من إطلاق كلمة الموعظة على كلمة «Apologue» وذلك لأنها تلزم المغزى الخلقي في نهايتها. وقد استعمل صاحب «العيون اليواقظ» هذه الكلمة في عنوان الكتاب فسماه «في الحكم والأمثال والمواعظ»؛ وأصر عليها صاحب آداب العرب في رأس كل قصة فسماها «عظة».

(١) ص ٣٠٤.

٣ - قصة الموعظة (Apologue):

وهذه خرافة قصيرة أو قصة رمزية، يراد بها أن تكون وسيلة لغاية خلقية، أو أن تنقل درسًا نافعًا. ومن أحسن المعروف من هذا النوع ما جاء عن «جوثام» Jotham في كتاب القضاة[١] The Book of Judges وقد تحدث فيها جوثام إلى أهل شكيم فقال لهم[٢] «لقد ذهبت الأشجار يوما تختار ملكا عليها، فطلبت من شجرة الزيتون أن تحكمها فأبت، لأنها لا تريد أن تستعلى على الأشجار. وقالت الأشجار مثل ذلك لشجرة التين، لكنها أبت قائلة: أأترك حلاوتي وثمرتي الجيدة وأذهب لاستعلى على الأشجار! وقالت الكرمة مثل ذلك. فذهبن جميعا إلى الشوك ودعونه أن يحكمهن، فقال لهن: إذا أردتن ذلك حقا فتعالين، وضعن الثقة في ظلي. فإذا لم تفعلن فلتخرج النار من الشوك ولتلتهم كل أرز لبنان».

ومنها كذلك فأر الحقل وفأر المدينة[٣] وقد جاء الأول منهما زائرًا للثانى فنغص القط عليهما الطعام وترك فأر الحقل الأكل.

وقال والقلب يذوب بالغصص لا خير في اللذة يعلوها النغص

ومن أمثلته أيضًا «المعدة والأعضاء»[٤] وخلاصتها أن الأعضاء ضقن بجمع الطعام للمعدة، ورأين أن الفائدة من الطعام تعود على المعدة،

(١) جـ ٢ ص ١١٨.

(٢) الإصحاح ٩ من آية ٧ - ١٥، وذلك لأن أخاه قد ملك البلاد قهرًا وقتل كل إخوته إلا جوثام هذا فإنه هرب، وقال تلك الموعظة لأهل شكيم قبل هربه، يشير إلى عدم صلاحية أخيه للملك، وأنه يحكم قهرًا، وأن عاقبة الحاكم والمحكوم ستكون وخيمة.

(٣) ص ٢٩ العيون اليواقظ.

(٤) ص ٨٩ العيون اليواقظ.

فأضربن عن العمل، فجاع الجسم كله وتألم. وقد ضربت مثلًا للحكومة والرعية، و أن كلا منهما يعمل لخدمة غيره، وأن التعاون بينهما يؤدي إلى خيرهما معًا.

وعلى هذا يكون الفرق بينهما من هذه الناحية غير موجود.

غير أن الخرافة تكون أقل تعقيدًا وطولًا مما تكون عليه الموعظة عادة. ثم إن هناك من الخرافات ما يخلو من المغزى الخلقي.

جاء في دائرة المعارف البريطانية[1] ما يأتي: وتجد في قصص الحيوان الأولى، وهي الأصل المباشر لخرافات إيسوب، أن القصة تروى لذاتها فقط وأنها خالية من كل مغزى، وتضرب مثلًا لذلك قصة الهنود المسطحي الرءوس فتقول: «وجد الذئب الصغير في أرض السحاب أسياده العناكب بشعورهم الرمادية، وأذنابهم الطويلة الملتوية، وقد نسجوا له كرات من الخيط لينزل عليها إلى الأرض. فلما نزل وجد امرأته البطة المنقطة، التي أخذها منه الذئب العجوز، فهربت مضطربة، وهذا هو السبب في أنها تعيش في الماء وتغطس منفردة حتى اليوم» هذه القصة ليس لها مغزى خلقي، وهي أسطورة أكثر منها خرافة، لتفسير طبع البطة وهو حبها للماء ونفورها من الذئب.

ويمكن أن تقول هنا شيئا عن الفرق بين الخرافة Fable بمعناها الاصطلاحي، والأسطورة Myth، فالأسطورة تنمو ولا تخترع. وتنشأ نشأة شعبية وهي إنتاج غير مقصود يخترعه الخيال الفطري لتفسير بعض الحقائق أو الظواهر الكونية مثلا.

(١) جـ ٩ ص ٢٠ مادة Fable.

ويلاحظ أن كل هذه القصص التي سبقت الإشارة إليها من الأساطير والخرافات Fable وقصص المواعظ Apologues لا تقتصر على الحيوان وإن كان موضعه فيها أبين من غيره، والقصص التي وردت فيها عنه أكثر عددًا.

وكل هذه القصص نوع من الرمز أو التلميح فما هو الرمز؟

التلميح أو الرمز:

إنه صورة من صور التعبير تحمل معنى حرفيا ظاهرًا وآخر مفهومًا مستورًا. وتكون في اللغة كما تكون في غيرها كالنحت والرسم. ومن صور هـذا الرمز تلك القصص الحيوانية، فهي تتضمن قصة، ووراء هذه القصة غاية ترمى إليها. على أن في هذا الرمز أو التلميح فرصة لتعدد المغزى الخلقي.

وقد كثرت القصص الحيوانية من هذا النوع الرمزي في عصور الحضارة. أما الإنسان الأول فلم يكن يرى فيها رمزًا، بل كان يرى فيها حقائق، لأنه كان يُنسب إلى الحيوان طبيعة وروحًا ومنطقًا كالإنسان وكان يؤمن بالتناسخ والتحول، ومثل هذا الإيمان يجعل ما نحسبه نحن رمزًا، حقائق عند الإنسان الأول.

وما زال كثير من القبائل البادية و المتأخرة عن الحضارة تقص القصص الحيوانية التي لا مغزى لها، كما تقص الخرافة ذات المغزى. والأول كثير والثاني علامة على البدء في سلم الحضارة.

أما القصص ذات المغزى الخلقي فهي – على الرغم من قدمها – لم تنشأ إلا في أمم تركت أطوار البداوة وفكرت تفكيرًا مركبًا، لما تحتاج إليه القصة ذات المغزى من خيال يستطيع أن ينتقل من القصة إلى مغزاها.

ويرى «برتون» في خرافات إيسوب أنها - على الرغم من قدمها[1] - من عمل عصور متحضرة. ولهذا كان فيها المغزى الخلقي والصورة الرمزية.

ومن الذين تحدثوا عن قدم الخرافة «شارل أوبرتان» مؤلف «خرافات لافونتين».. فإنه بعد أن ميز الخرافة بأنها تحتوي على الحيوان المحتفظ بحقيقته، والناطق بالحكمة في الوقت ذاته قال[2]:

«ومن السهل أن نفهم كيف نشأت فكرة الجمع بين هذين في نفس الشعوب الفطرية، فإن الاتصال بين الإنسان والحيوان كان أشد في بدء تكون الجماعات الإنسانية وكان الفرق بينهما أقل مما صار إليه في عهود الحضارة. وكان الحيوان يقدم للإنسان كثيرا من الأعمال الضرورية القيمة وكان ينقذه من كثير من الأخطار، وفي تلك العهود المظلمة كانت بعض طباع الحيوان ودقة غرائزه تثير خيال الإنسان ودهشته، فنشأ من ذلك التآلف أن أقام الإنسان بينه وبين الحيوان نوعًا من المساواة والتشابه، أو ظن ذلك على الأقل. فأي عجب بعد هذا في أن ينقل الإنسان إلى عالم الحيوان كل الصفات الاجتماعية والسياسية والدينية الموجودة بين الناس».

وليس في هذا ما ينقض الرأي الذي تقدم، وهو أن الخرافة تكون من إنتاج العقل الإنساني بعد أن يتدرج في التطور زمنًا طويلًا. فإن عصر الجماعات الإنسانية عصر قد بلغ فيه العقل مرحلة لا بأس بها من التطور، على أن «أوبرتان» لم يعين لنا الوقت الذي تنشئ فيه تلك الشعوب الفطرية هذا النوع من الأدب وهو الخرافات. ولنا أن نتصور هذا العصر

(1) Chambers's Ency. vol. 1'p. 821.

(٢) ص ١٩.

متأخرًا جدًا عن بدء اجتماعها؛ وذلك عند استقرارها، وملاحظتها لطباع الحيوان، وأخذها من عالمه قصصًا تشبه بعض ظروف الناس وتنطبق على أحوالهم. أما إلحاق المغزى بالقصة فهو عمل متأخر جدًا وبخاصة في القصص الاجتماعية والسياسية إذ إن تجارب الحياة وملاحظة الأخلاق العامة، وسير الأمور العادية من الأشياء التي يحتاج إليها قبل إنشاء تلك القصص، وتتلو ذلك مرحلة التأليف والغاية الخلقية. ولا شك أن هذا متأخر، عن بدء الاجتماع الإنساني.

أما القصص التي لا مغزى لها، والأساطير المتعلقة بتغير ظواهر الكون السماوية والأرضية فهي أسبق من هذه بلا شك، لأن ضرورة رؤية هذه الأشياء تدعو إلى التساؤل والإجابة عن الأسئلة بشكل من الأشكال.

***

الفصل الثالث
موطنها الأول وتنقلها

ليس من السهل تحديد الموطن الأول لهذه القصص الحيوانية بمعناها العام، إذ إنها فطرية - فهي إذا نوع من الأدب قديم العهد بالوجود، بل إنه من أقدم أنواع الأدب. وربما كان بعضه للتسلية وبعضه لتفسير مظاهر الطبيعة. أما القصص ذات المغزى فهي التي تتنازعها مصر والهند واليونان وربما ضم إليها بلاد آشور و بابل.

ويمكن أن تستبعد اليونان أولًا، بسبب ظهور الحضارة فيها متأخرة عن بلاد الشرق، وأن أكثر من كتبوا عن منشأ الخرافات يقولون إنها شرقية النشأة[1]:

يقول «ماكس مولر» Max Muller [2] إن خرافات إيسوب قد وجدت طريقها إلى اليونان في زمن هيرودوت أو قبله. ويقول «رولنسون» Rawlinson بأن هجرة الخرافات أولًا كانت من الشرق إلى الغرب لا العكس، ويستدل على ذلك بأن الحيوانات والطيور التي تقوم بالأدوار المهمة في الخرافات، حيوانات هندية في الأغلب، كالأسد والفيل والطاووس وابن آوى (وقد صار ثعلبًا في التراجم الأوروبية) والصلة بينه

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة folk-tale.
(٢) عالم لغوي إنجليزي من أصل ألماني (١٨٢٣ - ١٩٠٠م).

وبين الأسد شيء طبيعي، فيقال إنه يسعى على الأسد بطعامه أو يرشده إلى مواضع الصيد ولكنها ليست كذلك بين الأسد والثعلب ولا يستطيع الإنسان أن يقرأ الأدب الهندي بدون أن يحس إحساسًا مستمرًا بجو الغابات[1].

ومما يجدر ذكره أن الخرافات كثيرة في الأدب الهندي القومي، والعقل الهندوسي قدير عليها، وعبقرية اختراعها لا تنفد عندهم، بينما تجد إيسوب وحده عند اليونان. ومن أشهر القصص عندهم، المملوءة بالفكاهة والحكمة العملية والشواهد المنتزعة من الحياة الشعبية في صميمها، تلك القصص التي جاءت عن مولد «بوذا» في كتاب «جاتاكا Jataka». وفيها عدد كبير من القصص الحيوانية. وفي كتاب الهند القديمة وحضارتها[2].

«كثر البحث في أصل الخرافات وقال بعض العلماء إنه يوناني وقال بعضهم – ولعل حجته أقوى – إن أصلها هندي. وقد كان هناك تبادل وتأثير من كلا الجانبين. ويظهر أن الهند أعطت أكثر مما أخذت».

وقد جاء في الكتاب بعد ذلك أن البحث الآن في هذه المسألة عبث فليس هناك من يبحث عن مولد القصص والخرافات في بلد واحد؛ ثم يرد على نفسه فيقول – لكن هناك فقط شعوب لها مقدرة على الاختراع أكثر من غيرها، وأخرى لها امتياز في الأدب. والخيال الهندي النشيط، تغذيه الحياة الخاملة، والجو الذي يساعد على الراحة والتأمل، وجماعات الحجاج والشحاذين الذين كانوا يقصون القصص العجيبة السارة، والاعتقاد

(1) The Wisdom of India P. 245.
(2) Ancient India and Indian Civilization P. 323--478.

الراسخ في الهند أن الحيوان ليس شيئا مختلفا عن الناس، وإن كان عاديًا في غيرها – كل هذه هيأت الأرض الصالحة لنمو الخرافات والقصص بكثرة. وجاء في كتاب «حكمة الهند»[1]. «الهند مهد القصص الحيوانية التي ترتبط دائما بإيسوب العبد الإغريقي. وقليل ممن يشيرون إلى قصص «إيسوب» يدركون أنه يمكن تتبع هذه القصص وإرجاعها إلى أصول بعيدة جدًا في الهند وذلك في شكلها الخاص ونظامها وموضوعها».

و في هذا الكتاب أيضا كلام منقول عن إيرنست رايس «Ernest Rhys» في مقدمة ترجمته لإيسوب؛ يقول:

علينا أن نسلم بأن قصص الحيوان لم تبدأ بإيسوب ولا في بلاد الإغريق أبدًا. وعلينا في الحقيقة أن نذهب إلى الشرق، وأن ننظر إلى الهند لنقف على مبلغ قدم هذه القصص.

وترجع دائرة المعارف اليهودية[2] كثيرًا من خرافات إيسوب، إلى «جاتاكا Jataka»، أو قصص ميلاد بوذا – التي سجلت كثيرًا من تجاربه المختلفة في حالات وجوده الأولى لما كان في أشكال الحيوان والطيور والشجر. وجاء بعد ذلك «ومثل هذه القصص يحتمل جدًا أن تكون المعين الطبيعي لحكايات إيسوب التي تظهر الحيوان بعواطف الناس وأفكارهم[3]».

ولكن دائرة معارف تشمبرز تروي – أنه كان لقصص الحيوان – مكانة مهمة في مصر القديمة التي كانت في درجة متقدمة من الحضارة؛ جاء فيها: «ومن المحتمل أنها ظهرت هنا لأول مرة، وأن ألف الناس لها كان ناشئًا

(1) The Wisdom of India (p. 245).
(2) The Jewish Ency. vol. 1p. 221.
(3) Chambers's Ency. Beast Fables. v. 1p . 821.

من الاحترام العميق الذي كان يكنه المصري القديم للغريزة الحيوانية التي لا تخطئ.. وقد مشى هذا الاحترام جنبًا إلى جنب مع عبادة المصري للحيوان، التي طبعت دينه بطابع واضح».. «ونحن نجد قصص السبع والفأر على ورقة بردي يرجع تاريخها إلى أيام رمسيس الثالث (١٢٠٠ - ١١٦٦ ق. م) لا كمحاولة أولية، بل في درجة نهائية تدل على أنها تجاوزت هذه المراحل الأولى[١]».

ويرى سير ريتشارد برتون (Sir Richard Burton) أن القصص الوعظية Apologues خرجت من بلاد النيل أو الأرض - السوداء Black Land إلى فينيقيا وجوديا وفريجيا وآسيا الصغرى ثم اجتازت البحر في سفينة إلى بلاد اليونان. وهنا وجدت طريقها إلى من عرف الناس بها وهو إيسوب Aesop، الذي يعتبر اسمه خرافة ترتبط بالأثيوبيين[١] وربما كان زمنه هو زمن المشروع صولون (٥٧٠ ق. م) ويشير إلى هجرة أخرى لهذه القصص إلى الشرق حتى وجدت مستقرًا في حوض الدجلة والفرات. وقد كان الاتصال بين مصر وبين كل تلك البلاد قائما، فتارة تغزو مصر هذه البلاد وتستولى عليها، وتارة تغزوها هذه البلاد وتحكمها. فقد غزاها الهكسوس وأقاموا بها من (١٦٧٥ - ١٥٨٠ ق. م) ثم طردتهم وغزت الشام، ووصلت سيطرة تحتمس الثالث (١٤٧٩ - ١٤٤٧ ق. م) إلى وادي الفرات، وأعلن الحيثيون والآشوريون والبابليون ولاءهم له. وهذا زمن متأخر جدا في تاريخ مصر القديمة. فمصر ذات الحضارة التي تسبق اليونان بآلاف السنين، قد سبقت إلى هذا النوع من الأدب ويكفي

(١) يظن أن اسمه مشتق من كلمة Ethiopia ومعناها الحبشة وأن هذا وصف لا اسم.

في الدلالة على ذلك ما قدمناه من دليل مادي، في درجة عالية من التقدم وهو قصة السبع والفأر، فضلا عن الاتصال المستمر بينها و بين البلاد التي تجاورها، ووصول حضارتها إلى بلاد اليونان، ومجيء اليونانيين إلى مصر للاستفادة منها في كثير من النواحي؛ ولقد قدم صولون، إلى مصر في أيام أحمس الثاني ويقال إنه اقتبس شيئًا من قوانينها. وقد كان إيسوب معاصرًا له. وكانت شهرة مصر عامة. فما الذي يمنع من انتقال مثل هذا الأدب المدون على الأقل: إن لم ينقل معه شيء من الأساطير والخرافات الشعبية إلى بلاد اليونان؟.

إذا كان أكثر العلماء قد تحدث عن الخرافات الهندية على أنها أصل للخرافات اليونانية وتركوا مصر، فالسبب في هذا واضح جدًا؛ إذ إن الذين أكثروا القول في هذا هم علماء أوروبا ولهم عذرهم، فقد عرفوا أدب الهند منذ الإسكندر، وعرفوه عن طريق تراجم كليلة ودمنة. وعرفوه عن طريق اتصالهم بالهند اتصالاً مباشرًا منذ القرون الوسطى؛ وشغلوا أنفسهم بدراسة الأدب الهندي واللغات الهندية، وعقدوا مقارنات بين الخرافات الهندية وبين قصص إيسوب ومن تبعه من أدباء الخرافات في اليونان والرومان، ولم يكن عندهم أي خبر عن حضارة مصر القديمة التي كانت تخفيها حنايا القبور وجدران المعابد. وربما أدت الكشوف والأبحاث في مخلفات القدماء المصريين إلى تأييد الأقوال التي سيقت بجانب البرهان المادي وهو قصة السبع والفأر المشار إليها سابقا.

وقد وجد أيضًا في الكتابات المسمارية القديمة قصص حيوانية[1]

(1) Chambers's Ency. vol. 1 P. 821.

وجد منها أربعة أمثلة في مكتبة آشور بانيبال[1] – أول قصة منها عن أعمال النسر والثعبان، والثانية عن الثعلب و الضبع، والثالثة عن محاورة بين حصان وثور، والرابعة تشتمل على عجل يتكلم – ولكن هذه متأخرة أيضًا عن قصة السبع والفأر بحوالي ستمائة عام[2].

***

(١) آشور بانيبال من ملوك آشور حوالي منتصف القرن السابع ق. م وقد غزا مصر واستولى عليها. ومن آثاره مكتبة عظيمة في المتحف البريطاني منها الآن حوالي ٢٢ ألف لوح وموضوعاتها دينية وعلمية وأدبية (ص ٦٣ كتاب التاريخ القديم – شفيق بك غربال وآخر).

(2) The Wisdom of India ٢٤٥ طبعة ١٩٤٨م.

الفصل الرابع

غاية القصة الحيوانية

قدمنا أن من القصص الحيوانية أساطير وخرافات أو قصص ذات مغزى. أما الأساطير فمنها ما يكون تفسيرًا لخلقة بعض الحيوان أو أخلاقه مثلا، أو تفسيرًا لبعض الظواهر الكونية وذلك كأسطورة الضب والضفدع عند العرب، وخوف الغراب، المنقول إليهم من اليهود، واشتراك القرود مع «راما» في حربه ضد ملك سرنديب وإلقائها الأحجار في المضيق الذي بين الهند وسرنديب؛ لتفسير نشأة الجزر في ذلك المكان. والموضوع الذي يهمنا الآن أكثر من غيره هو القصص ذات المغزى في شكليها الخرافة Fable والموعظة Apologue وإذا رجعنا إلى تعريفهما فيما تقدم وجدنا الغاية الخلقية التي يتضمنها المغزى جزءًا من التعريف.

وبعض الباحثين يحلو لهم أن يحيطوا نشأة هذه القصص بظروف خاصة، وأنها إنما تنشأ في عهود الظلم والاستبداد، عندما يكون التصريح بالحقيقة جالبا لغضب الملوك والرؤساء. وقد يستدلون على ذلك بأن من أشهر كتاب هذه الخرافات قوم من الأرقاء والعبيد والموالي، وينتقلون من مركز هؤلاء المؤلفين في المجتمع إلى نتيجة يرونها منطقية، وهي أن هؤلاء المؤلفين، بصفتهم هذه، لم يستطيعوا أن ينصحوا لسادتهم خوفًا من بطشهم، فآثروا الرمز لما فيه من بعد عن جفاف الحقيقة، وإثارة غضب الرؤساء.

يقولون أن «إيسوب» كان عبدًا، وكان، فيدر، الروماني عبدًا أيضًا وكان «لقمان» الحكيم عبدًا حبشيًا، وكان ابن المقفع مولى فارسيًا. وهؤلاء أشهر من نسبت إليهم الخرافات.

وتقول دائرة المعارف البريطانية[1] «أن منشأ الموعظة قديم جدًا في الشرق، فقد كانت الحقيقة المقنعة شيئًا ضروريًا هناك وخصوصا عند الأرقاء الذين لم يجرءوا على إظهار ما في نفوسهم بصراحة. ومن الملاحظ أن أول من تبنى الموعظة في الغرب اثنان من الأرقاء هما إيسوب وفيدر «Phédre»

ويرى «بيرتون»[2] أن بعض القصص ذات المعنى الرمزي تنشأ في عصور يكون الحاكم فيها طاغية غيورًا أو مستبدًا قويًا، يضع الصعوبات والأخطار في طريق الحديث بالحق الصريح. وننقل عنه قوله في أسباب اختراع حكاية الحيوان «والخطر في توجيه إهانة صريحة إلى حاكم أسيوي مستبد ربما كان من أسباب اختراع حكاية الحيوان التي يقصد فيها أن يكون الدرس الخلقي مستورًا في ثناياها».

وقد جاء في الوسيط[3] عن الأمثال الفرضية أنها تكثر «في الأيام التي يكثر فيها الجور والاستبداد والتضييق على الهداة والمرشدين، فيضطرون إليها للوصول إلى أغراضهم، مع الأمن على حياتهم؛ على ما فيها من ترويح الخاطر، ولطف المدخل وجمال الفكاهة المنطوية في تضاعيفها النصيحة وذلك أعمل في النفس وأدعى إلى الاتعاظ».

(1) Fable مادة Chambers's Ency.

(٢) ص ١٧.

(٣) جـ ١ ص ٢٢٣.

ويقول أحمد بك أمين فى ضحى الإسلام[1] «وتبينت الحاجة الشديدة إلى هذا النوع في عصور الاستبداد، يوم كان الملوك والحكام يضيقون على الناس أنفاسهم، فلا يستطيع ناقد أن ينقد أعمالهم ولا واعظ أن يومئ بالموعظة الحسنة إليهم ففشا هذا الضرب من القول والقصص، يقصدون فيه إلى نصح الحكام بالعدل، وكأنهم يقولون: إذا كانت الحيوانات تمقت الظلم وتحقق العدل فأولى بذلك الإنسان. وإذا كان الولاة والزعماء تأخذهم العزة بالإثم ويستعظمون أن يصرح لهم بنصح أو نقد، فلا أقل من وضع النصيحة على لسان البهائم. وإذا كان في التصريح تعريض الحياة للخطر، ففي التلميح نجاة من الضرر.

وفي دائرة معارف «تشمبرز»[2] قصة اقتبسها مستر «كلاوستون Clouston» من مؤرخ شرقي في عهد حاكم ظالم أصلحته مثل هذه الوسيلة والقصة هي: «يحكى أن وزيرًا عاقلًا لبقًا قص على مولاه – قال – إن بومة كانت في البصرة وأخرى في الموصل، ورغبت الأولى منهما أن تزوج ابنها من بنت الثانية فأجابتها بومة الموصل بالموافقة، وشرطت أن يكون المهر مائة قرية خراب فأجابتها بومة البصرة: لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن. فإذا أبقى الله السلطان عاما آخر قدمت لك هذا المهر».

فلما سمع السلطان هذه القصة تأثر بها أشد التأثر، وأمر في الحال أن تعمر كل القرى والمدن الخراب، ودرس حالة بلاده ليرفع مستوى الحياة عند الشعب، وليجعل حكمه سهلًا مرضيًا.

(١) جـ ١ ص ٢٢٣.
(٢) مادة Fable.

ونرى من كل ما تقدم من الأقوال أن هؤلاء ينسبون نشأة القصص الحيوانية ذات المغزى، أو شيوعها، إلى ظلم الطغاة وإخفاء الحقيقة عنهم في صورة الرمز و تقديم النصيحة إليهم مقنعة، وأن أهم من تنسب إليهم الخرافات كانوا من العبيد. فهم أولى الناس بالخوف من سادتهم وليس لهم من يحميهم، لهذا آثروا هذا الشكل من الموعظة.

والحق أن رق هؤلاء المؤلفين محض صدفة، وأن أولئك الطغاة الذين يراد إخفاء الحقيقة عنهم إما أن يكونوا من الأذكياء - وجدير بهم أن يكونوا كذلك - فلا تخفى عليهم أغراض المؤلفين. وإما أن يكونوا على درجة من السذاجة والغفلة والغباوة تمنعهم من فهم ما يريده أولئك المؤلفون، وحينئذ لا تتحقق الفائدة التي يريدها الحكماء، رمزًا أو تصريحًا.

ثم إن هناك من القصص الحيوانية ما لا صلة له بالملوك ولا بسياسة الحكم ولا بنقد ذوي السلطان. وهذه لا تحتاج إلى عصور ظلم تنشأ فيها.

ولكن يظهر أيضا من تاريخ هذه القصص ومن مؤلفيها ومن أنواعها عامة أنها توضع إما للتسلية، وذلك في بعض القصص والأساطير التي لا مغزى لها، وإما أن تكون شكلًا جميلًا من أشكال الأدب يراد به التنويع في تقديم الدروس الأخلاقية، ويقصد به البعد عن جفاف الموعظة الصريحة، وتقديمها فى ثوب لطيف ترتاح إليه النفس، وتتقبله بقبول حسن.

وقد قال «أوبرتان» في ذلك: «ومن يدعي أن الخرافة قد أنشأها مؤلفون من العبيد يكرهون سادتهم، أو من المحكومين الخاضعين الذين يرغبون في وعظ الطغاة بما يثقل على نفوسهم؛ إنما يضيق ميدانها الفسيح، ويحصر عمل الخيال الإنساني في دائرة ضيقة» وهذا أيضًا يتعارض مع نشأتها وتنوعها.

ولو صح ماجاء في مقدمة كليلة ودمنة منسوبًا إلى دبشليم ملك الهند لكان حجة على من يقولون إن الرمز يراد به نصح المستبدين خوفًا من بطشهم. فقد جاء في هذه المقدمة[1] أن دبشليم قال لبيديا: «وقد أحببت أن تضع لي كتابًا بليغًا تستفرغ فيه عقلك، يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته[2].

ثم قال له عن الكتاب «وليكن مشتملا على الجد والهزل، واللهو والحكمة والفلسفة».

وقال ابن المقفع في باب عرض الكتاب كلامًا في اختيار هذا النوع من التأليف ختمه بقوله[3]:

«ينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض: أحدها ما قصد إلى وضعه على ألسنة البهائم غير الناطقة؛ ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان فتستمال به قلوبهم، لأنه الغرض بالنوادر من حيل الحيوان. والثاني إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان، ليكون أُنسا لقلوب الملوك، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة في تلك الصورة. والثالث أن يكون على هذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقة، فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل، فيخلق على مرور الأيام، ولينتفع بذلك المصور والناسخ أبدًا، والغرض الرابع وهو الأقصى وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة».

(١) طبعة سنة ١٩٣١م – ص ٣٦ كليلة ودمنة.
(٢) طبعة سنة ١٩٣١م – ص ٣٧ كليلة ودمنة.
(٣) ص٧٣.

وهذه النصوص من «أوبرتان» ومن ابن المقفع صريحة في أن قصص الحيوان الخلقية لم تنشأ في عهود الظلم والاستبداد فقط، وأنها لا ترتبط بالعبيد إلا بمحض الصدفة، وأن دبشليم - الطاغية المستبد أولا - هو الذي طلب من بديا قصصًا، يكون ظاهرها سياسة العامة وتأديبها إلخ. وأن ابن المقفع حينما أشار إلى الغرض من الكتاب: لخصه في أربعة أشياء:

الأول: يتعلق باستمالة قلوب أهل الهزل من الشبان.

الثاني: تسلية الملوك لكونه على هذه الصورة.

الثالث: يتعلق بالكتاب نفسه، وهو التوصل بهذه الوسيلة إلى ذيوعه وخلوده.

الرابع: الذي يستدل به بعض القائلين بذلك الرأي، ليس صريحا في الدلالة على رأيهم؛ فهو غامض، وقد فهموا منه أن الفيلسوف يفعل ذلك لينجو من الشر بهذه الطريقة الرمزية. وقد أشرت إلى ضعف هذا الرأي. إذا أخذ على عمومه[1].

لكن هناك بعض الحق في هذا الرأي، فأن القصص الرمزية قد تكون احتيالًا على قانون العقوبات مثلا «وقد تكون وسيلة لطيفة لاستمالة قلوب الملوك؛ أو لعلها بما فيها من سخرية وتهكم، وبما فيها من معنى المقارنة بين الإنسان والحيوان، قد تخيف أولئك الملوك من هذه السخرية، وتحملهم على الترفع عن الظالم كي لا يكونوا أقل من الحيوان.

وننتقل إلى الكلام عن قصص الحيوان عند العرب مبتدئين بخلاصة لبيان صلتهم به وعقائدهم فيه.

***

(١) أشار إلى مرماه ضحى الإسلام ج ١ ص ٢١٩ مع شيء من الشك والحذر.

الفصل الخامس
صلة العرب بالحيوان وعقيدتهم فيه

رأينا فيما تقدم أن بعض الناس عبدوا الحيوان لذاته، أو لأن روح الإله حلت فيه، أو لأنه أبوهم الذي ولدهم. ورأيناهم أيضا يعتقدون أن الأرواح تنتقل بين الناس والحيوان، وأن هذه الأرواح قد تكون في شكل حيوان أيضا.

وإذا أردنا أن نطبق هذه العقائد السابقة على العرب في جزيرتهم لم نجد هناك دليلًا على عبادتهم للحيوان، ولا أنهم آمنوا بالتناسخ أو قالوا بالطوطمية. وأظهر ما جاءنا عن معتقداتهم أنهم قدسوا الحيوان في ظروف معينة، وأكبروه لبعض الصفات، وظهرت آثار هذا الإكبار والتقديس في تحريمه في هذه الظروف وفي تقديمه قربانًا لبعض الآلهة، أنهم حرموا ركوب الناقة وحلبها إذا نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر وشقوا أذنها، وسموها البحيرة، وكان الرجل منهم يقول - إن شفيت فناقتي سائبة، ويجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها، وإذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم، وإن ولدتهما معا قالوا وصلت أخاها فلا يذبح، وتلك هي الوصيلة.

وإذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن حرموا ظهره، ولم يمنعوه من ماء ولا مرعى، وقالوا قد حمى ظهره، وسموه الحامي[1].

(١) تفسير البيضاوي . سورة المائدة آية ١٠٣.

فقال تعالى يبطل هذه الأعمال وينفي نسبتها إليه.

﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقد جاء في كتب التفسير الأخرى شروحٍ متعددة لهذه الكلمات، ولكنها لا تخرج في غايتها عن أن تكون تحريماً لبعض الحيوان لصفات خاصة فيه وفي ظروف معينة. وروى الآلوسي صاحب بلوغ الأرب بعض هذه الشروح وقال[1] «وقد نسبت هذه المذاهب إلى رجل من العرب يسمى عمرو بن لحي الخزاعي، وأنه حمل العرب على التدين بها في جملة ما أحدث من المنكرات التي لم يكونوا يعلمونها من شريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وقد أبطلت الشريعة الإسلامية هذه المذاهب».

ونسبة هذا كله إلى رجل واحد في تلك البلاد المتباعدة الأطراف الصعبة الطرق، نسبة مشكوك فيها، وربما كان ابن لحي هذا صاحب عمل من هذه الأعمال، ثم نشأ غيره يشبهه بعد زمن، أو في مكان غير المكان، ثم نسبت كلها إليه.

وعدم اتفاق المفسرين على مدلول هذه الكلمات يدل على أنها ظهرت بأشكال مختلفة، في أماكن مختلفة، أو أزمنة مختلفة، والقرآن قد حرم مدلول الكلمات بأي شكل من أشكاله، وجاء المفسرون فاستقوا معاني هذه الكلمات من مصادر مختلفة فتعددت الشروح من أجل ذلك.

وقد ورد في سورة الأنعام أنهم كانوا يجعلون لله نصيبًا، ولآلهتهم نصيبًا فينفقون الأول على الأضياف والمساكين والثاني ينفقونه ويذبحونه عند آلهتهم. وقد يكون ما عينوه لله خيرًا وأزكى، فيجعلونه لشركائهم

(١) جـ ٣ ص ٣٦ بلوغ الأرب.

ولا يفعلون العكس. فقال تعالى ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٦ - ١٤٠].

ونبه في سورة النحل على أن هذا وغيره من التحليل والتحريم كان من عندهم، وأنه كذب، فقال تعالى﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦][1].

وهناك أشياء أخرى حرموها لم ترد في القرآن صريحة. ومن ذلك الفُرَع وهو أول نتاج الإبل والغنم: كان أهل الجاهلية يذبحونه لأصنامهم ثم يأكلونه ويلقى جلده على الشجر. ومنها العتيرة[2]: وهي ذبيحة كانوا يذبحونها في الجاهلية في رجب، يتقربون بها لأصنامهم، وهي الرجبية،

(١) تفسير الآية في سورة النحل.

(٢) الفرع والعتيرة من بلوغ الأرب ج ٣ ص ٤٠، وما بعدها من نهاية الأرب جـ ٣ ص ١٢٠.

ويصب دمها على رأس الصنم. ومنها ذبح الظبي: وكان الرجل ينذر إذا بلغت إبله أو غنمه مبلغًا ذبح عنها. فإذا بلغت ما أراد ضن بها، واصطاد ظبيًا فذبحه وفاء للنذر. ومنها حبس البلايا: كانوا إذا مات الرجل يشدون ناقته إلى قبره، ويعكسون رأسها بولية وهي البرذعة، فإن أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى.

ويزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك ليركبها صاحبها في الميعاد ليحشر عليها. وقال عويمر النبهاني لابنه:

أُبْنَيَّ لا تَنْسَ البلية إنها لأبيك يوم نُشُورِه مَرْكوب

وليس في هذا كله، ما يدل على عبادة الحيوان، ولا على أنه أصل لقبيلة من القبائل أو أن روح الألهة حلت فيه.

وقد جاء في القرآن تحريم لبعض الحيوان حيًا أو ميتًا . فقد حرم صيد البر على الحرُم ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾[1] وحرم الأصناف المذكورة فيما يأتي ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ﴾[2] [المائدة: ٣].

وظاهر أن تحريم هذه الأشياء كان لذاتها، أو لفساد لحمها، أو لما في الظروف الملابسة لذبحها من معنى الإشراك. وليس في هذا شيء من تناسخ أو حلول أو طوطمية.

ولكن هناك ما يشبه التناسخ.

(١) آية ٩٦ سورة المائدة.
(٢) آية ٣ سورة المائدة .

فقد روى عن الجاحظ[1] «أن الضب حرمه قوم ورأوا أن أمتين مسختا، إحداهما في البر وهي الضباب، والأخرى في البحر وهي الجرِّيُّ[2]».

ورووا عن بعض الفقهاء أنه «رأى رجلًا أكل لحم ضب فقال: اعلم أنك قد أكلت شيخًا من مشيخة بني إسرائيل» وقال بعض من يعافه: الذي «يدل على أنه مسخ شبه كفه بكف الإنسان».

ثم يقول الجاحظ: ولم أر أهل الكتاب يقرون أن الله تعالى مسخ إنسانًا خنزيرًا ولا قردًا، إلا أنهم أجمعوا على أن الله تعالى قد مسخ امرأة لوط حجرًا حين التفتت وراءها. وتقول الأعراب إن الله قد مسخ كل صاحب مكس وجابى خراج وإتاوة، إذا كانا ظالمين. وأنه مسخ ماكسين أحدهما ذئبًا والآخر ضبعًا. وأنشد محمد بن السكن المعلم النحوي للحكم بن عمرو البهراني في ذلك وفي غيره شعرًا عجيبًا وقد ذكر فيه ضروبًا كلها ظريف وكلها باطل، والأعراب تؤمن بها أجمع، وكان الحكم هذا أتى بني العنبر بالبادية، على أن العنبر من بهراء، فنفوه من البادية إلى الحاضرة، وكان يتفقه ويفتى فتيًا الأعراب.. ثم أورد له الشعر العجيب المشار إليه وأوله:

إن ربي لما يشاء قدير ما لشيء أراده من مفر
مسخ الماكسين ضبعًا وذئبًا فلهذا تناجلا أم عمرو

ويقول[3]: «فإن ملوك العرب كانت تأخذ من التجار في البر والبحر، وفي أسواقهم المكس، وهي ضريبة كانت تؤخذ منهم، وكانوا يضمنوهم في ذلك.

(١) الحيوان جـ ٦٠ ص ٢٤ طبع الساسي.
(٢) نوع من السمك.
(٣) جـ٦ ض ٤٤.

ثم يعلق على ذلك بقوله «والأعراب تزعم أن الله تعالى لم يدع ماكسا إلا أنزل به بلية، وإنه مسخ منهم اثنين ضبعًا وذئبًا فلهذه القرابة تسافدا وتناجلا، وإن اختلفا في سوى ذلك، ومن ولدهما السمع والعسبار، وإنما اختلفا لأن الأم ربما كانت ضبعًا والأب ذئبًا، وربما كانت الأم ذئبة والأب ذيخا، والذيخ ذكر الضباع».

ومما أورده الحكم البهراني قوله:

مسخ الضب في الجدالة[1] قدمًا وسهيلَ السماءِ عمدا بصقر

فإنهم يزعمون أن الضب وسهيلا كانا ماكسين عشارين، فمسخ الله أحدهما في الأرض والآخر في السماء. ومنهم من يزعم أن سهيلا والزهرة والضب والذئب والضبع[2] كلها مسوخ.

وظاهر أن قول «بعض الفقهاء» السابق تهكم ممن أكل لحم الضب. وظاهر أيضًا أنه تهكم بفكرة شائعة عن الضب وهي أنه مسخ إنسان. وقوله للرجل: «اعلم أنك أكلت شيخا من مشيخة بني إسرائيل» فيه إشارة إلى أن الفكرة يهودية.

وقول الجاحظ: «ولم أر أهل الكتاب يقرون أن الله تعالى مسخ إنسانًا خنزيرًا ولا قردًا، دليل على أن فكرة المسخ هذه منقولة إلى العرب[3].

(١) الأرض.

(٢) بلوغ الأرب جـ ٢ ص ٣٦١ - الحيوان جـ١ ص ٦١.

(٣) انظر قول الله تعالى، ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ من آية ٦٠ سورة المائدة، وتعليق المفسرين يشير إلى أنه كان هناك مسخ لليهود من أصحاب السبت أو غيرهم.

أما مسخ الماكسين ضبعًا وذئبًا، فليس عقيدة، ولكنه نوع من التشهير بجباة الضرائب، لما يراه الناس فيهم من ظلم أحيانًا، ومن أن عملهم ثقيل على أصحاب الأموال أيضًا. وكذلك القول في نجوم السماء[1].

فليست هذه عقيدة عند العرب ولا مذهبًا من مذاهبهم كما تراها عند الهنود: فإنها فكرة عامة شائعة في البوذية تجرى على جميع الخاطئين، لا على جباة الضرائب فقط.

تشكل الجن بأشكال الحيوان:

ويروي الأعراب قصصًا عن تشكل الجن بأشكال الحيوان، واتخاذ الجن من الحيوان مطايا. ولهم في صلتهم بالجن أخبار كثيرة، نروي منها قصة لها علاقة بموضوعنا من الناحية الأدبية وناحية الغاية التي نقصد إليها تلك هي قصة عبيد بن الأبرص مع الثعبان:

فقد جاء في مقدمة جمهرة أشعار العرب عن عبيد[2] «أنه خرج يوما في ركب، فبينما هم يسيرون إذا بشجاع احترق جنباه من الرمضاء، فقال له بعض أصحابه: دونك الشجاع يا عبيد فاقتله! قال عبيد - هو إلى غير القتل أحوج. فأخذ إداوة من ماء فصبها عليه، فانسلب الشجاع ودخل في جحره. وسار القوم فقضوا حوائجهم. ثم أقبلوا حتى صاروا إلى ذلك الموضع الذي فيه الشجاع. قال فتأخر عبيد لقضاء حوائجه، فانفلت بكره فسار القوم و بقي عبيد متحيرًا، فإذا بهاتف من عدوة الوادي يقول:

(١) انظر الحيوان جـ ٤ ص ٦٩، تحقيق عبد السلام هارون.
(٢) ص ٢٧.

يا صاحب البكر المضل مركبه ... دونك هذا البكر منا فاركبه
ما دونه من ذي الرشاد تصحبه ... وبكرك الآخر أيضا تجنبه
حتى إذا الصبح تجلى غيهبه ... فحط عند رحله وسيبه
إذا بدا الصبح ولاح كوكبه ... وقد حمدت عند ذلك مصحبه

قال فالتفت عبيد فإذا هو ببكره وبكر إلى جنبه، فركبه، حتى إذا صار إلى دار قومه أرسل البكر، وأنشأ يقول:

يا صاحب البكر قد أنقذت من بلد ... يحار في حافتيها المدلج الساري
هلا أبنت لنا بالحق نعرفه ... من ذا الذي جاد بالمعروف في الوادي
ارجع حميدًا فقد أبلغت مأمننا ... بوركت من ذي سنام رائح غادي

فأجاب هاتف يقول:

أنا الشجاع الذي ألفيته رمضا ... في رملة ذات دكداك وأعقاد[1]
فجدت بالماء لما ضن حامله ... جودا علي ولم تبخل بانجادي
هذا جزاؤك مني لا أمن به ... فارجع حميدا رعاك الله من غادي
الخير أبقى وإن طال الزمان به ... والشر أخبث ما أوعيت من زاد

والقصة أسطورة لا شك في هذا. وفي آخرها تختلط الأسطورة بالموعظة، والرجز فيها مضطرب سقيم، خارج على ما نألفه من قواعد اللغة خروجًا واضحًا. من أجل هذا شك أبو الفرج الأصفهاني[2] فيها وقال «وهو خبر مصنوع يتبين التوليد فيه».

(١) دكداك: رمل غليظ فيه تلبد، أعقاد جمع عقد وهو ما تعقد وتراكم من الرمل.
(٢) أغاني جـ ١٩ ص ٨٩ طبعة الساسي، ترجمة عبيد.

ومن الطبيعي أننا لا نصدق وقوع مثل هذه الحوادث على ما تروى به وتلك الأخبار أدخل في باب الوهم منها في باب الحقائق. وإن كنا لا ننكر وجود الجن وظهورهم لبعض الناس.

والجاحظ[1] كعادته ينكر مثل هذا ويقول عن الأعراب: «مما زادهم في هذا الباب وأغراهم به، ومد لهم فيه، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابيًا مثلهم، وإلا غبيًا لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التكذيب أو التصديق أو الشك، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الأجناس قط؛ وإما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر، فالرواة عندهم كلما كان الأعرابي أكذب فى شعره كان أظرف عندهم، وصارت روايته أغلب، ومضاحيك حديثه أكثر. لذلك صار بعضهم يدعي رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزويجها».

وبعد أن تحدث عن مراكب الجن من الحشرات والوحش، وإيثارها لبعض، ونفورها من بعض، قال[2] حدثني أبو نواس قال بكرت إلى المزيد ومعي الوالي أطلب أعرابيًا فصيحًا، فإذا في ظل دار جعفر أعرابي لم أسمع بشيطان أقبح منه وجهًا، ولا بإنسان أحسن منه عقلًا، وذلك في يوم لم أر كبرده بردًا، فقلت له: هلا قعدت في الشمس، فقال الخلوة أحب إلي فقلت له مازحًا: أرأيت القنفذ إذا امتطاه الجني وعلا به في الهواء، هل القنفذ يحمل الجني أم الجني يحمل القنفذ؟ قال هذا من تكاذيب الأعراب.

إن ما جاء من هذه القصص على ألسنة الرواة والشعراء يمثل الفكرة العامة التي كانت شائعة بين الناس عن قدرة الجن على التشكل بأشكال

(١) الحيوان جـ ٦ ص ٧٨ طبعة الساسي.
(٢) الحيوان ٦٠ ص ٧٤.

الحيوان واستخدامها لهذا الحيوان، ولقائها للناس، وخدمتها لهم جزاء معروفهم، أو أصابتهم بالشر إذا أساء الناس.

ومن عقائدهم أيضا أن القتيل إذا قتل خرجت من رأسه هامة تقول: اسقوني فإني صدية. وتظل كذلك حتى يؤخذ بثأره[١]. وقال بعضهم[٢] إنها النفس، وإنها طائر ينبسط في الجسم. فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشًا يصدح على قبره، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرًا ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبدا مستوحش، ويوجد في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور. وإنها لم تزل عند ولد الميت ومخلفه، لتعلم ما يكون بعده فتخبره.

وقيل الهامة أنثى الصدى وهو ذكر البوم. ولهم في الهامة والصدى أشعار منها قول ذي الإصبع:

ياعمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني[٣]

وقول توبة بن الحمير صاحب ليلى الإخيلية:

ولو أن ليلى الإخيلية سلمت عليَّ ودوني جندل وصفائح[٤]

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائح

وقول المجنون:

ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتنا ومن دون رمسينا من الأرض سبسب

لظل صدى رمسي وإن كنت رمة لصوت صدى ليلى يهش ويطرب[٥]

(١) بلوغ الأرب جـ ٢ ص ٣١١.
(٢) نقلا عن مروج الذهب للمسعودي.
(٣) الأمالي جـ ١ ص ٢٥٦.
(٤) الأمالي جـ ١ ص ٨٧.
(٥) بلوغ الأرب جـ ٢ ص ٣١٢.

ومفهوم من أسطورة الهامة أنها نشأت لتفسير تمسكهم بالثأر، وأخذهم به حتى ترضى هذه الهامات عن أهل الميت، وحتى يستريح هو في قبره. وهي تشبه في تفسير المسعودي لها ما يشيع عند كثير من الأمم من عقائد عن النفس الإنسانية وأنها طائر أو حشرة. وإذا كانت هذه الفكرة قد أدت عند بعض الأمم إلى انتقال الأرواح من أجسام إلى أجسام، فإنها لم تتجاوز المطالبة بالثأر عند العرب.

وهذه أسطورة تفسر خلقة بعض الحيوان.

قد جاء في شبه السنور بالأسد [1] أن أهل سفينة نوح لما تأذوا بالفأر وشكوا، سأل ربه الفرج فأمره أن يأمر الأسد فيعطس، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى، خرج الذكر من المنخر الأيمن والأنثى من المنخر الأيسر فكفاهم مؤونة الجرذان.

وقالوا أيضًا إن الخنزير يشبه الفيل لمثل هذا السبب[2]:

وأسطورة السنور تفسر سبب العداوة بينه وبين الجرذ أيضًا.

والجاحظ ينكر هذا ويسخر منه كما هي عادته في مثل هذه الأساطير، ولكنا نقرر ما كان عند القوم من أساطير عن الحيوان تتعلق بخلقته أوبأخلاقه وإن أبى العقل الآن هذه الأساطير.

ومن أساطير العداوة بين الناس والهوام ما جاء عن الوزغ وكراهة الناس له.

«قالوا إن أباها لما صنع في نار إبراهيم وبيت المقدس ماصنع أصمه الله وأبرصه فقيل «سام أبرص». وفي سنن ابن ماجه عن عائشة g أنه كان في

(١) حيوان جـ ١ ص ١٤٦ تحقيق عبد السلام هارون.

(٢)حيوان جـ ٥ ص ١٠٦ طبعة الساسي.

بيتها رمح موضوع فقيل لها ما تصنعين بهذا. فقالت أقتل به الوزغ فإن النبي ﷺ أخبرنا أن إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار لم يكن في الأرض دابة إلا أطفأت عنه غير الوزغ فإنه كان ينفخ عليه النار. فأمر ﷺ بقتله. وكذلك رواه الإمام أحمد في مسنده. وكذلك رووا أنه كلما أحرق بيت المقدس كانت الأوزاغ تنفخه [1].

ومن آثار اتصال العرب بالحيوان أن ربطوا بين أحداث المستقبل والغائب، وبين ظهور الحيوان أو تعرضه لهم بشكل خاص.

ومن ذلك الزجر[2]، وهو الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام الغيب. وقد ذكر النويري في نهاية الأرب[3] كثيرًا مما تدل عليه هذه الحركات والأصوات والأحوال التي تبدو من الحيوان أو الطير وما يتوقع بعدها من الحوادث كقوله:

«فإن خرجت تريد أرضا بعيدة فرأيت غرابا ينتفض فامض لحاجتك فإنك تدرك أملك «إن شاء الله تعالى».

***

(١) حيوان جـ ٤ ص ٦٨ أصل وذيل.
(٢) بلوغ الأرب جـ ٣ ص ٣٠٧.
(٣) نهاية الأرب جـ ٣ ص ١٣٥.

وقد رُوِيَ فى ذلك أخبار كثيرة منها ما رواه الألوسي في بلوغ الأرب[1] إذ نقل عن المدائني أن أعرابيا أضل ذودا له وخادما فخرج في طلبهما حتى إذا اشتدت عليه الشمس وحمى النهار مر برجل يحلب ناقة، قال: أظنه من بني أسد فسأله عن ضالته، قال: أُدْنُ فاشرب من اللبن وأدلك على ضالتك. قال فشرب ثم قال: ما سمعت حين خرجت؟ قال بكاء الصبيان ونباح الكلاب وصراخ الديكة وثغاء الشاء. قال: ينهاك عن الغدو ثم مه؟ قال ثم ارتفع النهار فعرض لي ذئب، قال: كسوب ذو ظفر. ثم مه؟ قال ثم عرضت لي نعامة. قال: ذات ريش واسمها حسن؛ هل تركت في أهلك مريضًا يعاد. قال: نعم، قال: ارجع إلى أهلك: فذودك وخادمك عندهم فرجع فوجدهم.

واستمرت هذه العقيدة عندهم إلى ما بعد الإسلام وقد روى[2] أن كثيرًا تعشَّق امرأة من خزاعة فشبب بها فكرهت أن يفضحها كما فضح عزة فطلبت أن يبتغي لنفسه مالا ويطلبها. فطلب منها أن تحلف له ألا تتزوج حتى يعود ففعلت، فمدح عبد الرحمن بن الأزدي وخرج إليه فلقى ظباء[3] سوانح، ولقى غرابًا يفحص التراب بوجهه، فتطير من ذلك، حتى قدم على حي من لهب فقال: أيكم يزجر؟ قالوا كلنا، فمن تريد؟ قال أعلمكم بذلك. قالوا: ذلك المنحنى الصلب. فأتاه فقص عليه القصة فكره ذلك له، وقال: قد ماتت أو تزوجت رجلًا من بني عمها. فقال كثير:

(١) جـ٣ ص ٣٠٩.

(٢) نهاية الأرب جـ ٣ ص ١٤٠ و بلوغ الأرب جـ ٣ ص ٣١١.

(٣) ليس هناك اتفاق على معنى السانح والبارح. ومن هذه المعاني: السانح ما مر من اليمين إلى اليسار والبارح عكسه.

تيممت لهبًا أبتغي العلم عندهم وقد رد علم العائفين إلى لهب
تيممت شيخًا منهم ذا بجالة بصيرًا بزجر الطير منحني الصلب
فقلت له : ماذا ترى في سوانح وصوت غراب يفحص الأرض بالترب
فقال : جرى الطير السنيح ببينها ونادى غراب بالفراق وبالسلب
فإن لا تكن ماتت فقد حال دونها سؤال خليل باطن من بني كعب

تم مدح الرجل الأزدي فأصاب منه خيرًا، ثم قدم عليها فوجدها قد تزوجت رجلا من بني عمها.

والإسلام قد جاء بإبطال مثل هذه الخرافات التي لا تعتمد على أساس من العقل أو الدين. وكان هذا جزءا من محاربته للعقائد التي لا تبنى على أساس، فليس هناك ارتباط عقلي بين ذكر كلمة أو مرور طائر أو ظهور حيوان، وبين الحوادث التي تجرى بقدر وتدبير إلهي.

وقد روى لنا عن شعراء الجاهلية والإسلام شعر ينكر هذا الزجر وما يلحق به من الفأل والطيرة:

ولقد غدت وكنت لا أغدو على واق وحاتم[1]
فإذا الأشائم كالأيا من والأيامن كالأشائم

وقال لبيد:

لعمرك ماتدري الطوارق بالحصى ولا زاجرت الطير ما الله صانع

وقد أنكر تأثيره ضابئ بن الحارث فقال:

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى نجاحا، ولا عن ريثن يخيب

(١) الواقي الصرد، وهو طائر ضخم يصطاد العصافير، والحاتم الغراب الأسود.

ولم يعبأ الكميت بالزجر ولا حفل به في بائيته فقال:

ولم يلهني دار ولا رسم منزل ولم يتطربني بنان مخضب
ولا السانحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أعضب

ولم تؤد هذه الأوهام عند العرب إلى قصص طويلة متعلقة بها. وما رأيناه منها أبيات من الشعر مفرقة تشير إليها إشارات عابرة، أو تفسير للكلمة باختصار في كتب الأدب أو قواميس اللغة.

ويبدو لي أن علة ذلك كامنة في انصراف الخيال العربي عن الجري وراء الأوهام، وحبك القصص التي توضع تفسيرًا لها، مع قلة هذه الأوهام قلة واضحة.

تلك عقائد العرب فى الحيوان وصلتهم الروحية به، وهي ضعيفة لاتصل في تقديسه إلى ما وصلت إليه الأمم الأخرى، ولم يتعمق خيالهم في احترام الحيوان وإكباره. لهذا كانت آثارهم الأدبية متجهة إلى ما أوحت به الصلة المادية بينهم وبينه. وكان منها شعر الوصف، وبا به عندهم واسع، وإنتاجهم فيه كثير، ولكنه بعيد عن أن يكون قصصًا حيوانيًا بمعناه الذي تقدم.

لكن أدبهم لم يخل من قصص حيوانية كالأساطير والخرافات والمواعظ، أما قصص المعجزات فلها فصل، وأما الأساطير والخرافات فهذا بيانها:

قصص من أساطير الحيوان عند العرب:

الأسطورة كما عرفناها : قصة تفسر علاقة الناس بالآلهة أو تفسر ظاهرة من الظواهر الطبيعية والاجتماعية.

ولا يهمنا النوع الأول، أما النوع الثاني الذي يتصل بالتاريخ الطبيعي والسياسة الاجتماعية والخلقية فمنه قصص تفسر خلقة الحيوان أو تفسر أخلاقه، وبعض ذلك أصلي عند العرب لا أعرف له مصدرًا أجنبيًا، وبعضه منقول عن غيرهم.

أ - القصص التي من أصل عربي:

وتكاد هذه القصص تكون متصلة كلها بأمثال، ومن ذلك:

(١) قصة ذنب الضب:

وهي متصلة بالمثل «أرشح من ضفدع»[١]

جاء في مجمع الأمثال للـميداني[٢] عند الكلام على هذا المثل: قال حمزة في تفسيره: حديث من أحاديث الأعراب زعمت الأعراب في خرافاتها أن الضفدع كان ذا ذنب فسلبه الضب ذنبه، قالوا وكان سبب ذلك أن الضب خاصم الضفدع فى الظمأ. أيهما أصبر، وكان الضب ممسوح الذنب فخرجا في الكلاك، فناداه الضفدع:

ياضب وردًا وردا

فقال الضب:

أصبح قلبي صردًا لا يشتهي أن يردا إلا عرادًا عردا

(١) في الحيوان جـ ٥ ص ١٥٣ «أرشح» بالشين المعجمة، وكذلك في بلوغ الأرب جـ٣ ص ٢٢١. والرسح بفتح السين قلة لحم الفخذين. والرشح بسكون الشين العرق، وهما من صفات الضفدع. وقد وردت هذه القصة في شرح شواهد الكشاف ص ٤٢ مع اختلاف قليل، وشرح للكلمات الصعبة.

(٢) جـ ١ ص ٣١٣.

وصليانا بردًا وعنكثا ملتبدا[1]

فلما كان في اليوم الثاني ناداه:

ياضب وردًا وردًا

فقال الضب «أصبح قلبي صردا، إلخ».

فلما كان في اليوم الثالث نادى الضفدع:

ياضب وردًا وردًا.

فلما لم يجبه بادر إلى الماء، فتبعه الضب فأخذ ذنبه.

وهذه القصة تفسير لتلاشي ذنب الضفدع، بعد أن كان له ذنب طويل في طوره الأول وهو «أبو ذنيبة»، أما الضب فمشهور بطول ذيله وتعقده، ومشهور باحتماله الحر والظمأ. وقد أشارت هذه القصة إلى سبب طول ذيله وقدرته على احتمال العطش فقط.

(٢) قصة أذن النعامة[2]**:**

تزعم الأعراب أن النعامة ذهبت تطلب قرنين فرجعت مقطوعة الأذنين فلذلك يسمون ذكر النعام - الظليم - ويصفونه بذلك. وقد ذكر أبو العيال[3] الهذلي ذلك فقال:

وإخـال أن أخاكم وعتابه إذ جاءكم بتعطف وسكون

يمسي إذا يمسي ببطن جائع صفر ووجه ساهم مدهون[4]

(١) صردا بكسر الراء، قويا على البرد - العراد، الغليظ الغاسى من النبات العرد بكسر الراء «الصلب العنكث والصليان» نوعان من النبات، البرد «البارد الملتبد» المجتمع بعضه فوق بعض.

(٢) جـ ١ ص ٢٢٣ الحيوان للجاحظ.

(٣) أبو العيال شاعر مخضرم عاش حتى خلافة معاوية.

(٤) ساهم ضامر مهزول - مدهون دهن وجهه ليرى الناس أنه مخصب وليخدعهم عن سهومه وتغيره.

فغدا يمث ولا يرى في بطنه مثقال حبة خردل موزون [١]
أو كالنعامة إذ غدت من بيتها ليصاغ قرناها بغير أذيـن[٢]
فاجتثت الأذنان منها فانثنت صلماء ليست من ذوات قرون[٣]

وقد روى الميداني أيضا قصتها عندما أورد المثل «كطالب القرن جدعت أذنه»[٤] يقول: «العرب تقول ذهب النعام يطلب قرنًا فجدعت أذنه». ولذلك يقال له مصلم الأذنين، وفيه يقول الشاعر.

مثل النعامة كانت ـ وهي سائمة أذنـاء حتى زهـاها الحـين والجبن[٥]
جـاءت لتشرى قرنا أو تعوضه والـدهـر فيه ربـاح البيع والغبن
فقيل أذناك ظلم، ثمت اصطلمت إلى الـصـماخ فـلا قـرن ولا أذن.

ويقال: طالب القرن الحمار، قال الشاعر:

كمثل حمار كان للقرن طالبًا فآب بلا أذن وليس له قرن

يضرب في طلب الأمر يؤدي صاحبه إلى تلف النفس.

وقد وردت هذه القصة في شعر لبشار أيضًا. روى الأصفهاني[٦] قال: قال بشار: دعاني عقبة بن سلم، ودعا بحماد عجرد وأعشى باهلة، فلما اجتمعنا عنده قال لنا: إنه خطر لي البارحة مثل يتمثله الناس «ذهب الحمار يطلب قرنين فعاد بلا أذنين». فأخرجوه من الشعر، ومن أخرجه فله خمسة

(١) يمث «يرى على سحنته ووجهه مثل الدهن».
(٢) أذين من غير أن يؤذن لها.
(٣) صلماء «مقطوعة الأذن».
(٤) جـ ٣ ص ٥٧.
(٥) الحين ضخامة البطن.
(٦) الأغانى جـ ٣ ص ٥ – ٢ طبعة دار الكتب.

آلاف درهم، وإن لم تفعلوا جلدتكم كلكم خمسمائة. فقال حماد: أجلنا - أعز الله الأمير - شهرًا. وقال الأعشى أجلنا أسبوعين، وبشار ساكت لا يتكلم. فقال له عقبة: مالك يا أعمى لا تتكلم، أعمى الله قلبك! فقال أصلح الله الأمير قد حضرني شيء فإن أمرت قلته فقال، قل. فقال:

شط بسلمى عاجل البين وجاورت أسد بنى القين
ورنت النفس لها رنة كادت لها تنشق نصفين
يابنة من لا أشتهي ذكره أخشى عليه علق الشين
والله لو ألقاك لا أتقي عينا لقبلتك ألفين
طالبتها ديني فراغت به وعلقت قلبي مع الدين
فصرت كالعير غدا طالبًا قرنًا فلم رجع بأذنين

قال فانصرف بشار بالجائزة:

والمثل كما رواه الميداني عام ليس فيه تعيين للحيوان وإن عينه الشعر الذي بعد ذلك. وأما المثل كما جاء في الأغاني على لسان عقبة بن سلم فهو واضح الخطأ، فالحمار يتمتع بآذان قل أن تطاولها آذان، حتى صارت كناية عنه، فقالوا طويل الآذان. وضرب بها المثل في الطول أيضًا. وقد شارك بشارًا في هذا الخطأ في شعره الذي تقدم قول بعضهم[1].

ذهب الحمار ليستفيد لنفسه قرنًا فآب وما له أذنان

وقد روى الأستاذ أحمد بك أمين بيتي بشار الأخيرين كما يأتي:

طالبتها قلبي فراغت به وأمسكت قلبي مع الدين
فكنت كالهقل غدا يبتغى قرنًا فلم يرجع بأذنين

(١) معاهد التنصيص جـ ١ ص ٢-١.

وزعموا أنه لذلك يسمى بالظليم[1].

ولا أستطيع تحليل هذا الخطأ في رواية المثل في بعض أقوال الميداني ولا في شعر بشار المنقول عن الأغاني. وقد رأيت لهذا المثل توضيحًا يستقيم به المعنى، على أن الحمار هو صاحب القصة. فقد جاء في كتاب «أنوار سهيلى»[2] بالإنجليزية ما ترجمته:

«أن حمارًا بلا ذيل كان دائم الحزن على حظه الذي حرمه الذيل. فخرج يبحث عن ذيل ولم يكل، لكنه أخذ طريقه فجأة وبلا تدبير إلى حقل قمح ناضج السنابل، فلمحه الزارع من أحد جوانب الحقل، فوثب إليه فصلم أذنيه، بلا رحمة، وأصبح هذا الحمار المسكين، الذي خرج يطلب ذيلًا، بلا أذنين».

ثم يذكر المغزى فيقول:

«وأولئك الذين يعتدون مثل هذا الاعتداء، سيكون جزاؤهم مثل هذا الجزاء».

ولكن كتاب «أنوار سهيلي» لمؤلفه «حسين واعظ الكاشفي» متأخر عن ذلك بقرون[3]. ولعله أدرك هذا الخطأ في إيراد المثل وقصته فعدل القصة، وإن كان تعديله لا يستقيم مع الغاية التي أشرنا إليها في أول الأمر؛ وهي إيراد تفسير لخلقة الحيوان على صورة مخصوصة ملازمة. وليست قصة أنوار سهيلي مما نحن بصدده؛ إذ إنها خرافة لا أسطورة والمغزى في آخرها.

(١) فجر الاسلام ص ٧٩ – الهقل – الفتى من النعام. وفي محاضرات الراغب الأصفهاني الهيق. حيوان جـ ٤ ص ٣٢٣ تحقيق عبد السلام هارون.

(٢) ترجمة المستشرق الإنجليزى Eastwick من المستشرقين في القرن الماضي وقد أوردها شعرًا ص ١٩٣، والكتاب مطبوع في لندن.

(٣) حوالي سنة ٩٠٠م.

(٣) وقنزعة الهدهد:

وهي الشعر المجتمع على رأسه، لها قصة أيضًا.

يقولون إنه لما ماتت أمه أراد أن يبرها، فجعلها على رأسه يطلب لها موضعا فبقيت على رأسه . فالقنزعة هي قبرها وإنما أنتنت ريحها لذلك.

ويقول الجاحظ[١] إن «الهدهد طائر منتن الريح والبدن من جوهره وذاته، وينقل عن صاحب المنطق أن نتنه يأتي إليه من أنه يبني بيته من الزبل، ويطول مسكنه فيه ويفعل ذلك هو وأولاده حتى يصبح النتن طبيعة فيها»، ولكن الجاحظ لا يرضي هذا الرأي[٢] فيقول:

«وأما الأعراب فيجعلون ذلك النتن شيئًا خامره بسبب تلك الجيفة التي كانت مدفونة في رأسه، وقد قال في ذلك أمية أو غيره من شعرائهم». وجاء بقصيدة له، قال فيها عن الهدهد:

يبغى القرار لأمة ليجنها ... فبنى عليها في قفاه يمهد
مهدًا وطيئًا فاستقل بحمله ... في الطير يحملها ولا يتأود[٣]
فتراه يدلح[٤] ما مشي بجنازة ... فيها، وما اختلف الجديد المسند[٥]

ولا أدرى كيف صار ذلك التاج الجميل على رأس الهدهد بهذه الصفة وفسر هذا التفسير ولو أنهم جعلوا هذا التاج محفة أو هودجا حملها فيه

(١) جـ٣ ص ٥١٠.
(٢) جـ٣ ص ٥١٤.
(٣) يتعطف ويتلو.
(٤) يعشي بحمله مثقلاً.
(٥) الدهر.

لكان أولى وأليق بجماله، لكنهم نظروا إلى القنزعة من ناحية أخرى فاقتربوا منها وشموها، ثم فسروها هذا التفسير.

ويورد الجاحظ زعمًا آخر فيقول «وأما القول في الهدهد فإن العرب والأعراب كانوا يزعمون أن القنزعة التي على رأسه ثواب من ما كان من بره لأمه لأن أمه لما ماتت جعل قبرها على رأسه، فهذه القنزعة عوض عن تلك الوهدة».

ب. القصص المنقولة:

أما ما نقلوه من قصص أسطورية فيدور حول تفسير أخلاق الحيوان أو خلقته، وهو يهودي الصبغة، ومنه:

١ - قصة الحمامة والغراب في سفينة نوح:

أما الغراب فيضربون به المثل في البطء. وهم يقصدون غراب نوح، وجاء في تفسير ذلك أن نوحًا عليه السلام بثه لينظر هل غرقت البلاد، ويأتيه بالخبر، فوجد جيفه فوقع عليها، فلذلك لا يألف الناس. ويضرب به المثل في الإبطاء[١].

ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى في الأرض موضعًا يكون للسفينة مرفأ، واستجعلت على نوح الطوق الذي في عنقها، وعند ذلك أعطاها الله تعالى تلك الحلية ومنحها تلك الزينة، بدعاء نوح عليه السلام، حين رجعت إليه ومعها من الكرم ما معها، وفي رجليها من الطين والحمأة ما برجليها، فعوضت من ذلك الطين خضاب الرجلين، ومن حسن الدلالة والطاعة طوق العنق[٢].

(١) جـ١ ص ٧٩ أمثال الميداني.
(٢) حيوان جـ ٣ ص ١١٥ و جـ ٢ ص ٣٢١.

ومن الذين نقلوا بعض هذه الأساطير إلى العربية رجل معروف بعلمه ببعض أساطير اليهود وبعلم شيء من الديانة اليهودية، هو أمية بن أبي الصلت الثقفي.. وقد نقل الجاحظ عنه[1] شعرًا في هذه الأسطورة قال:

وأرسلت الحمامة بعد سبع تدل على المهالك لا تهاب
تلمس هل ترى في الأرض عينًا وغايته من الماء العباب
فجاءت بعد ما ركضت بقطف عليه الثأط والطين الكباب[2]
فلما فرسوا الآيات صاغوا لها طوقًا كما عقد السخاب[3]
إذا ماتت تورثه بنيها وإن تقتل فليس لها استلاب

ويلحق بهذه القصة أسطورة أراها تفسيرًا لصوت الحمام «الهديل»، وهو ما نعلمه من رقة يشوبها الحزن، ورخامة يلونها البكاء. جاء في تعليله أن الهديل فرخ كان على عهد نوح عليه السلام، فصاده جارح من الطير فليس من حمامة إلا وتبكي عليه إلى يوم القيامة[4].

ويقول نصيب:

فقلت أتبكي ذاتُ طوق تذكرت هديلًا، وقد أودى وما كان تبع!

فالأسطورة وضعت لتفسير رقه الصوت، وحزن نغماته.

٢ - حبس الديك:

ومن القصص التي نقلوها تفسيرًا لمعاملة بعض الحيوان - وهي أسطورة

(١) حيوان جـ ٢ ص ٣١٢ تحقيق عبد السلام هارون - وأصل القصة في سفر التكوين إصحاح ٨ من آية ٦ - ١٢.
(٢) الثأط الطين الأسود المنتن الكباب اللازب.
(٣) السخاب: القلادة.
(٤) بلوغ الأرب ج ٢ ص ٣٦٤.

قصصية – ماجاء في سبب حبس الناس للديك. قال الجاحظ [1]:

«وفي كثير من الروايات من أحاديث العرب أن الديك كان نديمًا للغراب وأنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه شيئًا، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن حين شرب، ورهن الديك، فخاس به، فبقي محبوسا».

وظاهر قول الجاحظ أنها عربية من «أحاديث العرب». ولكنه ينقل بعد ذلك شعرًا لأمية بن أبي الصلت في حبس الديك من قصيدة طويلة يتحدث فيها عن هذه الأسطورة وعن طوق الحمامة. فقد قال الديك للغراب لما تركه وذهب ليأتي بالثمن:

أمنْتك لا تلبث من الدهر ساعةً ... ولا نصفها حتي تئوب مآبيا
ولا تدركنكَ الشمس عند طلوعها ... فأغلقَ فيهم أو يطول ثوائيا[2]
فرد الغراب والرداء يحوذه ... فلا تدعُونيّ مرة من ورائيا
فلا تيأسنْ إنيِّ مع الصبح باكر ... أوافي غدا نحو الحجيج الغوَادِيا
لحبّ امرئ فاكهته قبْلَ حجتي ... وآثرْت عمدًا شأنه قبل شانيا
هنا لك ظنّ الديك إذ زال زوله ... وطال عليه الليل ألا مفاديا
فلما أضاء الصبح طرب صرخةَ ... ألا ياغراب هل سمعت ندائيا

***

وأمسى الغراب يضرب الأرض كلها ... عتيقًا وأضحى الديك في القدعاتيًا[3]
فذلك مما أسهب الخمر لبه ... ونادم ندمانا من الطير عاديًا

(١) الحيوان ج ٢ ص ٣٢٠.
(٢) من غلق الرهن إذا لم يفك وآل إلى المرتهن.
(٣) السير من الجلد.

وهذه الأسطورة خرافة أيضًا. أما الناحية الأسطورية فيها فظاهرة في تعليل صباح الديك عند مطلع الفجر. فالأسطورة تقول إنه فعل ذلك مناديًا الغراب لما غاب عنه وتأخر عن العودة إليه، وأنه رهين الحبس في أكثر حالاته. وأما أنها خرافة فللبيت الأخير الذي يتضمن المغزى.

ويبدو من سياق القصة أنها ملحقة بقصة طوق الحمامة في شعر أمية. وأمية كان مطلعًا على ما عند اليهود والنصارى من كتب دينية وما فيها من عقائد وأساطير وكان يفعل ذلك ليرشح نفسه للنبوة التي كان يدرك قرب زمانها[1] فهي يهودية.

ويعلق المرحوم مصطفي صادق الرافعي[2] على هذه القصص «الديك والغراب وطوق الحمامة»، فيقول: ولكن نظم أمية في هذه المعاني لا يرمي إلى شيء غير معنى القصص، كأنه لا يريد من الشعر إلا أن يكون دليلًا على علمه وترشحه للأمر الذي يرشح له نفسه كما سبق.. ولكني بينت أن قصة الديك والغراب قد تكون خرافة لاشتمالها على المغزى الخلقي.

وقد رأينا في شعر أمية بن أبي الصلت مغزى خلقيًا في نهاية هذه الأسطورة، فكانت دليلًا على أن الأسطورة يمكن أن تشتمل على المغزى أيضا كما تشتمل عليه الخرافة.

***

(١) حيوان جـ ٢ ص ٣٢٠.
(٢) تاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ١٥٤.

الفصل السادس

قصص الحيوان في القرآن الكريم وعند المفسرين

جاء في القرآن الكريم كثير من الآيات عن الحيوان بعضها لبيان منافعه[١] وبعضها لبيان العبرة فيه[٢] وبعضها يضرب به المثل[٣] وبعضها أحكام تتعلق بالحيوان[٤] وبعضها لإبطال عقائد وعادات قديمة تتعلق بالحيوان لا يقرها الإسلام[٥] وجاء بعضها بيانًا لمعجزات بعض الرسل عليهم السلام[٦].

وزاد المفسرون عليها أحيانًا، وهذا أهمها:

١ - بقرة بني إسرائيل:

قصة البقرة وردت في السورة المسماة باسمها وتلك هي الآيات ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا

---

(١) كقوله تعالى في سورة النحل ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ﴾، إلى قوله تعالى، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، من آية ٥ إلى آية ٨. وكثير غيرها.

(٢) كما ورد في سورة النحل والمؤمنون ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ﴾، وآيات أخرى .

(٣) كما جاء في سورة الجمعة ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ وغيرها.

(٤) كآيات المائدة في تحريم بعضه وإحلال الطيبات منه.

(٥) كآية المائدة: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ ﴾. وآيات الأنعام.

(٦) ومعجزات الرسل عليهم السلام ونحوها كناقة صالح.. وانقلاب العصا حية لموسى وتسخير الطير لسليمان وعلمه بمنطقه وخدمته له. و بقرة بني إسرائيل.

مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَ‍ٔۡتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾. آيات [٦٧ - ٧٤].

والقصة بين موسي وقومه. ولكن البقرة تحتل أظهر مكان فيها، فقد كانت مثار استنكار اليهود عندما أمرهم بذبحها، وظنوه يهزأ بهم. فلما رأوا الجد في قوله طلبوا منه ملحين أن يبين لهم حالها وصفتها، فقال عن ربه: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ﴾، وأمرهم أن يفعلوا ما أمروا به ؛ فسألوا عن اللون، فأخبرهم به. ثم كرروا السؤال الأول وطلبوا أن يبين الله لهم ﴿مَا هِيَ﴾ فقال لهم إنها بقرة غير ذلول، لا تعمل في إثارة الأرض ولا سقيها، وأنها خالية من العيوب، ومن أي علامة في جلدها ؛ قالوا ﴿ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾. والآيتان بعد ذلك [٧٢ و ٧٣] تبينان سبب ذبح البقرة والغاية من هذا الذبح.

وقد تكفل التفسير ببيان ذلك كله جاء في تفسير البيضاوي بعد الآيات الأولى: أول هذه القصة قوله تعالى، ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَ‍ٔۡتُمۡ فِيهَاۖ﴾ وإنما فكت عنه - أي فكت القصة عن أولها - وقدمت عليه لاستقلالها بنوع آخر من مساويهم وهو الاستهزاء بالأمر، والاستقصاء في السؤال. وترك المسارعة إلى الامتثال.

وأما القصة فهى: «أنه كان فيهم شيخ موسر، فقتل ابنه بنو أخيه طمعا في ميراثه، وطرحوه على باب المدينة، ثم جاءوا يطالبون بدمه؛ فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة، ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبر بقاتله؛ فأكثروا من السؤال عن البقرة، حتى إذا حصلوا على البقرة المنعوتة ذبحوها، وما كادوا يفعلون؛ لتطويلهم، وكثرة مراجعاتهم، أو لخوف الفضيحة في ظهور القاتل أو لغلاء ثمنها «روي أن شيخا صالحًا منهم كان له عجلة، فأتى بها الغيضة وقال: «اللهم إني استودعتكها لابني حتى يكبر. فشبت وكانت وحيدة بتلك الصفات، فساوموها من اليتيم وأمه، حتى اشتروها بملء مسكها ذهبًا وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير. فلما انتهت سؤالاتهم، وانقطعت تعللاتهم، ذبحوها وضربوه ببعضها، أي بعض كان؛ وقيل بأصغريها، وقيل بلسانها، وقيل بفخذها اليمنى، وقيل بالأذن، وقيل بالعجب» فحيي وأخبرهم بقاتله.

وزاد البيضاوي عند التفسير[1] فقال: «ولعله تعالى إنما لم يحيه ابتداء، وشرط فيه ما شرط، لما فيه من معنى التقرب وأداء الواجب، ونفع اليتيم، والتنبيه على بركة التوكل، والشفقة على الأولاد، وإن من حق الطالب أن يقدم قربة، والمتقرب أن يتحرى الأحسن ويغالي بثمنه..... وأن المؤثر في الحقيقة هو الله تعالى، والأسباب أمارات لا أثر لها، وأن من أراد أن يعرف أعدى عدوه، الساعي في إماتته الموت الحقيقي، فطريقه أن يذبح بقرة نفسه، التي هي القوة الشهوية حين زال عنها شره الصبا، ولم يلحقها ضعف الكبر وكانت معجبة رائقة المنظر، غير مذللة في طلب الدنيا، مسلمة عن دنسها،

(١) جـ١ ص ٢٥.

لا سمة بها من مقابحها، بحيث يصل أثره إلى نفسه، فتحيا حياة طيبة وتعرب عما به ينكشف الحال، ويرتفع ما بين العقل والوهم من التدارؤ والنزاع».

فإذا اعتبرنا هذه القصة قصة حيوانية فذلك لأهمية الحيوان فيها وأنه صاحب دور واضح في سياقها وفي عدد آياتها وكان من مواضع العبرة والمعجزة.

٢ ـ ناقة صالح:

وهذه معجزة أساسها الحيوان اختارها الله تعالى ليؤيد بها صالحًا a عندما دعا قومه إلى الله، وذكرهم بنعمه، وجاء بمعجزته وقال: ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾[1].

وفي سورة الشعراء – ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾[2] وفي سورة القمر ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾[3].

تلك هي معجزة صالح a ، قص الله حديثها في القرآن مختصرًا، لم يقصد به تفصيلًا ولا تسلية، وإنما قصد به موضع العبرة التي تتجلى في إخبار الرسول a بما أصاب المرسلين قبله من تكذيب، و بصبرهم على ما كذبوا، وبعاقبة الصابرين والمكذبين. لكن قصة الناقة في كتب التفسير قصة

(١) سورة هود من ٦٤ – ٦٦.
(٢) ١٥٥.
(٣) ٢٧.

لطيفة، هي أظهر جزء في قصة صالح a . فقد أرسل إلى ثمود بالحجر بين الحجاز والشام، روى أنهم بعد عاد عمروا بلادهم وخلفوهم، وكثروا، وعمروا أعمارًا طوالًا. لا تفي بها الأبنية. فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا في خصب وسعه، فعتوا وأفسدوا في الأرض وعبدوا الأصنام ؛ فبعث الله إليهم صالحًا من أشرافهم، فأنذرهم، فسألوه آية فقال ندعو فمن استجيب له اتبع. فخرج معهم فدعوا أصنامهم فلم تجبهم، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها «الكاثبة» وقال له: اخرج من هذه الصخرة ناقة مخترجة على خلقة الجمل جوفاء وبراء فإن فعلت صدقناك. فأخذ عليهم صالح مواثيقهم. لئن فعلت ذلك لتؤمنن؟ فقالوا نعم. فصلى ودعا ربه، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا. وهم ينظرون. ثم نتجت ولدًا مثلها في العظم، فآمن به جندع في جماعة. ومنع الباقين من الإيمان ذؤاب بن عمرو، والحباب صاحبَ أوثانهم، ورباب بن صفر كاهنهم. فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبًا - يوما بعد يوم - فما ترفع رأسها من البئر حتي تشرب كل ما فيها ثم تتفحج[1] فيحلبون ما شاءوا حتى تمتلئ أوانيهم، فيشربون ويدخرون.

وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم إلى بطنه. وتشتو ببطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم، وزينت عقرها لهم عنيزة أم غنم، وصدقة بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها، فرقي سقبها جبلا اسمه «قارة»، فرغًا ثلاثًا، فقال صالح لهم: أدركوا الفصيل

(١) تمشي مباعدة بين رجليها.

عسي أن يُرفع عنكم العذاب. فلم يقدروا عليه ؛ إذ انفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها. فقال لهم صالح: تصبح وجوهكم غدا مصفرة، وبعد غد محمرة، واليوم الثالث مسودة، ثم يصبحكم العذاب.. فلما رأوا العلامات طلبوه ليقتلوه، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كانت ضحوة اليوم الرابع تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فقطعت قلوبهم فهلكوا.

هذه قصة أخرى زاد عليها المفسرون، وكانت الناقة وابنها أوضح شيء في هذه الزيادة. ولا أدري مصدرها الأول. ومن المستبعد أن تكون من عمل الإسرائيليين ؛ إذ إن صالحا a نبي عربي وليس من بني إسرائيل. ويقول «رودويل»، Rodwell في تعليقه على القصة في سورة الأعراف: إنه نبي عربي لم يذكر إلا في كتاب محمد ﷺ.

علي أن نسبته إلى اليهود أو النصارى كانت ظنًا ظنه «مولر» «Muller» وحسبه مبشرًا يهوديًا أو مسيحيًا – وقيل إنه Shelah المذكور في سفر التكوين (إصحاح ١١ آية ١٣) لأن أعماله ومخاطراته تشبه ما ذكره القرآن.

وقد ظن «رودويل»، أيضا أن الاسم «ربما كان مأخوذا من اسم ميتو شالح Meou shaleh الذي جاء عن صلاحه كلام في مدراش».

تلك خلاصة ما قاله «رودويل»، في تعليقه على القصة[1]. وليس في نفي الجنسية العربية عنه إلا شبهة جاءت من تشابه اسمه مع هذين الاسمين. لكن نسبة شيلاه إلى أرفخشاذ في التوراة تختلف عما قاله البيضاوي في صالح إذ قال عنه إنه صالح بن عبيد بن آسف. ومكان بعثته في بلاد الحجر

(١) يري بعض المفسرين آراء أخرى في هذه القصة.

وإرساله إلى قبيلة ثمود العربية يبعد أن يكون غير عربي. وأرجح أن تكون قصة ناقته عربية مثله أيضًا.

٣ - قصة الفيل والطير الأبابيل:

ظهر الفيل في تاريخ العرب والإسلام. وكانت له حادثة أرخوا بها. وولد ﷺ عام الفيل ٥٧١م. ونزلت في أصحاب الفيل سورة من سور القرآن الكريم، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

وقصة الفيل لها أصل تاريخي، لم يأت القرآن به ولا بتفصيلها، واكتفى بموضع العبرة، ثم إن المشركين كانوا قريبي عهد بها، وكان بعض من عاصرها لايزال حيًا. والحق أنها قصة لطيفة[1] كان للفيل فيها بطولة ظاهرة، وأثر في طرافتها عظيم، وخلاصتها: أن أبرهة الأشرم حاكم اليمن من قبل النجاشي ملك الحبشة، بنى كنيسة في صنعاء وأنفق عليها كثيرا، وأراد أن يصرف العرب إليها عن مكة. وقيل إن بعض العرب فعل فيها ما أغضب أبرهة فحلف ليهدمن الكعبة. فخرج بالحبشة ومعه فيل له اسمه محمود واثنا عشر فيلًا غيره، وقيل كان معه ألف فيل. فلما بلغ «المغمس»[2] أرسل جماعة من جيشه فساقوا إبلًا فيها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم. ورأت قريش وكنانة وهذيل أنهم لا طاقة لهم بحرب أبرهة. وبعث أبرهة إلى سيد هذا البلد وشريفه يخبره أنه لم يأت محاربًا، وأنه جاء لهدم الكعبة.

(١) الكشاف جـ٢ سورة الفيل. بلوغ الأرب جـ ١ ص ٢٥١.
(٢) اسم مكان قريب من مكة على طريق الطائف.

وأمر أن يحضر إليه. فانطلق عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى أبرهة، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم. فأجله أبرهة وأكرمه وأعظمه وقال لترجمانه قل له: ما حاجتك؟ فقال عبد المطلب: أن ترد الإبل.

فأنكر ذلك أبرهة وقال له: تكلمني في الإبل وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه! فقال له عبد المطلب: أنا رب الإبل. وإن للبيت ربًا سيمنعه، فرد عليه الإبل ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والشعاب تخوفًا عليهم من معرة الجيش. ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده. فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة الباب:

لا هم إن المرء يمنع حله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ومِحالهم أبدًا مِحالك
جروا جميع بلادهم والفيل كي يسبوا عيالك
فانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

وترك عبد المطلب حلقة الباب، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها. فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وعبي جيشه وكان اسم الفيل محمودًا، فلما وجهوه إلى مكة قام إلى جانبه رجل من خثعم فأخذ بأذنه وقال له: ابرك محمودا، وارجع راشدًا من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل، فضربوه ليقوم فأبى، وألحوا عليه بالضرب فلم يتجه إلى مكة، وكلما وجهوه إلى جهة أخرى سار مسرعًا.

وقد أرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار؛ حجر في منقاره وحجران في رجليه، أمثال

الحمص والعدس لا تصيب أحدا منهم إلا هلك. وروي عن ابن عباس ﷺ أنه رأى منها عند أم هانىء نحو قفيز، مخططة بحمرة كالجزع الظفاري، فكان الحجر يسقط على رأس الرجل فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه، ففروا، وهلكوا في كل طريق ومنهل. وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، حتي قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون. وانفلت وزيره أبو يكسوم، وطائره يحلق فوقه، حتى بلغ النجاشي، فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتًا بين يديه.

وأعظمت العرب قريشًا وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم وكفاهم مئونة عدوهم ! وقيل في ذلك أشعار كثيرة. فقال أمية بن أبي الصلت:

إن آيات ربنا ثاقبات لا يماري بهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتي ظل يحبو كأنه معقور

وقال أبو قيس صيفي بن الأسلت:

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكمو منه بلاء مصدق غداة أبي يكسوم هادي الكتائب
كتيبته بالسهم تمشي ورجله علي القاذفات في رءوس المناقب
فلما أتاكم نصر ذي العرش ردهم جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سرعًا هاربين ولم يؤب إلى أهله ملحبش غير عصائب.

والحق أن الطير الأبابيل لا تقل بطولة عن الفيل في هذه القصة، ولكنه استأثر بنسبة القصة إليه لضخامة جثته وعظيم مروءته، واحتماله الأذى عندما أبى أن يتقدم إلى مكة.

٤- النملة والهدهد:

و ننتقل بعد ذلك إلى قصة حيوانين وردا في سورة النمل في قصة سليمان a : أولهما النملة، وثانيهما الهدهد، جاء عن منطق الطير والنملة والهدهد حوالي صفحة في القرآن الكريم من الآية [١٦ إلى الآية ٢٩] في سورة النمل، وهي موجزة تكتفي بما يؤدي إلى الغاية. فإن سليمان a علم منطق الطير، وقال ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.. ولما أتى على وادي النمل هو وجنوده من الجن والإنس والطير خافت النملة أن يحطمهم هو وجنوده، فدعت النمل أن يدخلوا مساكنهم. فتبسم سليمان a ضاحكًا من قولها وسأل ربه أن يلهمه شكر النعمة، وأن يوفقه إلى العمل الصالح، وأن يدخله برحمته في عباده الصالحين.

وتفقد الطير، فلما لم ير الهدهد توعده، إلا أن يأتيه بسلطان مبين. فجاءه بخبر ملكة سبأ وعظمتها، وأنها تعبد الشمس من دون الله هي وقومها، وأن الشيطان زين لهم أعمالهم؛ والأجدر بهم أن يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض. فأرسله سليمان a بكتاب إلى ملكة سبأ؛ قال له. ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾... هنا يكثر التفسير من الحديث عن منطق الطير الذي علمه سليمان:

جاء في الكشاف: «والذي علمه سليمان من منطق الطير هو ما يفهم بعضه عن بعض من معانيه وأغراضه. ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا الله ونبيه أعلم. قال: يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء. وصاحت فاختة فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح طاووس فقال: يقول:

كما تدين تدان. وصاح هدهد فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبين. وصاح طيطوَي فقال: يقول: كل حي ميت، وكل جديد بال. وصاح خطاف فقال: يقول: قدموا خيرًا تجدوه. وصاحت رَخَمة فقال: تقول: سبحان ربي الأعلي ملء سمائه وأرضه. وصاح قمري فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلي. وقال: الحدأة يقول: كل شيء هالك إلا الله، والقطاة تقول: من سكت سلم، والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه. والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين. والنسر يقول: يا بن آدم عش ما شئت آخرك الموت. والعُقاب يقول: في البعد من الناس أنس. والضفدع يقول: سبحان ربي القدوس.

ويلاحظ أنه قد جاء من منطق الطير في هذه الأسطر حِكَمْ تشبه حِكَمْ سليمان، فكأن القائلين أدركوا ما عرف به سليمان a فأنطقوا الطير بشبيه أمثاله. و قد راعوا في بعض هذه الأمثال أن يتفق في صوته مع صوت الطير الذي ينطق به، كما في منطق الحدأة والديك ؛ وراعوا في بعضها أن تكون حكمته من جنس ما عرف عن ذلك الطير من خصائص. فالنسر طويل الأجل يتحدث عن غاية كل حي مهما طال أجله، والعقاب التي تتخذ مساكنها في عالي القلل تنصح بالبعد عن الناس.

وأما النملة فلم يكثروا من القول عنها، ويظهر أنها لم تستحق ذلك لصغرها وإليك بعض ما قيل.

جاء في روح المعاني للآلوسي[1]: وروى أن سليمان عليه السلام لما سمع قول النملة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ إلى آخره فقال آتوني بها فأتوا بها فقال: لم حذرت النمل ظلمي؟ أما علمت أني نبي عدل؟ فلم قلت ؛ ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾. فقالت أما سمعت قول: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

(١) جـ١٩ ص ١٧٩.

ومع ذلك إني لم أرد حطم النفوس. وإنما أردت حطم القلوب، خشيت أن يروا ما أنعم الله تعالي به عليك من الجاه والملك العظيم، فيقعوا في كفران النعم، فلا أقل من أن يشتغلوا بالنظر إليك عن التسبيح. فقال لها سليمان عظيني. فقالت أعلمت لم سمي أبوك داود؟ قال لا. قالت لأنه داوى جراحة قلبه. وهل تدري لم سميت سليمان؟ قال لا. قالت لأنك سليم القلب والصدر. ثم قالت أتدري لم سخر الله تعالى لك الريح. قال: لا. قالت أخبرك الله تعالى بذلك أن الدنيا كلها ريح، فمن اعتمد عليها فكأنما اعتمد على الريح. ويعلق الآلوسي على ذلك بقوله: «وهذا ظاهر الوضع كما لا يخفى، وفيه ما يشبه كلام الصوفية، والله تعالى أعلم بصحة ما روى من أنها أهدت إليه نبقة فدعا للنمل بالبركة».

أما أن هذه القصة ظاهرة الوضع فواضح من سؤال النملة له عن الأسماء واشتقاقها من هذه الأسماء العبرية أفعالا عربية، وصفات فيها مدح لداود a وابنه سليمان. والقصة كلها تدل على أن ذلك من باب الصناعة اللفظية وظهر في عصر يسود فيه البديع، فإذا ذكر داود أو سليمان أسرع الذهن إلى التعليل السابق؛ فكأنه من عمل الصوفية أو من عمل اللغويين. ثم إن هذه التسمية تكون عند الميلاد. فكيف عرف عند مولد داود أنه سيداوي جراحة قلبه، وكيف عرف مثل ذلك عند مولد سليمان؟[1] و تعليل تسخير الريح غريب حقا.

وقد رأيت قصة النملة في دائرة المعارف اليهودية[2]. وجاء فيها «وفي يوم من الأيام امتلأ سليمان عجبًا بعظمته وحكمته، وعوقب على ذلك بأن

(١) قد يكون ذلك للتفاؤل والرجاء و لكن النملة تقول ذلك على سبيل التقرير.

(2) The gewish Ency جـ ١١ ص ٤٣٩ Solomon.

هز الريح البساط فوقع من فوقه أربعون ألف رجل، فوبخ سليمان الريح لما فعلت، لكن الريح وعظته قائلة: إن الملك يجب أن يعمل صالحًا ويتجه إلى الله، ويبتعد عن العجب فخجل سليمان من قولها جدا.

وفي يوم آخر كان يمر فوق واد مملوء بالنمل فسمع نملة تقول: ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم جنود سليمان. فسألها سليمان عن السبب في قولها، فقالت إنها خافت أن ينظر النمل إلى جنود سليمان، وقد يصرفهم ذلك عن شكر الله فيهلكهم. ثم قالت إنها ملكة النمل. لهذا أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم فأراد سليمان أن يسألها سؤالا فقالت له: لا يليق بالسائل أن يكون أعلى والمسئول أسفل؛ فرفعها من بطن الوادي عندئذ ؛ فقالت له: ليس من اللائق أن يجلس هو على بساط وهي على الأرض. فجعلها على يده. ثم سألها: أهناك على الأرض من هو أعظم مني؟ فقالت له: إنها أعظم منه كثيرا، وإلا ما أرسله الله إليها ليحملها على يده. فغضب عندئذ غضبًا شديدًا وألقاها قائلا: ألا تعلمين من أنا! فأجابته: أعلم أنك مخلوق من نطفة مذرة فليس من اللائق أن تكون معجبًا. فامتلأ سليمان خجلًا وخر على وجهه.

ونلاحظ أن القصة المنقولة عن كتب التفسير ترفع من شأن سليمان وتتحدث عنه بما يليق برسول.

والقصة اليهودية قد جعلت النملة واعظة تهديه إلى التواضع وتبعده من الكبر، وقد أفلحت فيما أرادت. وليس هناك فرق كبير بينهما بعد ذلك. وأما الهدهد فله عند المفسرين حديث طويل. يقول الزمخشري[1] وذكر من قصة الهدهد أن سليمان a حين تم له بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره،

(١) الكشاف جـ ٢ ص ١٤١.

فوافي الحرم وأقام به ماشاء. وكان يقرب كل يوم طول مقامه بخمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة، ثم عزم على السير إلى اليمن فخرج من مكة صباحا فوافى صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر فرأى أرضًا حسناء أعجبته خضرتها، فنزل ليتغذى ويصلى، فلم يجدوا الماء، وكان الهدهد قُناقنه – القناقن البصير بالماء في حفر القنى– وكان يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاجة، فيجيء الشياطين فيسلخونها كما يسلخ الإهاب، ويستخرجون الماء ؛ فَتَفَقَدَهُ لذلك».

وحين نزل سليمان، حلق الهدهد، فرأى هدهدًا واقعًا، فانحط إليه فوصف له ملك سليمان وما سخر له من كل شيء، وذكر له صاحبه ملك بلقيس و أن تحت يدها اثني عشر ألف قائد تحت كل قائد مائة ألف، وذهب معه لينظر، فما رجع إلا بعد العصر. وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان، فنظر فإذا موضع الهدهد خال، فدعا عفريت الطير وهو النسر، فسأله عنه فلم يجد عنده علمه، ثم قال لسيد الطير وهو العقاب، عليَّ به: فارتفعت فنظرت فإذا هو مقبل فقصدته، فنا شدها الله، وقال: بحق الذي قواك وأقدرك عليَّ إلا رحمتني! فتركته وقالت: ثكلتك أمك إن نبي الله قد حلف ليعذبنك! قال: وما استثنى؟ قالت: بلى، قال: أو ليأتيني بعذر مبين. فلما قرب من سليمانَ أرخى ذيله وجناحيه يجرها على الأرض تواضعا له. فما دنا منه أخذ برأسه، فمده اليه؛ فقال يا نبيّ الله: اذكر وقوفك بين يدي الله، فارتعد سليمان وعفا عنه.

ثم أخبره الهدهد بما سمع من صاحبه، فكتب إليه سليمان a كتابًا يدعو بلقيس إلى الإسلام.

يروى أن نسخة الكتاب: من عبد الله سليمان بن داود إلى بلقيس ملكة سبأ.

السلام على من اتبع الهدى. أما بعد فلا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين. وكانت كتب الأنبياء a جملا لا يطيلون ولا يكثرون.

وطبع الكتاب بالمسك، وختمه بخاتمه، فوجدها الهدهد راقدة في قصرها بمأرب ؛ وكانت إذا رقدت غلقت الأبواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها، فدخل من كوة الباب، وطرح الكتاب على نحرها وهي مستلقية، وقيل نقرها فانتبهت فزعة، وقيل أتاها والقادة والجنود حواليها. وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تُبع بن شراحيل الحميري، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت وقالت لقومها ما قالت.

إن القرآن خال من التفاصيل التي جاءت في الشرح. وفيها أشياء ينكرها العقل كالمبالغة في ملك بلقيس. ولو أحصينا جنودها لضاقت بهم جزيرة العرب جميعها (١٢,٠٠٠ فى ١٠٠,٠٠٠ = ١٢٠٠ مليون جندي وأين النساء والأطفال؟ وأين طعام هؤلاء جميعًا؟ ومساكنهم؟ إلى آخره). ويظهر أن الناحية الدينية حملت ناقلي القصة على أن يجعلوا سليمان يحج البيت الحرام.

لكنها قصة جميلة من قصص المبالغات والعجائب. ويعلق البيضاوي على ذلك فيقول ولعل في عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك يستكبرها من يعرفها ويستنكرها من ينكرها.

٥ - غراب ابني آدم:

وهذه قصة من قصص الحيوان جاء بها القرآن الكريم عن ابني آدم، فقد قربا قربانًا فتقبل من أحدهما زرعه وهو هابيل؛ ولم يتقبل من أحدهما

ضرعه وهو قابيل. فحسد أخاه وقتله ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾. [سورة المائدة].

أي أنه لما قتله تحير في أمره. ولم يدر مايصنع به إذ كان أول ميت من بني آدم، فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة.

وظاهر من القصة في القرآن وفي التفسير أن الحيوان كان فيها معلمًا ومرشدًا، وقد نقلها ابن الطفيل في حي بن يقظان عندما عجز «حي» عن دفن الظبية واهتدي بغرابين.

٦ - حية آدم:

وتأتي قصة لم يشر إليها القرآن أية إشارة وهي قصة الحية التي قيل إن إبليس تشكل بشكلها، أو دخل في جوفها إلى الجنة ليغوي آدم a . وقد جاء في كتب التفسير كثير من الأقوال يهمنا منها قصة الحية. وإليك ما يقوله محمد بن جرير الطبري عنها[1] قال بسنده عن وهب بن منبه:

«لما أسكن الله تعالى آدم وزوجته الجنة ونهاه عن الشجرة، وكانت شجرة متشعب بعضها في بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم. وهي الثمرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته. فلما أراد إبليس أن يستنزلهما دخل في جوف الحية، وكان للحية أربع قوائم كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله، فلما دخلت الحية الجنة خرج من جوفها إبليس، فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته، فجاء به إلى حواء فقال: انظري إلى هذه الشجرة؛

(١) تفسير الطبري جـ ١ ص ١٨٦.

ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها، وأحسن لونها! فأخذت حواء فأكلت منها ثم ذهبت إلى آدم فقالت: انظر إلى هذه الشجرة ما أطيب ريحها، وأطيب طعمها وأحسن لونها! فأكل منها، فبدت لهما سوءاتهما. فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربه يا آدم: أين أنت؟ قال أنا هنا يارب. قال ألا تخرج قال أستحيي منك يارب. قال: ملعونة الأرض التي خلقت منها لعنة يتحول ثمرها شوكًا - قال ولم يكن في الجنة ولا في الأرض شجر كان أفضل من الطلح والسدر - ثم قال يا حواء أنت التي غررت عبدي ؛ فإنك لا تحملين حملًا إلا حملته كرهًا، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مرارًا. وقال للحية: أنت التي دخل الملعون في جوفك حتى غرّ عبدى، ملعونة أنت لعنة تتحول قوائمك في بطنك ولا يكن لك رزق إلا التراب، أنت عدوة بني آدم وهم أعداؤك، حيث لقيت أحدًا منهم أخذت بعقبه وحيث لقيك شدخ رأسك.

والذي يرجع إلى التوراة في الإصحاح الثالث من سفر التكوين[1] يرى أن الله خلق الحيوان وأسكنه الجنة مع آدم، وأن آدم هو الذي سمى كل حيوان باسمه، ثم خلق له حواء من أحد أضلاعه، وأنه أباح له أشجار الجنة يأكل منها إلا شجرة معرفة الخير والشر، نهاه عنها. وكانت الحية أمهر الحيوان فقالت لحواء: إنك إن أكلت من شجرة المعرفة فلن تموتي؛ والله يعلم أنك في اليوم الذي تأكلين فيه منها تتفتح عيناك، وتعرفين الخير والشر، فلما رأت حواء جمال الشجرة وحسن منظرها، وأن عاقبة الأكل منها حكمة ومعرفة، أكلت من ثمرها، وأعطت زوجها، فتفتحت أعينهما وأدركا أنهما

(١) من ١ - ١٩.

عاريان، فخاطا بعض أوراق التين لتسترهما، ونادى الله آدم فاستخفي منه، واستحيا لأنه عار. فقال الله وكيف عرفت أنك عار؟ أأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها؟ فأجابه آدم بأن المرأة التي خلقها له هي التي أطعمته من ثمر هذه الشجرة. وقالت حواء إن الحية هي التي خدعتها حتى أكلت. فقال الله للحية: عليك اللعنة من بين البهائم والوحوش، وقضيت عليك أن تمشي على بطنك، وأن يكون طعامك التراب طول عمرك؛ وسأجعل العداوة دائمة بينك وبين المرأة وبين ذريتكما، وقضيت أن يشدخ رأسك ابن آدم وأن تلدغي عقبه؛ وقضى على المرأة أن تكثر أحزانها وحملها وأن تضع حملها في ألم، وأن يكون الرجل سيدًا عليها.

وقد جاء في دائرة المعارف اليهودية[1] «إن الشيطان أراد بآدم الشر واختار الحية أداة له؛ لا لأنها أمهر الحيوانات فقط بل لأنها شبيهة جدا بالإنسان. وكان لها يدان ورجلان مثله».. ولما أقنع الحية بالدخول في جوفها وأغرى آدم وحواء «عوقبت الحية بأن فقدت يديها ورجليها»[2].

وقد نقل الفخر الرازي[3] قصة شبيهة بالتي نقلها الطبري وعلق عليها بقوله «وأعلم أن هذا وأمثاله مما يجب ألا يلتفت إليه، لأن إبليس لو قدر على الدخول في فم الحية، فلمَ لـمْ يقدر أن يجعل نفسه حية ثم يدخل الجنة! ولأنه لما فعل ذلك بالحية، فلم عوقبت مع أنها ليست بعاقلة ولا مكلفة»!

وليس أدل على أن هذه القصة إسرائيلية من عباراتها كما رواها الطبري حتى لتكاد تلمح فيها الترجمة الحرفية.

(١) جـ ١ ص ١٧٩ Book of Adam.
(٢) كتاب آدم المرجع نفسه.
(٣) جـ ١ ص ٤٦٥.

وقد كانت قصة الحية معروفة قبل الإسلام و نقلها عدي بن زيد شعرًا. وذكر الجاحظ عن أمية أنه ذكر رطوبة الحجارة وأن كل شيء قد كان ينطق. ثم خبر عن منادمة الديك الغراب واشتراط الحمامة على نوح وغير ذلك مما يؤيد ما قلناه، ثم ذكر الحية وشأن إبليس وشأنها ثم قال:

فإن قلت إن أمية كان أعرابيًا وكان بدويًا وهذا من خرافات أعراب الجاهلية؛ وزعمت أن أمية لم يأخذ ذلك عن أهل الكتاب، فإنني سأنشدك لعدي بن زيد[1] وكان نصرانيا ديانًا وترجمانًا وصاحب كتب، وكان من دهاة أهل ذلك الدهر.

قال عدي بن زيد يذكر شأن آدم ومعصيته وكيف أغواه الشيطان وكيف دخل في الحية، وأن الحية كانت في صورة جمل فمسخها الله عقوبة لها حين طاوعت عدوه على وليه، فقال:

قضي لستة أيام خليقته ... وكان آخرها أن صوّر الرجلا
وعاه آدم صوتا فاستجاب له ... بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا[2]
ثُمت أورثه الفردوس يعمرها ... وزوجه صنعة من ضلعه جعلا
لم ينهه ربه عن غير واحدة ... من شجر طيب إن شم أو أكلا
فكانت الحية الرقشاء إذ خلقت ... كما ترى ناقة في الخلق أو جَمَلا
فعمدا للتي عن أكلها نُهيا ... بأمر حواء لم تأخذ له الدَّغلا[3]
كلاهما خاط إذ بُزا لبوسهما ... من ورق التين ثوبا لم يكن غُزلا

(١) ترجمته في الأغاني جـ ٢ طبعة دار الكتب.
(٢) جبل: أي خلق.
(٣) لم تأخذ حذرها.

فلاطها[1] الله إذ أغـوت خليفته طول الليالي ولم يجعل لها أجلا[2]
تمشي على بطنها في الدهر ما عمرتْ والـترب تأكله حزنًا وإن سهُلا

وأورد أبياتا عما أصاب آدم وحواء من الجوع والأوصاب والعلل، وانهما أوتيا الملك والإنجيل، ثم جاء بما روى كعب الأحبار من أنه مكتوب في التوراة أن حواء عوقبت عند ذلك بعشر خصال وأن آدم لما أطاع حواء وعصى ربه عوقب بعشر خصال وأن الحية التي دخل فيها إبليس عوقبت بعشر خصال.

وأورد هذه الخصال العشر في حالة كل من هؤلاء الثلاثة.

طابع قصص الحيوان عند مفسري القرآن:

نزل القرآن بلسان عربي مبين ليبين للناس أصول دينهم ويبصرهم بما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة. وكانت القصة بعض ما اشتمل عليه. وماورد من هذه القصص في القرآن ترك للأسئلة مجالًا. ذلك أن القرآن كان يكتفي من هذه القصص بما سيقت من أجله كالموعظة والعبرة. أما التفاصيل فلم يكن يوردها. ولكن حب الاستطلاع غريزة، والرغبة في الاستقصاء كثيرا ما تدعو إلى التساؤل عند سماع هذه القصص أو قراءتها. فإذا سمعوا «ناقة صالح» رغبوا في معرفة نوعها، وإذا سمعوا «وادي النمل» أرادوا أن يعرفوا مكان هذا الوادي - وكذلك هدية بلقيس إلى سليمان ومنطق الطير وبساط الريح، وهكذا في بقية القصص التي تثير الأسئلة. وكان الذي يستطيع الإجابة عن أسئلتهم أهل الكتاب؛ لما في التوراة من قصص

(١) ألصقها.
(٢) إشارة إلى ما يزعمون من أن الحية لا تموت إلا بما يعرض لها من قتل ونحوه.

شبيهة بهذه القصص؛ ولما للتوراة من شروح وتعليقات. ولما أضيف إليها من أساطير. وقد أسلم بعض أهل الكتاب ووجدوا في التوراة وشروحها وما أضيف إليها معينا يستطيعون أن يرجعوا إليه للإجابة عن مثل الأسئلة المتقدمة. ولم يكن هؤلاء اليهود على حظ كبير من التحري والدقة وتمحيص ما يروون. فسرى إلى المفسرين عن طريقهم كثير من الإسرائيليات التي امتلأت بها كتب التفاسير في مثل هذه القصص التي جاء بها القرآن. وقد ذكر ابن خلدون[1] في المقدمة:

«إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تشوق إليه النفوس البشرية في أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ؛ ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود، ومن تبع دينهم من النصارى، وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية. فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم، مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها، مثل أخبار بدء الخليقة، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم، وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار[2] ووهب بن منبه[3] وعبد الله بن سلام وأمثالهم. فامتلأت التفاسير من

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٨٣.

(٢) كعب الأحبار: هو يهودي من اليمن أسلم بعد وفاة الرسول وتسرب منه كثير من أخبار اليهود إلى المسلمين، مات بالشام سنة ٤٤.

(٣) وهب بن منبه: من أهل الكتاب كان له معرفة بأخبار الأوائل وقصة الخلق و الأنبياء. وكان يقول قرأت من كتب الله اثنين وثلاثين كتابًا! الخ، مات سنة ١١٠ بعد ما عمر تسعين عامًا.

المنقولات عندهم. وفي أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع إلى الأحكام، فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل؛ ويتساهل المفسرون في مثل ذلك. وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات. وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية. ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك؛ إلا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ».

ويشير بعد ذلك إلى عمل المفسرين المحققين من أمثال ابن عطية والقرطبي، ويمدح تفسير الكشاف للزمخشري من أهل خوارزم.

ويؤيد كلام ابن خلدون أني قرأتُ تفسير قصة سليمان في سورة النمل، في كتاب جامع البيان لابن جرير الطبري (من ص٨٩ إلى ص١٠٥ جـ١٩) فوجدت اسم وهب بن منبه يتردد أكثر من خمس عشرة مرة. وجاء في تفسير القصة أيضًا اسم عبد الله بن سلام، كما تردد اسمهم جميعًا في قصص أخرى، ويضاف إلى هذا التأييد ماقدمته من موازنة بين قصة آدم في تفسير الطبري وفي التوراة، وما جاء في دائرة المعارف اليهودية في وصف الحية. وكذلك قصة النملة في التفسير وفيما نقلته عن دائرة المعارف اليهودية.

بل إن من هذه القصص التي أوردوها مالا يليق بكرامة الرسل، ومنها قصص أوردها الزمخشري في تفسير سورة «ص» في قصة داود وسليمان وأنكر أن تكون صحيحة. وقد رأيت لهاتين القصتين أصلًا نقلته دائرة المعارف اليهودية عن بعض كتب اليهود. ولكنها لا تتصل بالموضوع الذي نحن فيه.

ويظهر أنه كان هناك من القصاص من لا يتورع عن نقل هذه القصص وروايتها، ويحدثون العوام بذلك في المساجد، فأنكر عليهم المفكرون من الصالحين والعلماء حتي رووا «أن علي بن أبي طالب طردهم من المساجد واستثنى الحسن البصري لتحريه الصدق»[1].

***

(١) فجر الإسلام ص ١٩٢.

الفصل السابع
قصص الحيوان في الأمثال

ليس عندنا دليل على أقدم خرافة عربية لا من شكل الخرافة ولا من معانيها. وإنما عندنا طائفة من الخرافات رويت عن الأدب الجاهلي لا ندري إن كانت من أسلوب الجاهليين ووضعهم أم من عمل الرواة، إذ أنه كان للرواة عمل كبير في تدوين الأدب الجاهلي حتى ما كان منه عصيًا على الوضع وهو الشعر. أما النثر المنسوب إلى الجاهليين فاحتمال الوضع فيه أو روايته بمعناه، أقوى، وأسلوب الأخبار غالبًا من عمل المتأخرين من الرواة، والحقائق من عمل الأقدمين. ولا تخلو هذه الأخبار من أمثال تحتفظ بشكلها الأول؛ أو من محاورة تدعو إلى احتفاظ بترتيب الجمل، أو من جمل مترابطة تحتم طبيعتها أن تبقى متماسكة على مر العصور.

وقد جاءت في كتب الأدب العربي طائفة من قصص الحيوان متفرقة في مواضع مختلفة، بعضها مع الأمثال لتفسيرها، وبعضها مستقل وله مغزى أولا مغزى له، وبعضها عربي، وبعضها منقول، ولكنها قليلة لا يجمعها كتاب واحد مثل المجموع في «كليلة»، أو الصادح والباغم مثلًا.

وكنت أود أن أكتبها تحت عنوان «طائفة من قصص الحيوان». ولكني آثرت العنوان السابق لأن القصص المتصلة بأمثال أكثر من غيرها في هذا الباب، وهي جميعًا خرافات ذات مغزى. فإذا استثنينا قصة الضبع التي حاورها أبو زياد الكلابي، وقصة أبي العنبس وحماره، كان العنوان شاملا.

وهذه هي:

١- قصة الضبع والثعلب والضب:

أو قصة المثل «في بيته يؤتى الحكم».

يقول الميداني[١]: هذا مما زعمت العرب عن ألسن البهائم، قالوا: «إن الأرنب التقطت ثمرة، فاختلسها الثعلب فأكلها، فانطلقا يختصمان إلى الضب. فقالت الأرنب: يا أبا الحِسْل[٢] فقال: سميعًا دعوت. قالت: أتيناك لنختصم إليك. قال: عادلًا حكمتما. قالت: فاخرج إلينا. قال: في بيته يؤتي الحكم. قالت: إني وجدت ثمرة. قال: حلوة فكليها. قالت: فاختلسها الثعلب. قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحقك أخذت. قالت: فلطمني. قال: حر انتصر. قالت: فاقض بيننا. قال: قد قضيت»..

«فذهبت أقواله كلها أمثالًا».

وهذه القصة موضوعة لغاية خلقية، فهي من قصص المواعظ وليس من الضروري أن تكون الأخلاق التي فيها مسلمة أو عامة. فإن الثعلب عندما بغى لنفسه الخير كان معتديًا، ولكنها في الوقت نفسه تشير إلى نوع من الأخلاق أشبه بأخلاق البادية فيه شيء من استخدام القوة والإيمان بها. ثم إنها تجري على نمط من الإيجاز بمثل حكم أكثم بن صيفي. ونستطيع عندئذ أن ننسبها إلى الجاهليين ويمكن أن تنقل من عصر إلى عصر من غير أن يدخلها كثير من التغيير.

(١) جـ ٢ ص ١٣.

(٢) الحسل: ولد الضب حين يخرج من بيضه.

وقد رأيتها في أمثال الميداني[1] غير منسوبة إلى عصر، لكن روايته لها تفهم أنها جاهلية عندما قدم لها بقوله: «هذا مما زعمت العرب عن ألسن البهائم». وقد أورد بعدها قصة تشبهها في الحوار والإيجاز لا في المغزى الخلقي - عن خالد بن الوليد، وتشبيه قصة خالد بن الوليد بهذه القصة أن هذه أصل، وقصة خالد بعدها. وخالد من أبطال المسلمين في الصدر الأول.

ثم إن هذه القصة تروى في الوسيط[2] في الكلام عن تاريخ الأدب الجاهلي. وهي منقولة هناك عن الميداني، وذكرها في الأدب الجاهلي يدل على أن صاحبي الكتاب رحمهما الله رأيا فيها ما يرجح نسبتها إلى الجاهليين. وقد رويت في كتاب العقد الفريد في كتاب « الجوهرة في الأمثال» تحت عنوان: « أمثال روتها العلماء» كما يأتي:

«خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة فقال: «يا أهل الكوفة إني وجدت مثلي ومثلكم كالضبع والثعلب: أتيا الضب في جحره فقالا: أبا جميل، قال: أجبتكما. قالا: جئناك نختصم. قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت الضبع: فتحت عيني. قال: فعل النساء فعلت. قالت: فلقطت تمرة. قال: حلوا جنيت. قالت: فاختطفها ثعالة. قال على نفسه بغي. قالت: فلطمته لطمة. قال: حقا قضيت. قالت: فلطمني أخرى. قال: كان حرًا فانتصر قالت: فاحكم الآن بيننا. قال: حدث امرأة حديثين وإن لم تفهم فأربعةٍ[3].

(١) جـ ٢ ص ١٣.

(٢) ص ١٧ طبعة ٤.

(٣) جـ ٣ ص ٥٩. رويت في كتاب الأذكياء لابن الجوزي ص ٢١٢، ورويت في أول فاكهة الخلفاء ص ٤ بالمطبعة اليمنية بمصر.

والذي يوازن بين ما روي في العقد الفريد على لسان النعمان بن بشير، وما روي في الأمثال «مما زعمته العرب عن ألسن البهائم» يرى اختلافًا قليلًا بينهما. فالضبع هنا، لا الأرنب، هي التي خاصمت الثعلب، وقد ناديا الضب: أبا جميل - لعلها تحريف: «أبا حسل» - وقد وجدت تمره - بالتاء المثناه - لا ثمرة - بالمثلثة ولعلها أنسب للجواب لما في التمر من الحلاوة.

وقد نسب «البغي»، إلى الثعلب في قصة النعمان. وختام القصة هنا وهو «حدث امرأة حديثين» إلى آخره، غير موجود هناك ولا مفهوم هنا.[1]

ونحن نعرف أن النعمان كان شاعرًا لا حكيمًا ولا قصصيًا، ونرجح أنه ساقها استشهادًا، ولهذا نرجح أن تكون جاهلية أيضًا.

والموازنة بين القصتين في الأمثال والعقد تؤكد ما قلناه من أن مثل هذه القصص النثرية التي تأتي حوارًا، في جمل قصيرة يضرب بها المثل، يلحقها من التغيير أقل مما يلحق غيرها من القصص النثرية المرسلة. ولكنها على كل حال لا تستعصي على هذا التغيير والتحوير. وهي قصة جمعت عناصر الموعظة ففيها حيوان يتكلم ويحتفظ بطباعه، ولكنه يضرب الأمثال ويضع القواعد الخلقية[2].

٢ - قصة ذات الصفا:

وهذا مثل آخر له قصة وهو: «كيف أعاودك وهذا أثر فأسك» يقول عنه الميداني[3]:

(١) نقل ابن الجوزي في كتاب الأذكياء عن أبي هلال العسكري تفسيرا لها وهو «إن لم تفهم حديثين كان ممن لا يفهم أربعة أقرب» وهو تفسير لا تؤدي إليه الألفاظ.

(٢) رويت في الأغاني جـ ٤ ص ١٥ رواية مخالفة لهاتين الروايتين قليلا.

(٣) الأمثال جـ ٢ صفحة ٦١.

أصل هذا المثل على ما حكته العرب على لسان الحية ـ أن أخوين كانا في إبل لهما، وكان بالقرب منهما واد خصيب، وفيه حية تحميه من كل أحد.

فقال أحدهما للآخر: يا فلان، لو أني أتيت هذا الوادي المكلىء. فرعيت فيه إبلي وأصلحتها! فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية، ألا ترى أن أحدًا لا يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته؟ قال: فوالله لأفعلن. فهبط الوادي، ورعى به إبله زمانًا، ثم إن الحية نهشته فقتلته. فقال أخوه: والله مافي الحياة بعد أخي خير، فلأطلبن الحية، ولأقتلنها أو لأتبعن أخي. فهبط ذلك الوادي وطلب الحية ليقتلها، فقالت الحية له: ألست ترى أني قتلت أخاك، فهل لك في الصلح فأدعك بهذا الوادي، تكون فيه وأعطيك كل يوم دينارًا ما بقيت؟ قال: أو فاعلة أنت؟ قالت: نعم. قال: إني أفعل. فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضرها، وجعلت تعطيه كل يوم دينارًا، فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالًا. ثم إنه ذكر أخاه فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي! فعمد إلى فأس فأخذها، ثم قعد لها فمرت به فتبعها، فضربها فأخطأها ودخلت الجحر، ووقعت الفأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه. فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار، فخاف الرجل شرها وندم. فقال لها: هل لك في أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت: «كيف أعاودك وهذا أثر فأسك» يضرب لمن لا يفي بالعهد. وهذا من مشاهير أمثال العرب.

قال نابغة بني ذبيان:

واني لألقى من ذوي الغي منهم ... وما أصبحت تشكو من الشجر ساهره
كما لَقيت ذاتُ الصفا من حليفها ... وكانت تديه المال غبًّا وظاهره[1]
فلما رأى أن ثمَّر الله ماله ... وأثل موجودًا، وسدّ مفاقره[2]
أكب على فأس يحد غرابها ... مذكرة من المعادل باتره[3]
فقام لها من فوق جُحر مشيدٍ ... ليقتلها، أو تخطئ الكف بادرهْ[4]
فلما وقاها الله ضربة فأسه ... وللشرّعين لا تغمضُ ناظره
فقال تعالي نجعل الله بيننا ... على مالنا، أو تنجزي لِيَ آخره
فقالت: يمين الله أفعل إنني ... رأيتك مشئوما، يمينك فاجره
أبى لي قبر لا يزال مقابلي ... وضربة فاس فوق رأسي فاقره[5]

وقد رواها الجاحظ وبين سبب قول الشعر[6]

والقصة شعرًا ونثرًا، من قصص المواعظ؛ فلها غاية خلقية والحيوان بطل من أبطالها، وهى جاهلية. ولست أرى فيها ولا في الموعظة السابقة أثرًا للنقل؛ لأن صورتها بدوية ومسرحها بدوي أيضًا. وأرى أن النابغة قد عرف هذه القصة بالبادية فنظمها في عتابه لبني مُرة.

(١) ذات الصفا: الحية.
(٢) المفاقر: وجوه الفقر، وسد مفاقره: أغناه.
(٣) الغراب: الحد. المذكرة: من جيد الحديد.
(٤) البادرة: أي اللحمة بين المنكب والعنق
(٥) فاقرة: أي داهية، أو واصلة إلى العظم.
(٦) وقصة هذا الشعر قد وردت في الخزانة (ص ٥٥٦ بولاق) وخمسة دواوين العرب ٤٧ والشعراء ٢٢ والمحاسن والمساوئ (٢: ١٣٤) والدميري (١: ٤١٦) ومروج الذهب (٢: ١٢٩) وهي مما وضعه العرب على ألسنة الحيوان.
وقد جاء الأستاذ عبد السلام هارون بالروايات كلها في تحقيقه، وفي رواية الميداني للشعر شيء من الاضطراب وغموض المعنى وهي في الجاحظ أوضح. جـ ٤ ص ٢٠٣.

٣ - قصة الذئب والشاة:

ومن أمثال العرب أيضًا: « أظلم من ذئب»[١]

يقول الميداني: قد كثر القول في أمثال العرب، وأشعار الشعراء بظلم الذئب فقالوا في أمثالهم: من استرعى الذئب ظلم، ومستودع الذئب أظلم. وكافأه مكافأة الذئب.

وأما ما جاء في أشعارهم فحكى ابن الأعرابي، أن أعرابيًا ربى بالبادية ذئبًا، فلما شب افترس سخلة له، فقال الأعرابي:

فَرَسْت شويهتي و فجعت طفلًا ونسوانًا وأنت لهم ربيب
نشأت مع السخال وأنت طفل فما أدراك أن أباك ذيب[٢]
إذا كان الطباع طباع سوء فليس بمصلح طبعًا أديب

وقال آخر:

وأنت كذئب السوء إذ قال مرة لعمروسة، والذئب غرثان مرمل[٣]
أأنت التي من غير جرم سببتني فقالت: متي ذا ؟ قال: ذا عام أول
فقالت: ولدت العام، بل رمت ظلمنا فدونك كلني، لاهنا لك مأكل

وهاتان قصتان لاقصة واحدة، إحداهما تبين «مكافأة الذئب» والثانية تبين حجة القوي والتماسه أو هي الأعذار للغدر.

وقد جاء الجاحظ بالقصة الأولى[٤] فقال: «وقد كان بعض الأعراب ربي

(١) أمثال الميداني جـ ١ ص ٣٠٢، جمهرة الأمثال على هامشه جـ ٢ ص ٥٧.
(٢) السخال: جمع سخل وهو ولد الشاة.
(٣) عمروسه: نعجه. غرثان: جائع. مرمل: نافد الزاد.
(٤) الحيوان جـ ٦ ص ٧ طبعة السامي.

جرو ذئب حتى شب، وظن أنه يكون أغنى غناء من الكلب، وأقوي على الذب عن الماشية، فلما قوي شيئا وثب على شاة فذبحها وكذلك يصنع الذئب، ثم أكل منها. فلما أبصر الرجل أمره قال:

أكلت شويهتي وربيت فينا فمن أنبـاك أن أبـاك ذيب

«وقد أنكر أناس من أصحابنا هذا الحديث، وقال: لم يكن ليألفه ويقيم معه بعد أن اشتد عظمه، ولم يذهب مع الذئاب والضباع، ولم تكن البادية أحب اليه من الحاضرة، والقفار أحب إليه من المواضع المأنوسة».

وقصة الجاحظ أطول شيئًا ما. وهي تبين اختلاف الرواة في القصة الواحدة، وقد لحق التغيير فيها كلًا من الشعر والنثر، مع الاحتفاظ بمحور القصة وهو: « الطبع يغلب التطبع».

ولكن الشعر الذي رواه الميداني، وروى الجاحظ بيتًا واحدًا منه تبدو عليه الجدة والحداثة؛ فختام القصة بالمغزى الشعري عمل لا نعهده في الجاهلية وكلمة «أديب» أحدث من هذا العصر، وكلمة «الطبع والطباع» لم يكثر استعمالهما إلا في العصر العباسي. ولا ينفي هذا أن تكون الفكرة معروفة عند العرب، فنحن نبني الشك في جاهليتها على الألفاظ والصياغة لا على المعنى.

أما القصة الثانية فظاهر من الشعر أنها جاءت في معرض التدليل أو التشبيه، ولكنها استوفت أجزاءها، وهي أيضا قصة وعظية، وإن كان الوعظ فيها مضمنًا لا مستقلًا.

وهاتان القصتان من القصص الشائعة في الأمم المختلفة في القديم والحديث ولا يعرف مصدرهما الأول.

٤ - قصة مجير أم عامر:

وشبيه بهذه الخرافة ما يحكى عند ذكر المثل «كمجير أم عامر»[١].

«كان من حديثه أن قوما خرجوا إلى الصيد في يوم حار، فإنهم لكذلك إذ عرضت لهم أم عامر، وهي الضبع، فطردوها، وأتعبتهم حتى ألجئوها إلى خباء أعرابي فاقتحمته، فخرج إليهم الأعرابي وقال: ما شأنكم؟ قالوا: صيدنا وطريدتنا. فقال: كلا، والذي نفسي بيده لاتصلون إليها ما ثبت قائم سيفي بيدي. قال، فرجعوا وتركوه. وقام إلى لقحة فحلبها، وماء فقرب منها، فأقبلت تلغ مرة في هذا، ومرة في هذا ؛ حتى عاشت واستراحت. فبينا الأعراب نائم في جوف بيته إذ وثبت عليه فبقرت بطنه، وشربت دمه، وتركته. فجاء ابن عم له يطلبه، فإذا هو بقير في بيته، فالتفت إلى موضع الضبع فلم يرها، فقال: صاحبتي والله! فأخذ قوسه وكنانته واتبعها، فلم يزل حتى أدركها فقتلها، وأنشأ يقول:

ومن يصنع المعروف مع غير أهله ... يلاقي الذي لاقى مجير أُمّ عامر
أدام لها حين استجارت بقربه ... لها، محض ألبان اللقاح الدرائر[٢]
وأسمنها، حتى إذا ما تكاملت ... فرته بأنياب لها وأظافر
فقل لذوى المعروف هذا جزاء من ... بدا يصنع المعروف في غير شاكر

ولم يذكر الميداني الزمن الذي قيلت فيه، وإن دل سياق القصة على أنها بدوية جاهلية، وفيها من أخلاق العرب حماية الجار، وإكرام الضيف

(١) أمثال الميداني جـ ٢ ص ٦.
(٢) اللقاح: جمع لقحة، الدرائر: و جمع درور، وهي الناقة كثيرة الدرو هو اللبن.

والأخذ بالثأر وترى المغزى الخلقي مضمنًا في ثنايا القصة مصرحًا به في البيت الأخير.

أما الشعر فأرجح أنه مصنوع، وأنه عباسي، فهو ضعيف، لتكرار كلمة «لها»، في البيت الثاني؛ وهذا جزاء من بدا يصنع المعروف، ليس فيه روح الشعر ولا نظمه، وكلمة «بدا»، قلقة في موضعها، يحس قارئها أنها جاءت لتكملة الوزن، وكلمة «من» في آخر الشطر الأول قلقة في هذا الموضع غير مألوفة في الشعر القوي، وهي خالية من موسيقى الشعر أيضًا.

ثم إن انتهاء الأبيات بالمغزى صورة من العمل العلمي الذي يصل إلى النتيجة العامة من الأمثلة الجزئية، وقد عرف العرب ذلك في عصور متأخرة عن الجاهلية.

٥- قصة الثعلب والعنقود:

ومن أمثالهم أيضا: «أعجز من ثعالة عن العنقود»؛ وأعجز عن الشيء من الثعلب عن العنقود.

فأصل ذلك أن العرب تزعم أن الثعلب نظر إلى العنقود فرامه فلم ينله فقال هذا حامض.

وحكى الشاعر ذلك فقال:

أيها الثعالب سلمى أنت عندي كثعاله
رام عنقودًا فلما أبصر العنقود طاله
قال هذا حامض لما رأى ألا ينالـه

أما المثل فظاهر أنه جاهلي. وأما الشعر فإسلامي؛ وربما رجح ذلك قول الميداني: «وحكى الشاعر ذلك». ثم أن النظم نفسه شبيه بنظم الحكايات

الذي بدأه أبان اللاحقي. ونحو هذه القصص عرف في مرحلة متأخرة، زمن العباسيين الذين أكثروا من الأبحر القصيرة، كمجزوء الخفيف واستخدموها في نظم الحكايات والمواعظ.

وأحس من قراءة هذه القصص أن الأصل فيها هى الأمثال، وأن القصص ثانوية بالنسبة لها، ثم أن بعض هذه القصص شعرٌ ونثرٌ معا. وقد يكون مؤلفهما واحدا، وقد يختلف كما في قصة المثل «كيف أعاودك وهذا أثر فأسك «فصاحب الأبيات هناك هو النابغة الذبياني». ولا شك في جاهلية هذه القصص ولكن الصيغة الأدبية التي بدت فيها تأثرت في خلال الزمن حتى ظفرت بالتدوين، فاستقرت على النحو الذي وصلت به إلينا.

وتلك عادة فيما يعتمد في نقله على الحافظة، إلا إذا اجتمع على نقله جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب. وقل أن يظفر بذلك أثر أدبي خال من صبغة الدين.

أمثال لقمان

وفي أمثال لقمان قصص حيوانية ذات مغزى ـ وقد جاءت في القرآن الكريم سورة باسم «لقمان»، وتحدث المفسرون عنه كما تحدثت كتب الأمثال أيضا، وأشير إليه وإلى نسوره في الشعر والنثر.

أما الشخصية التي يشير إليها القرآن فشخصية كريمة[1] فقد آتاه الله الحكمة، وكانت موعظته لابنه، مشتملة على الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالحساب وعلى صالح الأعمال.

(١) سورة لقمان آيات (١٢، ١٣ ، ١٦ ، ١٩).

وفي التفسير إضافات كثيرة إلى شخصيته، وتجمع كلها على أنه كان حكيماً وإن اختلفت في نسبه؛ وفي عمره، وفي رسالته؛ وفي جنسيته، ويغلب على أقوال المفسرين أنه كان عبدًا، وأنه كان حكيماً لا نبيا، وأنه كان من بني إسرائيل في زمن داود عليه السلام.

ومما نسب إليه من الحكم قوله: «الصمت حكمة وقليل فاعله». ويقول ياقوت في معجم البلدان في مادة طبرية: «وفى شرقي بحيرة طبرية قبر لقمان الحكيم وابنه، وله في اليمن قبر، والله أعلم بالصحيح منهما». ويروى بعضهم حديثًا عن النبي ﷺ أنه قال: «سادة السودان أربعة. لقمان والنجاشي وبلال و مهجع».

وقد جاء فى سيرة ابن هشام[1] أن النبي ﷺ لقي سويد بن صامت ودعاه إلى الله وإلى السلام: فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذى معي، فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي معك، قال: مجلة لقمان. فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها علىَّ فعرضها عليه، فقال له: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا: قرآن أنزله الله عليَّ هو هدى ونور. فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن ودعاه إلى الإسلام فلم يبعد منه وقال: إن هذا لقول حسن.

وكل ماجاء عن لقمان فيما تقدم يُكبره ويرفع من شأنه كما رفع الله من قدره في القرآن. ولكن بعض الأمثال التي وردت في الميداني تشير إلى لقمان بما يخالف ما تقدم.

جاء عنه: «آكل من لقمان».

(١) جـ ١ ص ٢٦٥ من شرح الروض الأنف.

يعنون لقمان العادي – من عاد – زعموا أنه كان يتغدى بجزور ويتعشى بجزور، وهذا من أكاذيب العرب[١].

وجاء عنه أيضا عند المثل: «إحدى حظيّات لقمان» أنه لقمان بن عاد، وتصوره القصة طامعا معتديا[٢].

أما قصته عند المثل: «صُغراهنَّ شُراهن»[٣] والمثل «طال الأبد على لبُد»[٤]. فتقول انه ابن عاد أيضا والقصة عند هذا المثل عن الميداني: أن «لبُد» آخر نسور «لقمان بن عاد» وكان لقمان قد عُمِّر عمر سبعة أنسر، وكان يأخذ فرخ النسر فيجعله في جوبة – نقرة – في الجبل الذي هو في أصله فيعيش الفرخ خمسمائة سنة أو أقل أو أكثر، فإذا مات أخذ آخر مكانه، حتى هلكت كلها إلا السابع، أخذه فوضعه في ذلك الموضع وسماه «لبد»، وكان أطولها عمرا. فضربت العرب به المثل.

ويتبين مما تقدم أن هناك لقمانين: أحدهما الذي يتصل بالقرآن وهو الحكيم، والثاني العربي وهو ابن عاد.

ولعل الأول منهما هو المقصود في كتب الأمثال التي نسبت إلى هذا الاسم. أما اسمه فيقول عنه «ديرنبورج Derenbourg. في كتابه خرافات لقمان الحكيم (١٨٥٠) إنه هو «بلعام Balaam»[٥] ومعنى الكلمتين «الملتهم». أصلهما لقم وبلع – ويقول إن الخرافات المنسوبة إليه متأخرة وأنها من أصل يوناني.

(١) الميداني جـ ١ ص ٥٦.
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣.
(٣) المصدر نفسه ص ٣٦٩.
(٤) شراهن أي شرهن.
(٥) بلعام: نبي أو شخصية دينية في الكتاب المقدس.

وقد طبعت الأمثال المنسوبة إليه في باريس سنة ١٨٤٧م باللغة العربية وجاء في المقدمة: أنها كتبت لغرض تعليمي وأنه ليس لها قيمة أدبية كبيرة، وليست عينًا من عيون الأدب العربي القديم، وإنما تعد كتابًا ابتدائيًا لتعليم الفرنسيين لغة العرب.

وهى إحدى وأربعون خرافة قصيرة جدا، والمغزى في آخرها، وبعضها فيه ضعف، ومن قصصها: (أسد وثعلب ص ١٠)

«أسد مرة، اشتد عليه حر الشمس، فدخل إلى بعض المغائر يتظلل بها فلما ربض أتى إليه جرذ يمشي على ظهره، فوثب قائمًا، فنظر يمينًا ويسارًا وهو خائف مرعوب، فنظره الثعلب فتضحك عليه، فقال له الأسد، ليس من الجرذ خوفي وإنما كبر على احتقاري.

هذا معناه أن الهوان على العاقل أشد من الموت.

وأسلوب هذه القصة واضح العجمة، كأول كلمتين فيها، وكلمة «تضحك» وقد يصل المغزى الخلقي إلى ما يقرب من طول القصة، كقصة «البطن والرجلان» (ص ٢٨). فالقصة في أربعة أسطر ونصف والمغزى في سطرين ونصف وأكثرها عن الحيوان.

وتعتبر خرافات لقمان الحكيم مصدرا من مصادر لافونتين.

قصص منقولة:

رأينا في بعض الأساطير الحيوانية أثر النقل عن أهل الكتاب، من ذلك أسطورة «طوق الحمامة»، «وحذر الغراب»، و«هديل الحمام» و«شبه السنور بالأسد». وسنرى فيما يأتي أثر هذا النقل في الخرافات.

نقل ابن عبد ربه في العقد الفريد في (كتاب الجوهرة في الأمثال) تحت عنوان «مثل في الرياء».[1]

«عن وهب بن منبه» قال: نصب رجل من بني إسرائيل فخا، فجاءت عصفورة فنزلت عليه، فقالت: مالي أراك منحنيا؟ قال: لكثرة صلاتي انحنيت. قالت: فمالي أراك بادية عظامك؟ قال: لكثرة صيامي بدت عظامي. قالت: فمالي أرى هذا الصوف عليك؟ قال: لزهادتي في الدنيا لبست الصوف. قالت: فما هذه العصا عندك؟ قال: أتوكأ عليها وأقضي حوائجي. قالت: فما هذه الحبة في يدك؟ قال: قربان إن مر بي مسكين ناولته إياها. قال: فخذيها فدنت، فقبضت على الحبة، فإذا الفخ في عنقها. فجعلت تقول: قعي قعي. تفسيره: لاغرني ناسك مُراءٍ بعدك أبدًا».

وأرجح أنها إسرائيلية من ذكر الراوي وهو ابن منبه، وأنه أسند نصب الفخ فيها إلى رجل من بني إسرائيل.

وتلك قصة أخرى رواها ابن عبد ربه[2] عن الشعبي - والشعبي من كبار التابعين، معاصر لعبد الملك بن مروان - جاء فيها: أن رجلا من بني إسرائيل صاد قُبَّرَةَ، فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك فآكلك فقالت: والله ما أشفى من بَرَم، ولا أغنى من جوع، ولكني أعلمك ثلاث خلال هى خير لك من أكلي:

أما الواحدة فأعلمكها وأنا في يدك، والثانية إذا صرت على هذه الشجرة، والثالثة إذا صرت على الجبل، فقال: هاتي. قالت: لا تلهفن على ما فاتك.

(١) جـ ٢ ص ٥٩ العقد الفريد.
(٢) جـ ٢ ص ٥٩ العقد الفريد.

فَخَلّى عنها. فلما صارت فوق الشجرة قال: هاتي الثانية. قالت: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون. ثم طارت فصارت على الجبل. فقالت: ياشقي، لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درة فيها زنة عشرين مثقالا. فعض على شفتيه وتلهف، ثم قال: هاتي الثالثة. قالت له: قد نسيت الاثنتين فكيف أعلمك الثالثة؟ ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك. فقد تلهفت على إذ فتك. وقلت لك لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، فصدقت: أنا و عظمي وريشي لا أزن عشرين مثقالا. فكيف يكون في حوصلتي مايزنها! وهذه القصة منسوبة إلى رجل من بني إسرائيل أيضا.

جعل بن عبد ربه القصتين تحت عنوان «مثل في الرياء»، وقد يكون ذلك منطبقا على القصة الأولى. أما الثانية فلا. ولو جعلهما تحت عنوان «مثل في الخديعة» أو حسن الحيلة لكان أدق.

وليس في هاتين القصتين طابع خاص يميزهما عن خرافات العرب أو خرافات غيرهم من الأمم. ولولا إسنادهما إلى رجل من بني إسرائيل لما عرفنا أصلهما.

وقد نقلت قصة الثيران الثلاثة منسوبة إلى سيدنا عليّ كرم الله وجهه في كتاب مجمع الأمثال للميداني[1] بعد المثل: «إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض».

قال الميداني:

يروى أن أمير المؤمنين عليًّا رضي الله عنه قال: إنما مثلي ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة كن فى أجمة: أبيض وأسود وأحمر، ومعهن فيها أسد فكان لا يقدر

(١) جـ ١ ص ١٧.

منهن على شيء لاجتماعهن عليه، فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لا يدل علينا فى أجمتنا إلا الثور الأبيض فإن لونه مشهور، ولوني على لونكما، فلو تركتمانى آكله صفت لنا الأجمة. فقالا دونك فكله، فأكله. فلما مضت أيام قال للأحمر: لوني على لونك. فدعني آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة، فقال: دونك فكله، فأكله. ثم قال للأحمر: إني آكلك لا محالة، فقال: دعني أنادي ثلاثا. فقال: افعل. فنادى: ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض! ثم قال علىّ رضي الله عنه: ألا إني هُنْت - ويروى «وَهَنْت» - يوم قتل عثمان! رفع بها صوته.

يضربه الرجل يرزأ بأخيه.

ولكن أبا هلال العسكري يورد هذا المثل في كتابه جمهرة الأمثال[1] ويقول: «يضرب مثلا للرجل فقد ناصره فلحقه الضيم، وهو من أمثال كليلة، وتمثل به عليّ عليه السلام حين اختلف عليه، وعنى قتل عثمان رضي الله عنه.

والميداني متأخر عن ابن المقفع بأربعة قرون تقريبًا، وكان كتاب كليلة معروفا له، وكذلك كتاب جمهرة الأمثال الذي نص على أنه «من أمثال كليلة»، فكيف نسباه إلى سيدنا عليّ رضي الله عنه؟ وكيف جمع أبو هلال بين نسبته إلى سيدنا عليّ رضي الله عنه، وأنه من أمثال كليلة؟ أهذا المثل عربي أخذه ابن المقفع؟ هذا احتمال بعيد، فإنه وارد في «كليلة» في باب الأسد والثور. وهذا الباب أقدم من سيدنا عليّ رضي الله عنه؛ لأنه مما نقل عن الهند في «البانجاتانترا».

أم أنه هندي نقل إلى الفرس وعرفه العرب عنهم، وتمثل به سيدنا عليّ رضي الله عنه ثم نقله ابن المقفع عن أصله الهندي؟ وهذا احتمال لادليل عليه إلا الظن، ولكنه يصحح نسبته إلى سيدنا عليّ رضي الله عنه، وإلى ابن المقفع.

(١) هامش أمثال الميداني ص ٤٧ جـ ١.

وهناك نوع غريب من الشعر القصصي، كنا نظن أن العرب لم يقولوا فيه هو محاورة الحيوان ومساءلته، فى نظم قائم بنفسه، وعلى نمط فات المتأخرين الذين عرفوا مثل هذا الشعر عن اليونان والفرنسيين وغيرهم، فإنهم ينظمون ذلك شعرا مزاوجا من الرجز، يستقل كل بيت منه بقافيتين، ولكن هذا الشاعر أطلق القوافى فى رجزه فهو يغيرها عند انتقاله من معنى لمعنى مباين، ولا جرم أن الشعر القصصي لو نظم على هذا النحو، لأمكن منه ماظنه الأدباء غير ممكن[1]».

أما الأرجوزة فهي عن أبي زياد الكلابي[2] قال أكلت الضبع شاة رجل من الأعراب فجعل يخاطبها ويقول:

ما أنا ياجعـار[3] من خطابك على دق العُصل[4] من أنيابك
على حذا جحرك لا أهابك
ما صنعَت شاتي التي أكلت ملأت منها البطن ثم جلت،
وخنتنى وبئس ما فعلت
قالت له: لازلت تلقى الهما وأرسـل الله عليك الحمى
لقد رأيـت رجـلا معتما[5]
قـال لهـا: كذبت يا خباث قد طال ما أمسيت في اكتراث

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي جـ ٣ ص ١٥٣.

(٢) يعده ابن النديم من الأعراب الذين كانوا يفدون على مدن العراق فيأخذ العلماء عنهم اللغة. وهو من الأعراب الذين كانوا يكتبون ويؤلفون كتبًا. وهذه القصيدة في الحيوان للجاحظ جـ ٦ ص ١٥١.

(٣) جعار، وأم جعار، وأم جعور «الضبع».

(٤) العصل: جمع أعصل، وعصلاء: وهي المعوجة الصلبة.

(٥) المعتم «المكتهل» ولعلها تعتذر عن أكلها لشاته بأنه رجل عجوز لاحاجة له في الادخار.

أكلت شاة صبية غِراث[1]

قالت له: والقول ذو شجون أسهبت في قولك كالمجنون
أما ورب المرسل الأمين لأفجعَن بعِنزك[2] السمين
وأمه وجحشه القرين حتى تكون عقلة العيون

فتوعدها فسخرت منه، ولكنه ظفر بها فقتلها ثم شواها.

ومحاورة الحيوان أو مساءلته قد جاءت في شعر الفرزدق، «وأطلس عسال» وفي محاورة الذئب للشاة قبل أن يأكلها، ومحاورة الحية ذات الصفا وفى «قصة عدى بن زيد»، والجديد فيها هو نوع النظم.

وتلك قصة أخرى من عمل الخيال: للتسلية أو للتهكم والسخرية:

روى الأغاني[3] عن الرواة قال إن بشارا جاء إلى أصدقائه يوما، فقال له أحدهم: مالك مغتماً؟ فقال: مات حماري فرأيته في النوم فقلت له: لم مت؟ ألم أكن أحسن إليك؟ فقال:

سيدي خذ بي أتانا عند باب الأصبهاني
تيمتني ببنان وبدل قد شجاني
تيمتني يوم رحنا بثنا ياها الحسان
وبغنج ودلال سل جسمي وبراني
ولها خد أسيل مثل خد الشنفران
فلذا مت ولوعشـ ـت إذا طال هواني

(١) غراث «جياع».
(٢) العنز: شاة أو خروف أو حمل.
(٣) الأغانى جـ ٣ ص ٢٣١.

فقال له سائله: ما الشنفران؟[1] قال: ما يدريني؟ هذا من غريب الحمار فاذا لقيته فاسأله.

وقد رواها المسعودي[2] لأبي العنبس أحد شعراء المتوكل، وكان شاعرا يضحك الخليفة ورجال الدولة، ويغشى مجالسهم فيطربهم، وقد ينال بفكاهاته أو سخريته ومزاحه بعض الحاضرين، فيغيظه ويوجعه.

ذكر المسعودي أن البحتري أنشد المتوكل قصيدة في مدحه مطلعها:

عـن أي ثـغـــر تـبـتـســـم

فسخر منها أبو العنبس، وأنشد قصيدة على رويها ووزنها يهجو فيها البحتري ويسبه ويتهكم بشعره، فتغيظ البحتري، وضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه، وقال: ادفعوا لأبي العنبس عشرة آلاف در هم. وكان الفتح بن خاقان وزير المتوكل حاضرًا فقال: ياسيدي، البحتري الذي هجى وأسمع المكروه ينصرف خائبًا! فقال المتوكل: ادفعوا للبحتري عشرة آلاف. واستمروا في هزلهم. ولم ينفع البحتري جده واجتهاده وحزمه. ثم قال المتوكل لأبي العنبس: أخبرني عن حمارك ووفاته وما كان من شعره والرؤيا التي أريتها. قال: نعم. يا أمير المؤمنين، كان حماري أعقل من القضاة، ولم يكن له جريرة ولا زلة، فاعتل على غفلة فمات، فرأيته في النوم فقلت له: يا حماري، ألم أبرد لك الماء، وأنق لك الشعير، وأحسن إليك جهدي؟ فلم مت على غفلة؟ وما خبرك؟ قال: لما كان في اليوم الذي وقفت فيه على فلان الصيدلاني تكلمه في كذا وكذا، مرت بي أتان حسناء

(١) «الشنفراني» في معاهدة التنصيص جـ١ ص ٩١ وفي بعض نسخ الأغانى (الشيغران) بالياء والغين.

(٢) مروج الذهب جـ ٤ ص ٤٣.

فرأيتها، فأخذت بمجامع قلبي فعشقتها واشتد وجدي بها، فمت كمدًا متأسفًا. فقلت له: ياحماري، فهل قلت في ذلك شعرا؟ قال: نعم، وأنشدني:

هام قلبي بأتان عند باب الصيدلاني
تيمتني يوم رحنا بثنایاها الحسان
وبخد ذی دلال مثل خد الشنفراني
فبها مت ولوعشـ ت إذا طال هواني

فقلت: ياحماري، ما الشنفراني؟ قال: هذا من غريب الحمير. فطرب المتوكل، وأمر الملهين والمغنين أن يغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار، وفرح في ذلك اليوم فرحًا شديدًا لم ير مثله. وزاد في تكرمة أبي العنبس، وأحسن جائزته.

والشبه بين شعرهما واضح، وخلاصة القصة كذلك، ولكن المسعودي أحسن سبكا من الأغاني وأكثر تفصيلا. وقد خلق للقصة في روايته جوا مرحا في مجلس الخليفة، وكانت مناسبة الشعر وغرام الحمار لهذا المجلس مناسبة ظاهرة.

وقصة أبي العنبس لم تكن بنت ساعتها كقصة بشار، ويظهر أنها كانت معروفة. إذ أن الخليفة صرفه عن البحتري إليها، وطلب منه أن يقص عليه خبر حماره ووفاته وشعره. والطلب على هذه الصورة يدل على سابق علم الخليفة بها. وقد أطربته بالرغم من ذلك. وأجاز أبا العنبس عليها.

وأرجح أن قصة الحمار شهيد الغرام واحدة خلط الرواة في نسبتها، وأرجح نسبتها إلى أبي العنبس؛ لما أضيف إليها من أنه كان مضحكا

للخليفة، ومثلها يضحك ويليق بمجلس لهو وكذلك الذي ذكره المسعودي، وأما بشار فكان ثقيل الظل حتى في فكاهته التي كان يتكلفها.

وقد حاول بعض المستشرقين[1] أن يجعل هذه القصة – من طريق غير مباشر – أثرًا من آثار اليونان في الحب العربي. فيقول: إن العرب قلدوا اليونان في فهمهم للحب وتصويرهم له، وإن هذا الهيام الذي كان يستولي على العاشقين فيسلبهم إرادتهم وعقلهم، ويثير عطف الناس عليهم لما كانوا يلقونه من آلام الحب وتباريخ الهوى، ليس إلا تقليدا لليونان، وأن العرب لما نقلوه وبالغوا فيه ظهر فيهم مثل أبي العنبس فوضع هذه القصة الغرامية، وجعل بطلها حمارا؛ للسخرية والاستهزاء من أولئك المحبين على الطريقة اليونانية.

من المعقول أن يضع أبو العنبس قصة كهذه للسخرية من المحبين الذين قتلهم العشق، وأن تكون لها غاية ومغزى. ولكن من قال إن العرب لم يظهر فيهم من قتله العشق أو تيمه! إن مثل هذا العشق مازال موجودًا. ونحن نراه ونسمع به في أوساط مختلفة وأعمار مختلفة. وسمعنا به في الأدب العربي من قبل أن يتصل العرب باليونان، وروي لنا الكثير من قصص المجنون، وجميل، وكثير، وتوبة الخفاجي. والذين ينكرون هذه الشخصيات، وحوادثها، لا يستطيعون إنكار هذه العاطفة ونتائجها، والذي يريد أن يخضع العاطفة للعقل، ويجعل آثارها مسايرة لأحكامه يخطئ، ويتجنى على الواقع؛ فلم لا يكون هذا العشق إلا يونانيا يستحق النقل من بلاد اليونان؟

(1) Von Grunebaum. Medieval Islam P. ٣١٣-٣١٢.

قصة البازي والديك

وهذه قصة أخرى رواها الجاحظ عن خلاد بن يزيد الأرقط، أحد الرواة للأخبار والقبائل والأشعار، قال:[1]

«بينما أبو أيوب المورياني جالس في أمره ونهيه إذ أتاه رسول أبي جعفر فانتقع لونه، وطارت عصافير رأسه، وأذن بيوم بؤسه، وذعر ذعرًا نقض حبوته، واستطار فؤاده. ثم عاد طلق الوجه» فتعجبنا من حاله وقلنا له: إنك لطيف الخاصة، قريب المنزلة، فلم ذهب بك الذعر، واستفزعك الوجل؟ فقال: سأضرب لكم مثلًا من أمثال الناس:

«زعموا أن البازي قال يومًا للديك: ما في الأرض شيء أقل وفاء منك. قال: وكيف؟ قال: أخذك أهلك بيضة فحضنوك، ثم خرجت على أيديهم فأطعموك على أكفهم، ونشأت بينهم، حتى إذا كبرت صار لا يدنو منك أحد إلا طرت هاهنا وهاهنا، وضججت وصحت. وأخذت أنا من الجبال مسنًا، فعلموني وألفوني، ثم يخلى عني فآخذ صيدي في الهواء فأجيء به إلى صاحبي. فقال له الديك: إنك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم مثل مارأيت من الديوك لكنت أنفر مني».

ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تعجبوا من خوفي، مع ماترون من تمكن حالي وقد نقم عليه المنصور بعد ذلك، ومات سنة ١٥٤.

كان هذا الوزير فارسيا يخدم ملكًا عربيًا، وكان للفرس أثر عظيم في خدمة الدولة العباسية. وكان اتصالهم بالعرب وبالهند قويًا وتلك كلمة عن هذا الاتصال ومدى تأثيره في الأدب العربي عامة وقصة الحيوان خاصة.

***

(١) الحيوان للجاحظ جـ٢ ص ٣٦١. ووفيات الأعيان ١٣ ص ٢١٥.

الفصل الثامن
الفرس بين العرب والهند

اتصل العرب بالفرس في الجاهلية، وخضعوا لحكمهم زمنًا، كما جاوروهم من قديم الزمان في بلاد العراق.

ففي عهد سابور الأول «حوالى سنة ٢٤٠م»، أسس الفرس إمارة الحيرة على نهر الفرات، وكان ملك فارس هو الذي يعين على عرب الحيرة أميرا من أنفسهم، وعليهم أن يحموه من كل مغير يأتى من جهتهم[١].

وكان عرب الحيرة يحملون تجارة فارس إلى أسواق الجزيرة. وفي عهد يزدجرد الأول[٢] أرسل الملك أكبر أبنائه «بهرام» إلى عرب الحيرة لينشأ بينهم ويتعلم الصيد وينعم بجودة الهواء. وكان يعرف العربية. وفي سنة ٦٠٢ م مات النعمان الخامس الملقب بأبي قابوس - وهو صاحب النابغة الذبياني - فألغت الحكومة الفارسية نظام الإمارة، وولت من قبلها حاكمًا فارسيًا، وظل الحال كذلك حتى فتح المسلمون هذه البلاد على يد خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م.

وكان الأمراء العرب مقصد الشعراء من داخل الجزيرة، لمدحهم وأخذ جوائزهم والإقامة عندهم، والاستمتاع بنعيمهم؛ وحديث النابغة الذبياني مع النعمان معروف مشهور، ووفادة الأعشى على الحيرة مشهورة، وقد جاءت في شعره، ومن أشهر قصائده معلقته التي مطلعها:

---

(١) فجر الاسلام ص ١٨.

(٢) من سنة ٣٩٩ - ٤٢٠م.

التي مدح فيها الأسود بن المنذر أخا النعمان[1].

كما كانت لهم الحكومة بين القبائل العربية التي تجاورهم كبكر وتغلب وكان آخر صلح لهاتين القبيلتين بعد حرب البسوس على يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر. وقال الحارث بن حلزة معلقته في مجلس عمرو هذا، كما قال عمرو بن كلثوم معلقته التي يتحدى فيها عمرو بن هند، بل قيل إنه قتله في ذلك المجلس.

وكان اتصال العرب بالفرس في الحيرة داعيا إلى معرفتهم لكثير من أخلاق الفرس وعاداتهم وقصصهم وأدبهم.

ومن شعراء العرب من وفد على ملوك فارس كالأعشى. قيل إنه مدح كسرى وأخذ جوائزه. ووفود خطباء العرب على كسرى مشهور.[2]

ولا يعنينا أن تكون هذه الوفادات على الفرس موضع شك، وإنما الذي يعنينا هو أن هذا الاتصال كان موجودا، بحكم الجوار، وبسط الفرس لسلطانهم على تلك الديار زمنًا طويلًا، ومخالطتهم لأهلها، وقد ترك هذا الاتصال أثرا واضحًا في العرب في ذلك الوقت، فنقلوا بعض ألفاظهم كالمتصلة بأدوات الزينة والترف والنعيم، لما عرفوا عاداتهم وملابسهم وطعامهم إلخ.

وكان النضر بن الحارث[3] يعرف قصص ملوكهم وأبطالهم، وكان يقول

(١) جمهرة أشعار العرب ص ٩٢ السندوبي، الوسيط ص ٨١.

(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ١٦٦ «كتاب الوفود» وطبقات الشعراء لابن قتيبة ١٣٧.

(٣) الكشاف جـ ٢ سورة لقمان: تفسير قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾.

في مكة إنه يستطيع أن يحدث بحديث أولئك الملوك والأبطال، ليصرف الناس عن الاستماع إلى محمد ﷺ الذي يحدثهم بأحاديث عاد وثمود. وكان أبو زبيد الطائي من زوار الملوك، وللملوك العجم خاصة، وكان عالما بسيرها[1].

ولكني لم أجد من قصص الحيوان شيئا يحتمل أنه نقل عن الفرس في ذلك الوقت إلا على سبيل الظن، كبعض القصص التي فيها معنى التناسخ، كنسخ الماكسين ضبعا وذئبا فيما تقدم، ولكنه لا دليل يرجح النقل عنهم ولا عن الهنود.

وفى الإسلام اتصل بهم العرب وحكموهم. وأسروا منهم، وتزوجوا من نسائهم، وانتقل الفرس إلى الجزيرة أرقاء أو موالٍ، وأقام العرب في بلاد فارس حكاما، ثم سكنوها، واتصلوا بأهلها.

إنه كان للفرس أدبهم، في ذلك التاريخ الطويل. وقد نقلت إليهم أقاصيص الهند الحيوانية، وأشهر ذلك فى أيام كسرى أنوشروان العادل المحب للعلم.

ومن الطبيعي أن يعرف العرب شيئا من ذلك بحكم هذا الاتصال المتقدم. فأمهات الأولاد يحكين لأولادهن بعض القصص، والرجال يحكون لمخالطيهم من العرب بعض هذه القصص، ويضربون لهم منها الأمثال؛ ولكن الأدب الأموي خال من هذه القصص، فما السبب؟

١ - أرى أن عصبية العرب لأدبهم وإكبارهم له في عهد بني أمية، وتأثرهم آثار أسلافهم من الجاهليين، وفي الشعر بوجه خاص قد صرفتهم عن تقليد الفرس.

(١) طبقات الشعراء ص ١٣٣.

٢ – وقد عني بنو أمية بتوجيه الأدباء، والشعراء منهم خاصة، إلى الأدب السياسي والهجاء والمدح؛ لينتفعوا بذلك في تثبيت عرشهم، فلم يتركوا للشعراء فرصة التفكير فيما عند الفرس لو عرفوه.

٣ – والذين قالوا الشعر من الموالي الفرس لم يتجهوا إلى الأدب الفارسي ليأخذوا منه موضوعاتهم، بل قلدوا الطرق العربية في الشعر، وجاروا شعراء العرب في الأساليب والموضوعات والمعاني. كزياد الأعجم وأيمن ابن خريم، وإسماعيل بن يسار.

٤ – وأما النثر فكان ساذجا، وكان لخدمة السياسة والإدارة. وكانت الكتابة العربية ضيقة الميدان، لقلة الكتاب، واقتصار الموضوعات على الناحية السياسية، ووضع النظم التي يجب أن يسير عليها الولاة والأمراء.

٥ – ولم يكن ظهر في ذلك الوقت من الكتاب من ينشئ الأدب لذات الأدب، أو من يختار الناحية الرمزية لإرشاد الملوك والولاة إلى النظام الصالح، والمثل الأعلى في سياسة الرعية. وهذه من أهم أغراض الخرافات.

٦ – شغل الرواة – حتى العجم – فى ذلك الوقت برواية الأدب العربي وأخبار الأمة العربية، مجاراة لروح العصر، واهتماما بالمهم المربح من الأدب. وذلك لإيثار بني أمية لكل ماهو عربي.

وإذا كنا رأينا فيما يروى أن معاوية كان يستمع لقوم يقصون عليه كل ليلة «أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياستها في رعيتها وسائر ملوك الأمم وحروبها و مكايدها، فكم مرة كان ذلك في تاريخ معاوية؟ لا ندري. ولا ندري أيضا طريقة تلك الأخبار، أكانت رواية أم شرحا وتعليقا ودراسة».

وكان له غلمان مرتبون.. «وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقراءتها فيقرءون عليه ما في تلك الكتب من سير الملوك وأخبار الحروب ومكايدها وأنواع السياسات»[1].

والظاهر أن الخبر بعيد عن التصديق فقد أورده المسعودي على صورة فيها مبالغة «فقالوا إنه كان يجلس لأصحاب الأخبار كل ليلة بعد العشاء إلى ثلث الليل، ثم ينام الثلث الثاني، ثم يأتي أولئك الغلمان فيقرءون عليه ما في تلك الكتب». وهذا قد يحدث مرة أو مرات، ولكنه لا يمكن أن يكون كل ليلة.

ويرى جورجي زيدان «أن تلك الكتب في اليونانية أو اللاتينية وفيها أخبار أبطال اليونان والرومان. و أن الغلمان كانوا يفسرونها له بالعربية».

ربما كان الخبر مقبولا فى جملته ولكنه بعيد عن القصص الحيوانية[2]

والأدب الفارسي كان يستمتع بما نقله عن الهنود في أيام الملك العادل كسرى أنوشروان، وكان أهم ما نقله عنهم من نوع الخرافات التي اشتهرت الهند بأنها مصدر من مصادرها المهمة، لكن هذه الخرافات ظلت بعيدة غريبة عن الأدب العربي طول عهد الأمويين، ثم ترجمت في أول عهد العباسيين إلى اللغة العربية ترجمة عظيمة، ونُسي أصلها الهندي والفارسي، حتى ألقت الأبحاث الحديثة ضوءا على الأصول القديمة، وبينت شيئا من فضلها على الخرافات في القديم والحديث.

وأشهر الكتب التي تأثرت بالهند كتاب «كليلة ودمنة» وقصص «ألف ليلة وليلة» وأهم مصدر للخرافات التي ظهرت في الأدب العربي هو:

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ١ ص ٢٣١ والمسعودي جـ ٢ ص ٥٢.
(٢) تاريخ آداب اللغه العربيه جـ ١ ص ٢٣١.

البانجا تانترا «Panchatantra»

ويسمى المقالات الخمس أو الكتب الخمسة:

وهو كتاب واحد يضم خمسة فصول كل فصل منها تحت عنوان خاص[١]:

(١) «La Brouille des mis» أو التفريق بين الأصدقاء.

(٢) «L`Aquisition des Amis»أو اكتساب الأصدقاء.

(٣) «La Guerre des Corbeaux et des Hiboux» أو حرب البوم والغربان.

(٤) «La Perte de ce qu᾽on Acquis» أو ضياع الحاجة بعد الظفر بها.

(٥) «Le Danger des Actions irreflechies» أو خطر ما لا روية فيه من الأعمال.

ويظهر أن قصص: «البانجا تانترا أو الكتب الخمسة من السياسة وفن الحكم» لم تأت إلينا في شكلها الأصلي[٢] وما هو عند الأوربيين من تراجمها الآن قد كتب بعد الأولى، وعلى نمطها إلى حد ما، ولعل الأصل كان كتيبا في السياسة لتعليم صغار الأمراء.

وفي هذا إشارة إلى أنه كان هناك نسخة أولى من هذا الكتاب ضاعت وما بقي كان مجموعة أخرى بعد الأولى بزمن، ومتأثرة بها إلى حد كبير. يقول «أوبرتان» عن «البانجا تانترا» التي أشار إليها وسماها المقالات الخمس ما يأتي:

(١) Aubertin: Fables De La Fontaine P. ٢٠

(٢) Ancient India and Indian Civilization P. ٣٢٣

«وليس هذا إلا جزءا من مؤلف أتم وأوفى في ثلاثة عشر فصلا». ويؤيد ذلك ماجاء في كتاب «حكمة الهند»[١] وهو: «هناك مجموعتان مهمتان من قصص الحيوان» (Animal Fables) في الأدب الهندي هما «البانجا تانترا» (Panchatantra) و«الهيتو باديسا» (Hitopadesa).

والأولى أقدم وأغنى، وتشمل سبعا وثمانين (٨٧) قصة، والثانية ثلاثا وأربعين (٤٣) منها خمس وعشرون في «البانجا». وقد يكون تاريخ تدوين «البانجا» حوالى القرن الثانى ق. م. في كشمير كما يقول دكتور هرتل. لكن القصص فيها أقدم كثيرا، كما تدل الشواهد في المؤلفات السنسكريتية.

وقد جاء في كتاب «الهند القديمة وحضارتها»[٢] أن للبانجا تانترا الثانية محورا عاما وهو «ملك يائس من تعليم ابنيه الأميرين لغباوتهما». وأخيرا يستخدم حكيمًا برهميًا ليعلم هذين الأميرين أصول المعاملات الإنسانية.

ويستمر في تعليمها هذه الدروس ويشرح الطبيعة الإنسانية بطريق الخرافات، ويدخل قصة في أخرى بلباقة، وكثيرا ما يجعل شخصية في القصة تبدأ قصة أخرى قبل أن تنتهي السابقة. ويختم القصة بالمغزى. وكثير من هذه المواعظ اقتباسات من كتب أقدم مثل «الفيدا».

ويلاحظ أن تلك الطريقة هى التي سار عليها ابن المقفع فيما نقله وما ألفه من هذه القصص.

واذا جمعنا ما ورد فى هذه الكتب الثلاثة: حكمة الهند، والهند القديمة وحضارتها، ومقدمة خرافات لافنتين، بعضه إلى بعض وجدنا ما يأتي:

---

(١) The Wisdom of India P ٢٤٥.

(٢) صفحه ٣٢٣.

١ - أن هذا الكتاب «Pancha» لم يأت إلينا في شكله الأصلي، وأنه مسبوق بكتاب آخر.

٢ - وأن تاريخ تدوين الكتاب هو حوالى القرن الثاني ق.م أي قبل «كليلة ودمنة» بحوالى عشرة قرون.

٣ - وأن المقالات الخمس تكاد تكون أصلا صريحا للأبواب التي تشبهها عند ابن المقفع.

٤ - وأن كلا من هذه المقالات الخمس تشتمل على قصة أصلية، وقصص فرعية في كل باب. وبهذا بلغ عددها سبعا وثمانين.

٥ - وأنها قد تركت آثارا فى الأدب الهندي نفسه فكتبت «الهيتو باديسا» أو «موعظة الصديق» على نمطها، واقتبست منها خمسا وعشرين قصة من قصصها الخمس والأربعين.

ولا أدري إن كان الكتاب الهندي الذي سبق هذا الكتاب عرف بهذا الاسم أم لا. غير أن كتاب «الهند القديمة»[١] يشير إلى اسم آخر فيقول: إن «البانجا تانترا»، الجديدة مؤلف من بقايا كتاب اسمه «تانترا خايا بيكا» «Tantra Khyayika». أو مجموعة القصص القصيرة وقصص أخرى. وقد أورد منه قصة «فشنو والنسّاج» Vishnu and The weaver[٢] وخلاصتها:

أن نساجا فقيرا رأى أميرة فمرض من الحب، فصنع صديق له من صناع العربات «جارودا»، من الخشب، وهذا الجارودا Garuda هو النسر

(١) ص ٣٢٤.

(٢) فشنو هو الإله الحافظ عند الهنود.

الأسطوري الذي يركبه الإله فشنو، ولبس النساج صفات فشنو وركب النسر وطار به حتى دخل جناح الأميرة في قصرها، فاعتقدت أنه الإله فشنو، وتضرع إليها فقبلته زوجا، وأعلنت والديها أنها تزوجت فشنو وأنه صار صهرا لهما. فرضيا بعد غضب وثورة، ورأياه في الليل قادما من السماء يحمل علامات قوته، ومنها القرص والصدفة، ولم يستطيعا أن يكلماه و امتلأ الملك عجبا بهذه المصاهرة. فأثار حربا على جيرانه، فصمدوا له وحاصروا مدينته، وأحاطت به المصائب، غير أن «فشنو» المدعي هدأ الأميرة، وأعد نفسه للاشتراك في النزاع، وآثر أن يموت بطلا في الدفاع عن صهره، فأحس «فشنو» الحقيقي أنه تورط، وأبى أن يرى، «فشنو» المدعي يهلك وهو على شكله وصورته، فساعده وكان له النصر».

ومن يقرأ ألف ليلة وليلة يجد قصة الحصان الأبنوس وليدة هذه القصة وأن هذه القصة قد انتقلت عن ألف ليلة وليلة إلى أوربا. وكتبها Chaucer تشو سر مع شيء من التعديل، نقلا عن أسبانيا، في قصته The Squire's Tale، وفى «البانجا» كثير من القصص الجميلة كالأرنب الذي غلب السبع أو الفيل بذكائه وحيلته، والفأرة التي صارت قطة وأرادت أن تختار زوجا، فرأت عيبا في كل من تقدم لخطبتها من الشمس والسحاب والريح والجبل، ولم يحل في عينها إلا الفأر فاختارته[1].

وقد صورت الرجل المثالي بأنه الرجل العادي فهو خير زوج ورب بيت. وأهم فضائله الكرم والإخلاص للأصدقاء.

(١) مقدمة Eastwick لكتاب أنوار سهيلى P. IX، وقصة هذه الفتاة في كليلة في باب البوم والغربان.

وواجبات الملك واضحة فيها. فعليه أن يقاتل بشجاعة، وأن يفدي شعبه بنفسه، وأن يحمي البريء، وأن يحكم البلاد بمعرفة الوزراء.

وقد ترجمت «البانجا تانترا» في القديم[1]. فترجمت إلى الفهلوية في القرن السادس وكانت ترجمتها أصلا «لكليلة ودمنة» ثم ضاع هذا الأصل. وترجمت عن هذا الأصل إلى السريانية أيضا حوالي سنة ٥٧٠م باسم «كايلاج ودمناج» وترجمت في القرن الثامن الميلادي ترجمة عربية موسعة ترجمها ابن المقفع. باسم «كليلة ودمنة». وكانت هذه الترجمة العربية الأصل الذي ترجمت عنه إلى لغات أوربا وغيرها. ومن أهم تراجمها إلى الفرنسية الترجمة المعروفة باسم Livre des Lumiéres's ou La Conduite des Roys ترجمها دافيد ساهد David Sahid سنة ١٦٤٤م.

فاذا جاء ابن المقفع وترجم «كليلة ودمنة» كان عمله جديدا في اللغة العربية يمتاز بأنه أول مجموعة في القصص الرمزية الأخلاقية – وأكثرها عن الحيوان – وقد وفق ابن المقفع إلى أسلوبه الخاص وبيانه العالي، فظفر كتابه بالخلود، و بالترجمة إلى أكثر اللغات المعروفة، وكان فتحا جديدا في الأدب العربي[2].

***

(١) الهند القديمة وحضارتها ص ٣٢٦.

(٢) كان أبو الريحان البيروني يتمنى أن يترجم كتاب «البانجا تانترا» أيضًا. وليته فعل، فقد كان عالما بالهند وباللغة الهندية علما تاما، «مقدمة كليلة ودمنة» تحقيق الدكتور عزام نقلا عن كتاب البيروني. «ما للهند من مقوله منقولة ومعقولة».

الفصل التاسع
كليلة ودمنة

«لعبد الله بن المقفع»

أما ابن المقفع فهو أشهر كُتَّاب القصص الحيوانية في الشرق، وهو علم من أعلام البيان العربي. ولد سنة ١٠٦ هـ بالبصرة من أسرة فارسية. وكانت نشأته في البصرة، واتصاله برجال الأدب والرواية، وخاصة بعبد الحميد بن يحيى، مع حُسن استعداده، وقوة حافظته، سببا في أن يكون كاتبا من الطراز الأول.

عرف ابن المقفع بأنه قويم الأخلاق، فكان كريما بماله، وفيا لأصحابه، حريصا على الجهر بآرائه في إصلاح أحوال الناس جميعا، وكانت آثاره: «الأدب الصغير»[١] و«الأدب الكبير»[٢] و«رسالة الصحابة»[٣] دليلا على ذلك.

وكانت معرفة ابن المقفع بآداب قومه ونظمهم السياسية وحكمهم الأدبية وأشهر كتبهم في التاريخ والأخلاق معينا لحكمه ومعانيه. وقد ترجم بعض هذه الكتب. ومن أشهر ما ترجمه وأبقاه، كتابه الخالد «كليلة ودمنة».

(١) الأدب الصغير – مجموعة من الحكم الموجزة لتهذيب النفس والخلق.

(٢) الأدب الكبير – يجمع حكما وكلمات تدور حول السلطان والولاة، والصداقة والصديق.

(٣) رسالة الصحابة – رسالة وجهها إلى الخليفه – المنصور غالبا ـ يبين فيها ما يجب أن يكون من صفات الكمال في أصحابه، وخدم دولته، وما يجب علية للرعية أيضا.

وقد قيل إن ترجمة هذا الكتاب كانت سببا في قتله سنة ١٤٢هـ، لما بينه فيه من حقوق الرعية على الحاكمين. ورأى المنصور في هذا تنبيها للناس إلى المطالبة بحقوقهم، فغاظه ذلك؛ كما غاظه أن يضع ابن المقفع نفسه موضع المرشد للخلفاء إلى ما يجب أن يفعلوا. فلما اتهم بالزندقة وقتله عامل البصرة، لم يعبأ الخليفة بالقصاص من قاتله، ولا بالتحقيق في أمر قتله[1].

ويظهر من اتجاهات ابن المقفع في تأليفه أنه كان صاحب دعوة أخلاقية سياسية حرص على إذاعتها في كتبه. وخلاصتها تهذيب النفس وحسن المعاملة.

وكان فارسي النزعة فاتجه إلى آداب قومه وأخلاقهم ونظمهم فنقل عنها. فقد ترجم من الفارسية كتاب «آيين نامه» وهو وصف لنظم الفرس وتقاليدهم وعرفهم.

وترجم كتاب «خداي نامه» - وهو كتاب في تاريخ الفرس من أول نشأتهم. سماه «تاريخ ملوك الفرس» وترجم كتاب. «التاج في سيرة أنوشروان» وغير ذلك.

ونستطيع الآن أن نفهم السبب في ترجمة ابن المقفع لكتاب «كلية ودمنة»، فهو أثر من الآثار القيمة في اللغة الفارسية، وهو كتاب أدب وحكمة، فيه مواعظ وسياسة، وفيه إرشاد وتعليم، وفيه آداب سلطانية، وما يجب على الحاكم أن يتصف به من صفات؛ وما يجب على المحكومين أن يراعوه عند صِلاتهم بهؤلاء الحكام. وابن المقفع الراغب في الإصلاح، يلجأ إلى ترجمة الكتاب، ويزيد بعض الأبواب عليه، لما يرجو أن يكون فيه من الفائدة للخواص وأصحاب السيادة أولا:

(١) في كشف الظنون جـ ٢ ص ٣٢٩ أنه «توفى سنة نقله».

كتاب كليلة ودمنة

أهم كتاب فى قصص الحيوان في الأدب العربي. وأعظم ما خلفه ابن المقفع من آثاره الأدبية، ومن أكثر الكتب التي ترجمت إلى لغات أخرى غير لغتها وتركت أثرا في اللغات التي نقلت إليها.

وقد رأينا فيما تقدم أن «البانجا تانترا» تشتمل على خمسة أبواب، وبمقارنتها بالأبواب الآتية من «كليلة ودمنة» يتضح مدى التشابه بينهما:

١ – باب الأسد والثور؛ وأوله قول دبشليم الملك لبيدبا: «اضرب لى مثلا لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال».

٢ – باب الحمامة المطوقة، وفي أوله قول دبشليم للفيلسوف: «فحدثني إن رأيت، عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض».

٣ – باب البوم والغربان، وأوله قول الملك للفيلسوف «فاضرب لى مثل العدو الذي لا ينبغى أن يغتر به وإن أظهر تضرعا وملقا» ويلاحظ أن هذا العنوان في «كليلة ودمنة» مثله في «البانجا تانترا».

٤ – باب القرد والغيلم، وقد قال دبشليم للفيلسوف في أوله: «فاضرب لى مثل الرجل الذي يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها».

٥ – باب الناسك وابن عرس، وأوله قول دبشليم لبيدبا الفيلسوف: «فاضرب لى مثل الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا نظر في العواقب».

وتكاد الجمل الأولى من هذه الأبواب من «كليلة ودمنة» تكون مأخوذة بنصها من عناوين الأبواب التي تقدمت في «البانجا تانترا».

وفي بعض القصص الفرعية أيضا كقصة «المرأة التي باعت سمسما مقشورا بغير مقشور».

وقصة الحمار الذي بلا قلب ولا أذنين[١].

وقد قال ابن المقفع في باب عرض الكتاب أنه «مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث[٢]». وتسمية الكتاب بهذين الحيوانين «كليلة ودمنة»، وترجمة الكتاب إلى السريانية بهذا الاسم، قبل أن ينقل إلى العربية، دليل على أنه أجنبي عنا أيضا[٣].

وقد تتبع الباحثون أبوابه وبينوا ما نقله ابن المقفع وما وضعه، كما بينوا ما أخذه الفرس من الهند وما وضعوه.

والنسخ التي بين أيدينا فيها اختلاف. وكذلك المنظومات التي نقلت عنه، فالأبواب الهندية عدا ما تقدم هى: الجرذ والسنور، الملك والطائر فنزة، الأسد وابن آوى، اللبؤة وبلاذ وايراخت، السائح والصائغ، ابن الملك وأصحابه.

والفارسية هي مقدمة برزويه وبعثته، وباب ملك الجرذان.

ويظن أن ابن المقفع هو كاتب الأبواب الباقية، بعد المقدمة التي كتبها بهنود بن سحوان، المعروف بعلي بن الشاه الفارسي[٤].

---

(١) قصة التي باعت السمسم في صفحة ١٨٦ «كليلة ودمنة» الطبعة الخامسة عشرة. وهى الثانية في الباب الثانى من «البانجا تانترا». وقصة الحمار بلا قلب ولا أذنين في باب القرد و الغيلم ص ٢٣٦، «كليلة» هي الثانية من الباب الرابع في «البانجا تانترا»، (مقدمة ترجمة Eastwick لكتاب أنوارسهيلي "P. XIE).

(٢) ص ٥٨ باب عرض الكتاب.

(٣) ترجم من الفارسية إلى السريانية سنة ٥٧٠م باسم كليلاج و دمناج (كتاب حكمة الهند ص ٣٤٥) .

(٤) وفي كتاب ضحى الإسلام جـ١ ص ٢١٦ فصل عن هذا الكتاب جدير بالتقدير. وللدكتور=

وقد عرف كتاب «كليلة ودمنة» في الشرق والغرب، وذاعت شهرته، وترجم إلى كل اللغات المعروفة في القرون الوسطى. فتأثرت بها خرافاتها.

والفرس قد عنوا به، فنقلوه إلى الفارسية مرات، في عصور مختلفة، وقد أشار إلى هذه الترجمات كتاب تاريخ الأدب الفارسي لمؤلفه الدكتور رضا زاده شفق، أستاذ الأدب الفارسي في جامعة طهران[1].

وإذا كان الفرس يعتبرون «كليلة ودمنة» فارسية فإنهم لم يستطيعوا أن يبلغوا مبلغ ابن المقفع فى فصاحته وعلو أسلوبه، كما عجز المقلدون والناظمون لهذا الكتاب في الأدب العربي عن أن يبلغوا مبلغه.

أبواب الكتاب

أما أبواب الكتاب كما جاءت في الطبعة الخامسة عشرة بالمطبعة الأميرية سنة ١٩٣١ فهى:

١ - خطبة الكتاب؛ وفيها إشارة إلى فضل محمد علي باشا على العلوم والكتب العربية، وطبع القيم منها فى المطبعة الأميرية، ومن ذلك كتاب «كليلة ودمنة» من نسخة موثوق بها إلى حد كبير.

٢ - ثم مقدمة الكتاب، وهي التي قدمها بهنود بن سحوان المعروف بعلي بن الشاه الفارسي[2]. ذكر فيها السبب الذي من أجله عمل بيديا

= عبد الوهاب عزام مقدمة قيمة تكلم فيها عن أصول الكتاب وطبعاته المختلفة، وما فيها من زيادات ونقص وتحريف في الأبواب والعبارات والألفاظ، وأسماء الأشخاص والأماكن، وذلك في الطبعة التي نشرها من «كليلة ودمنة» منذ تسع سنوات (١٩٤١).

(١) ترجمة الدكتور هنداوي ص ١٥، ٢٨، ١٢٢، ١٢٣، ١٩٦.

(٢) هو أبو القاسم علي بن محمد بن الشاه الظاهري وكان أديبا مفاكها في نهاية الظرف والنظافة وتوفي سنه ٣٠٢ هـ (ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢١٧).

الفيلسوف الهندي، لدبشليم ملك الهند. كتابه الذي سماه «كليلة ودمنة» والسبب الذي من أجله أنفذ كسرى أنو شروان ملك فارس، برزويه رأس الأطباء، إلى بلاد الهند لأجل كتاب «كليلة ودمنة»... وذكر الذي كان من بعثة برزويه إلى مملكة الهند لأجل نقل الكتاب. وذكر فيها ما يلزم مطالِعَه من إتقان قراءته، والقيام بدراسته، والنظر إلى باطن كلامه.. وذكر فيها حضور برزويه وقراءة الكتاب جهرا، وذكر السبب الذي من أجله وضع بزرجمهر بابا مفردا يسمى باب برزويه المتطبب؛ وجعله قبل باب الأسد والثور الذي هو أول الكتاب.

٣ - والباب الثالث هو باب بعثة برزويه إلى بلاد الهند؛ أوفده كسرى أنو شروان[1] كي ينسخ هذا الكتاب العظيم، وقد فعل، وطلب من الملك أن تكتب سيرته، وعمله الجليل فى نقل هذا الكتاب وغيره، وتضاف إلى الكتاب، فكلف وزيره بزرجمهر أن يفعل ذلك ففعل، وكان من ذلك الباب الخامس.

٤ - باب عرض الكتاب أو غرض الكتاب. وهو من عمل ابن المقفع؛ بين فيه سبب اختيار العلماء لهذا النوع من القصص الحيوانية وسيلة لتعليم الأخلاق.

ذلك أنهم حين وضعوا هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير وجدوا متصرفا في القول وشعابا. وأما الكتاب فجمع حكمة ولهوا فاختاره الحكماء لحكمته، والسفهاء للهوه.

(١) من يرجع إلى تاريخ كسرى أنو شروان، يرى أنه كان مشجعا للحركة العلمية والأدبية وللإصلاح العام، وقد نقل في أيامه كثير من كتب اليونان إلى الفهلوية.

٥ - باب برزويه - ترجمة بزرجمهر بن البختكان.

وهو تاريخ حياة برزويه، وكأنه هو الذي يقصه، وفيه بيان لعمله في مداواة الناس، وموقفه من المرضى. وابتغائه الآخرة بعمله، وسعيه في طلب دين غير دين آبائه يسعده، فلم يجد، فآثر الصلاح والنسك، والزهادة في الدنيا، حتى أرسله الملك إلى بلاد الهند وانتسخ الكتاب.

٦ - ثم تأتي أبواب الكتاب، وأولها باب «الأسد والثور». وفيه بيان مثل المتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال، حتى يحملهما على العداوة والبغضاء.

٧ - وباب «الفحص عن أمر دمنة» وهو منسوب إلى ابن المقفع. وقد طلب فيه دبشليم من بيدبا أن يحدثه عما آل إليه أمر الواشي الماهر المحتال، «وهو دمنة»، الذي أفسد بين الأسد والثور.

٨ - ويليه باب «الحمامة المطوقة». وفيها حديث عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض.

٩ - ويليه باب «البوم والغربان»، وفيه مثل العدو الذي لا ينبغي أن يغتر به، وإن أظهر تضرعا وملقا.

١٠ - باب «القرد والغيلم»، وفيه مثل الرجل الذي يطلب الحاجة. فاذا ظفر بها أضاعها.

١١ - باب «الناسك وابن عرس»، وفيه مثل الرجل العجلان في أمره من غير روية ولا نظر في العواقب.

١٢ - باب «الجرذ والسنور». وفيه مثل رجل كثر أعداؤه وأحدقوا به من كل جانب، فأشرف معهم على الهلاك، فالتمس النجاة والفرج، بموالاة

بعض أعدائه و مصالحته. فسلم من الخوف وأمن، ثم وفى لمن صالحه منهم.

١٣ - باب «ابن الملك والطائر فنزة». وفيه مثل أهل الترات الذين لا بد لبعضهم من إتقاء بعض.

١٤ - باب «الأسد والشغبر الناسك» وهو ابن آوى. وفيه مثل الملك الذي يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم، أو جفوة من غير ذنب.

١٥ - باب «إيلاذ وبلاذ وإيراخت». وفيه يضرب بيدبا مثلا في الأشياء التي يجب على الملك أن يلزم بها نفسه، ويحفظ ملكه ويثبت سلطانه ويكون ذلك رأس أمره وملاكة؛ «أبا الحلم أم بالمروءة أم بالشجاعة أم بالجود».

١٦ - باب «اللبؤة والأسوار والشغبر». وضرب فيه مثلا في شأن من يدع ضر غيره إذا قدر عليه، لما يصيبه من الضر، ويكون له فيما ينزل به واعظ وزاجر عن ارتكاب الظلم والعداوة لغيره.

١٧ - باب «الناسك والضيف». وضرب فيه مثل الذي يدع صُنعه الذي يليق به ويشاكله، ويطلب غيره فلا يدركه، فيبقى حيران مترددا.

١٨ - باب «السائح والصائغ»، وضرب فيه مثلا في شأن الذي يصنع المعروف في غير موضعه ويرجو الشكر عليه.

١٩ - باب «ابن الملك وأصحابه». وقد بدأه دبشليم بقوله لبيدبا: «قد سمعت هذا المثل. فان كان الرجل لا يصيب الخير إلا بعقله ورأيه وتثبته في الأمور كما يزعمون، فما بال الرجل الجاهل يصيب الرفعة والخير، والرجل الحكيم قد يصيبه البلاء والضر. قال بيدبا: كما أن الإنسان لا يبصر إلا بعينيه ولا يسمع إلا بأذنيه. كذلك العمل إنما هو بالعلم والعقل والتثبت، غير أن القضاء والقدر يغلبان على ذلك. ومثل ذلك ابن الملك وأصحابه».

٢٠ - وآخر الأبواب باب «الحمامة والثعلب ومالك الحزين» وهو باب من يرى الرأى لغيره ولا يراه لنفسه.

وليس من المؤكد أن هذه النسخة المشهورة التي طبعتها المطبعة الأميرية مرات كثيرة. هي التي كتبها ابن المقفع[١]. فهناك نسخ مختلفة، وبعض الكتب القديمة تنقل قطعا من «كليلة ودمنة» تخالف في عباراتها هذه النسخة، وترتيب أبواب الكتاب مخالف لكتاب «نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة» لابن الهبارية. فليس فيه باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين. وباب إيلاذ وبلاذ وإيراخت سماه ابن الهباريه «هبلاروبيلار وايراخت» وفي بعض الأمثال اختلاف.

والأبواب التي عدها جورجي زيدان تختلف شيئا ما عما في النسخة المشهورة؛ فباب ملك الفيران غير موجود فيها مثلا[٢].

ويهمنا الآن أن نتحدث عن الكتاب من حيث.

١ - قصص الحيوان فيه - نرى أن أكثر أبوابه قد سميت بأسماء الحيوان وأن أكثر قصصه وردت على ألسنة الحيوان. وأبطالها من البهائم أو السباع أو الطير. حتى الأبواب التي تعتبر مقدمة كتاب غرض الكتاب لا تخلو من كثير من قصص الحيوان، تساق توضيحا لحكمة أو موعظة وتقرر مبدأ سياسيًا أو إصلاحًا اجتماعيًا، أو تبين حقا من حقوق الصداقة، أو واجبا من واجبات السلوك الإنساني ففي باب «الحمامة المطوقة» أنها وقعت هي وصاحباتها في شرك صياد، فأشارت عليهن بالتعاون، فطرن جميعا

(١) النسخة التي وجدها الدكتور عزام في أيا صوفيا بإسطنبول ونشر عنها نسخته المحققة ترجع إلى سنة ٦١٨هـ وهي أقدم نسخة.

(٢) جـ ٢ ص ١٢٢ من تاريخ آداب اللغة العربية. ومقدمة الدكتور عزام.

مرة واحدة فاستطعن أن يحملن الشبكة ويطرن في الجو، فتتبعهن الصياد فأشارت عليهن أن يتخذن طريقا فوق العمران بدلا من الفضاء ليخفي طريقهن على الصياد، فنفعتهن هذه الحيلة وأيس الصياد منهن وانصرف. فذهبت بهن إلى جرذ صديق لها ونادته باسمه ليخرج ويقطع الشبكة، فخرج وسألها عما أوقعها في هذه الورطة. فأجابته بأن ذلك قدر لا يمتنع منه شيء. وأراد أن يبدأ بقطع العقد الذي فيه المطوقة فقالت له: «ابدأ بقطع عقد سائر الحمام وبعد ذلك أقبل على عقدي فعجب من أمرها لأنها تؤثر غيرها على نفسها. فأخبرته أنها تخشى إن بدأ بتخليصها أن يمل ويكسل عن تخليص ما بقي من الحمام».

وفي هذه القصة الصغيرة فائدة التعاون وإعمال الفكر للخلاص من المأزق ثم فائدة الأصدقاء عند الشدة؛ وبيان أن الخير والشر مقدران. وفيها مثل للإيثار الذي حمل الحمامة على دعوة الجرذ إلى أن يؤخر تخليصها ويبدأ بصاحباتها.

٢ - الاستطراد من قصة إلى قصة، حتى يجتمع من ذلك عدد من القصص قد لا يرتبط بالعنوان منها إلا القليل: ففي باب «الحمامة المطوقة» قصتها في الشرك. ولكن أصل القصة غراب رأى صيادا قبيح المنظر بشبكته وعصاه فطار منه وذعر، ثم تبعه حتى نصب الشبكة ووقع الحمام فيها، ثم تبع الحمام إلى الجرذ حتى خلصهن، فرغب في مصادقة الجرذ، فأبى عليه هذه الصداقة أولا لما بينهما من العداوة. وبعد جدل طويل تصافحا، ورأى الغراب أن جحر الجرذ قريب من طريق الناس فنقله إلى مكان معتزل، له فيه صديق من السلاحف، وهو مخصب من السمك، فلما بلغ العين التي

فيها السلحفاة ذعرت منه، ثم عرفت أنه صاحبها، وأخبرها الغراب بقصة الجرذ مع الحمام فعجبت من عقل الجرذ ووفائه. وسألته عما ساقه إلى هذه الأرض؟ فحدثها بإخباره لما كان في بيت الناسك وجاءه ضيف، وكان الفأر يثب إلى سلة الطعام والناسك يصفق بيده ليطرده، فظن الضيف أن الناسك يسخر منه، فأخبره أنه إنما يفعل ذلك لينفر جرذا عن سلة الطعام، وأنه ضاق به ذرعا. فقال له الضيف لقد ذكرتني قول الذي قال«لأمر ما باعت هذه المرأه سمسما مقشورا بغير مقشور» فسأله الناسك عن القصة. فقال له: نزلت برجل ضيفا وبت عنده فسمعته يقول لامرأته في آخر الليل إنه سيدعو رهطا ليأكلوا عنده. فعجبت من ذلك وليس عنده فضل عن عياله، وهو لا يبقي شيئا ولا يدخره.

فأخبرها زوجها أن الجمع والادخار ربما كانت عاقبته كعاقبة الذئب[1] وقص عليها قصة الرجل القانص الذي رمى ظبيا فاعترضه خنزير بري وهو راجع به إلى منزله، فضربه بسهمه لكن الخنزير أدركه فضربه ضربة قاتلة فوقعا ميتين. فأتى عليهم ذئب، ففكر في أن يبدأ بوتر القوس، ويدخر الرجل والظبي والخنزير. فلما انقطع الوتر أصابه طرف القوس في حلقه فمات. فعلمت الزوجة أن الجمع والادخار وخيم العاقبة؛ وكان عندها أرز وسمسم فأخذت تعد العدة للضيوف. وقشرت السمسم ونشرته في الشمس ليجف فجاء كلب فعاث فيه، فاستقذرته المرأة وقايضت به سمسما غير مقشور، مثلا بمثل. فقال رجل رآها تفعل ذلك: لأمر ما باعت هذه المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور.

(١) هذه القصة وقصة السمسم موجودتان فى الباب الثاني من كتاب البانجا تانترا (مقدمة أنوار سهيلي ترجمة Eastwick).

ثم يعود الحديث على لسان الجرذ للسلحفاة والغراب، فيخبرهما أنه لما حفر ضيف الناسك جحر الفأر وجد كيسا فيه مائة دينار، فأخذها الضيف وأخبر الناسك أن الجرذ سيصاب بالعجز؛ لأنه ما كان يقوى على الوثوب إلا بهذه الدنانير، وكان ما ظنه ضيف الناسك.

وأخبر الجرذ السلحفاة والغراب أن الجرذان التي كانت معه انصرفن عنه، لما رأين عجزه عن أن يحضر لهن من السلة ما كان يحضر من الطعام. ففكر في أن يسترد بعض الدنانير عسى أن يراجعه بعض أصدقائه. فشعر به الضيف، فضربه على رأسه ضربة موجعة، وكرر المحاولة وتكررت الضربات، فكره المال كرها شديدا، وترك بيت الناسك إلى البرية. وفي ذلك المكان جاءت اليه المطوقة، وصادقه الغراب وحمله إلى السلحفاة.

ولما فرغ الجرذ من كلامه حدثته السلحفاة بكلام رقيق، وأثنت على كلامه و ساقت كثيرا من الأمثال والحكم.

وجاءهم فى هذا المكان ظبي فر من الصيادين فخافوا منه أولا، ثم أنسوا به وأقام معهم. ثم غاب يوما فأرسلوا الغراب لينظر، فرآه في حبائل قانص. فأسرع الجرذ إليه ليقطع الحبائل، ولحقت بهما السلحفاة، ووافاهم الصياد عند انتهاء الجرذ من قطع الحبائل، فعدا الظبي، وطار الغراب، واختفى الجرذ، ولم يبق إلا السلحفاة، فربطها القانص. ففكروا في تخليصها، بأن يقع الظبي بمنظر القانص كأنه جريح ويحط الغراب عليه، فإذا طمع القانص في إدراكه جرى ووقع ثانية والغراب فوقه، حتى يبعداه عن السلحفاة، وفي أثناء ذلك يقرض الجرذ حبالة السلحفاة ويهرب بها، ففعلن، ثم ينس القانص من الظبي، فعاد إلى السلحفاة فلم ير إلا حبائله مقطعة؛ فقال

هذه أرض جن أو سحرة، وخرج منها، واجتمع الغراب والظبي والجرذ والسلحفاة في عريشهم سالمين آمنين كأحسن ما كانوا عليه.

فبطل الباب شيء غير «الحمامة المطوقة»، قد يكون الغراب أو الجرذ؛ وقد اجتمع من القصص الاستطرادية ما يزيد على ست: كالغراب مع الجرذ، والجرذ في بيت الناسك، وقصة الذئب الذي مات بسبب طمعه ورغبته في الادخار وقصة السمسم المقشور بغير المقشور، وقصة التجاء الظبي إلى هؤلاء وصداقتهم له الخ، ثم قصة وقوع السلحفاة في شرك القانص وقصة تخليصها. وربما كانت القصص أكثر ارتباطا بالفكرة الخلقية في هذا الباب منها بالعنوان.

وإذا رجعنا إلى باب الأسد والثور وجدنا فيه من القصص الاستطرادية ما يزيد على خمس عشرة قصة، بعضها قصير وبعضها طويل، وقد لا يرتبط بعضها ببعض إلا برباط الاستطراد. وهذا الاستطراد قد ينسي القارىء القصص الرئيسية. وكثيرا ما يجد نفسه في حيرة لا يدرى كيف تجمعت هذه القصص، ولا يستطيع أن يتذكر الصلات التي بينها لضعفها، ويقلب الصفحات التي مضت ليستعيد أصل الحكاية ويرى كيف تطورت. وقد يمل هذا النوع من الحكايات.

ولولا أسلوب بن المقفع الذي يرضي الخاصة ومحبي البلاغة لضاق به الخواص أيضا.

وهذا يخرج ابن المقفع عن أن يكون قصصيا من الطراز الذي يملك نفوس سامعيه، ويحملهم على الاستغراق في قصصه.

ومما يثقل على القارئ أن ابن المقفع جعل نفسه واعظا أو خطيبا أو حكيما في كل قصصه، فتحدث ما استطاع عن الأخلاق والفضائل

والعيوب الشخصية والعامة، حتى كان ينسى القصة ويستمر صفحة أو أكثر في مواعظه.

٣ - النظام الذي بني عليه القصص في هذا الكتاب هو أن يبدأ الملك دبشليم - فيما عدا الباب الأول - بقوله للفيلسوف «عرفت هذا المثل»، مشيرا إلى ماسبق في الباب الذي قبله، أو عرفت مثل كذا فاضرب لي مثل كذا، فيجيب الفيلسوف أو بيدبا - بقول عام يشبه أن يكون حكمة، لا يخرج في معناه عما سأل عنه الملك، ويشير إلى القصة، فيقول له الملك: «وكيف كان ذلك». فيقول الفيلسوف: «زعموا» ثم يأخذ في سرد القصة؛ ولتأخذ لذلك مثلا أول باب «الحمامة المطوقة».

«قال دبشليم الملك لبيديا الفيلسوف»: قد سمعت مثل المتحابين كيف قطع بينهما الكذوب، وإلى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك. فحدثني إن رأيت؛ عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم، ويستمتع بعضهم ببعض.

قال الفيلسوف: إن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئا؛ فالإخوان هم الأعوان على الخير كله، والمؤاسون عندما ينوب من المكروه. ومن أمثال ذلك مثل الحمامة المطوقة والجرذ والظبي والغراب. قال الملك وكيف كان ذلك؟

قال بيدبا: زعموا أنه كان بأرض «سكاوندجين» عند مدينة داهر، مكان كثير الصيد»... ويستمر في قصصه عن الحمامة والغراب والجرذ والسلحفاة والظبي حتى ينتهي كما قدمنا.

٤ - يلاحظ أن الأبواب الأولى طويلة والاستطراد فيها كثير فباب «الأسد والثور» من صفحة ٩١ إلى ١٥٣ - «والحمامة المطوقة» ١٧٧ - ٢٠٠. «والقرد والفيلم» من ٢٠٠ - ٢٢٢ ثم تأخذ الأبواب في

الايجاز بسبب قلة الاستطراد، وبعضها لا يتجاوز ثلاث صفحات، كتاب الناسك وابن عرس والناسك والضيف.

ولكن ابن المقفع يمتاز بأنه:

١ - أول من طرق هذا النوع فى الأدب العربي ونجح فيه نجاحا عظيما.

٢ - وأنه قصصي ممتاز في القصص القصيرة التي يقصها استطرادا.

ولو رأينا قصصه منفصلا بعضها عن بعض. واستقلت بعناوين لكانت خيرا.

٣ - وأنه حكيم أو فيلسوف أخلاقي، يجيد الحديث عن الفضائل والرذائل ويحللها ويشرح مضارها أو منافعها للناس بطريقة أدبية عالية، وقد يزيد على القدر المناسب للقصة الأصلية، فينقلب ذلك عيبا في القصة، فقد جاء في باب «الأسد والثور». أن كليلة نصح دمنة عندما أراد الاتصال بالأسد فقال له: «فإني أخاف عليك من السلطان فإن صحبته خطرة، وقد قالت العلماء: إن أمورا ثلاثة لا يجترئ عليهن إلا أهوج. ولا يسلم منهن إلا قليل؛ وهي صحبة السلطان، وائتمان النساء على الأسرار، وشرب السم للتجربة. وإنما شبه العلماء السلطان بالجبل الصعب المرتقى، الذي فيه الثمار الطيبة، والجواهر النفيسة، والأدوية النافعة؛ وهو مع ذلك معدن السباع والنمور والذئاب وكل ضار مخوف، فالارتقاء اليه شديد والمقام فيه أشد[1]».

٤ - وهو صاحب أسلوب من الطراز الأول في الأدب العربي. يعني بالمعنى، ويختار من الألفاظ أشرفها وأبعدها من الابتذال، ويزهد

(١) ص ١٠١.

في الصناعة اللفظية إلا ماجاء عفوا، ويرتب المعاني على طريقة المناطقة، مع العنايه بتوضيحها والوفاء بها، من غير حشو ولا فضول؛ ويغلب عليه تنويع العبارة، وتقطيع الجمل، والمزاوجة بين الكلمات، أما الحكم المأثورة والأمثال السائرة فكثيرة في كتابه هذا. وإذا كان طبع ابن المقفع ميالا إلى الحكمة والنصيحة فإن كتاب «كليلة ودمنة» كان أصلح ميدان لبث هذه الحكم والأمثال.

وقد تقرأ الباب الطويل من «كليلة ودمنة» فلا تعثر فيه على سجعة مستكرهة، أو ازدواج متكلف، أو تقفية نابية. وكان يميل إلى التقسيم في التعبير، ويربط بين أجزاء الفقرة المتعددة الجمل برباط من التسلسل المنطقي على أن إيثاره للايجاز قد يؤدى به الى الغموض، حتى تحتاج الفقرة إلى قراءتها أكثر من مرة كي تفهم كقوله[1] «وقد كان يقال: إن من العجب أن يطلب الرجل رضا صاحبه ولا يرضى، وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط. فإذا كانت الموجدة عن علة كان الرضا موجودا والعفو مأمولا؛ وإذا كانت عن غير علة انقطع الرجاء؛ لأن العلة إذا كانت الموجدة في ورودها كان الرضا مأمولا في صدورها».

وقد يميل الى الأساب أحيانا كقوله[2]: «وقد قيل لاخير في القول إلا مع العمل، ولا في الفقه إلا مع الورع ولا فى الصدقة الا مع النية، ولا فى المال إلا مع الجود، ولا في الصدق إلا مع الوفاء، ولا في الحياة إلا مع الصحة، ولا في الأمن إلا مع السرور».

(١) باب الأسد والثور ص ١٢٩.
(٢) ص ١٤٤.

كما يستعين على توضيح معانيه بالتشبيه الجيد كقوله[1]: «واعلم أن الأدب يذهب عن العاقل الطيش ويزيد الأحمق طيشا؛ كما أن النهار يزيد كل ذي نظر بصرا، ويزيد الخفاش سوء نظر على نظره».

وقوله في قلة المال[2]: «ما الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال؛ ووجدت من لا مال له إذا أراد أمرا قعد به العدم عما يريده، كالماء الذي يبقى في الأوديه من مطر الشتاء، لا يمر إلى نهر ولا يجري إلى مكان، فتشربه أرضه. ووجدت من لا اخوان له، لا أهل له، ومن لا ولد له لا ذكر له، ومن لا مال له لا عقل له، ولا دنيا ولا آخرة له؛ لأن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه، فإن الشجرة النابتة في السباخ المأكولة من كل جانب، كحال الفقير المحتاج إلى ما في أيدي الناس. ووجدت الفقر رأس كل بلاء، وجالبا إلى صاحبه كل مقت، ومعدن النميمة. ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنا، وأساء الظن به من كان يظن فيه حسنا، فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعا. وليس من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير ذم، فإن كان شجاعا قيل أهوج، وإن كان جوادا سمي مبذرا، وإن كان حليما سمي ضعيفا، وإن كان وقورا سمي بليدا».

٥ - وهو أديب الخاصة: كان ابن المقفع يكتب أدبه للخاصة من الحكماء والعلماء والأعيان. وسبب ذلك أنه قد نشأ نشأة أرستقراطية فكان أبوه واليا للخراج، وهو عمل عظيم عندئذ. وكان هو عالي النفس بعيد الهمة وثابا إلى العلا؛ وكان ولاؤه وولاء أبيه في آل الأهتم من أشراف تميم، كما كان اتصاله

(١) ص ١٤٥.
(٢) ص ١٩٠.

بالأعيـان في دولـة بني أميـة وفي دولة بني العباس. فكان ذلك كله سـببا في أن يفهـم حسـنات الخـواص وعيوبهم. وكانت نفسـه نزاعـة إلى الإصلاح ميالة إلى التعمق في دراسة الحياة الاجتماعية والنظم السياسية، ترى ذلك في اتجاهاته عند اختيار موضوعاته الأدبية للترجمة أو للانشـاء[1]. ولا يطعن في هذا أنه ترجم «كليلة ودمنة». وهى قصص ترد على ألسـنة الحيوان فيسـارع إلى قراءتهـا أهل الهزل من الشـبان،؛ إذ أنه قـد بين في باب عرض الكتاب ما يجـب على قارئه من تدبر لمعانيه، واسـتبطان لقصصه، وعمل بما ترمي إليه، ووقـوف عند كل مثـل وكلمة، وإعمال الروية فيها ليصل إلى الغرض الرابع من الكتاب «وهو الأقصى وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة».

ومن أجل هذا كان أسلو به عاليا.

ومما يتصل بما قدمناه ما قيل في سبب ترجمة ابن المقفع لهذا الكتاب. قيل إنه ترجمه وأراد به وعظ المنصور، لما رأى من شـدته وبطشـه و احتكامه إلى السيف في شأن كثير من الناس. ورأى أن رسالة الصحابة التي خاطب فيها أمير المؤمنين – المنصور – لم تؤت ثمرتها، وأعجبه في الكتاب أنه يشبه بيدبا مع دبشليم، فيجب عليه النصح للملوك كما وجب على بيدبا.

كان ابـن المقفـع أول من أحـدث هذا النوع مـن الأدب في اللغة العربية ومـازال إلى الآن خير من كتب هذا النوع في اللغات الشرقية ويعتبر واحدا مـن ثلاثة اشـتهروا أكثـر من غيرهـم في بـاب الخرافات، أولهم أيسـوب، وثانيهم ابن المقفع، وثالثهم لافونتين.

(١) ضحى الإسلام جـ١ ص ٢١٦.

مقلدوه في القرن الثاني

وقد أحدث نشاطا فيمن جاءوا بعده من أدباء العصر العباسي، فاتجهت أنظارهم إلى هذا النوع من القصة؛ ولكنهم لم يبلغوا مبلغ ابن المقفع، أو ضاعت آثار هم فلم يسعدوا بما سعد به من الشهرة في هذا الباب[1] «ومنهم أبو سهل الفضل بن نوبخت الفارسي وقد خدم المنصور وابنه المهدى»، فاذا صح هذا كان كتاب ابن المقفع سريع الثمرة؛ إذ الظاهر أن أبا سهل كان معاصر اله. وقد روى ابن النديم في الفهرست[2] أنه كان صاحب الفضل في خزانة الحكمة أيام الرشيد، وأن له عدة كتب نقلها من الفارسية إلى العربية ليس بينها نظم «كليلة ودمنة». ولكن كشف الظنون[3] في عرض كلامه عن هذا الكتاب يقول: ثم نقله من الفارسية إلى العربية عبد الله بن هلال الأهوازي ليحيى بن خالد البرمكي في خلافة «المهدي سنة ١٦٥ هـ، ونظمه أبو سهل بن نوبخت الحكيم ليحيى بن خالد وزير المهدي والرشيد. فلما وقف عليه أجازه بألف دينار»، فاذا صح هذا كان عمله أول نظم لهذا الكتاب عرف في تاريخ الأدب العربي. ونظمه أبان بن عبد الحميد للبرامكة أيضا كما نظمه على بن داود، كاتب زبيدة بنة جعفر زوج الرشيد. و نظم بعضه بشر بن المعتمر[4]. وكل هذه المنظومات ضاعت إلا الأخيرة، فقد رواها الجاحظ وليس فيها شيء من قصص الحيوان،

(١) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ١٣٢.
(٢) ص ١٧٤.
(٣) جـ ٢ ص ٣٢٩.
(٤) جـ ٦ ص ٩٢ الحيوان للجاحظ. انظر ترجمته في ذيل ص ١٠٦ من البيان والتبيين شرح السندوبي.

وكل ما فيها إشـارات إلى عجائبه وطباعة و نظم سهل بن هارون كتابا على مثاله سـماه «ثعله وعفراء»[1] قلده في أبوابـه وأمثاله. «وذكره ابن النديم في البلغـاء»، قال إنه شـاعر مقل، وعده في الشـعراء والكتـاب، وقال إنه كان يعمل الأسـمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم، هو وعبد الله ابن المقفع وعلى بن داود كاتب زبيده وله كتاب «النمر والثعلب».

وقال المسـعودي عنـه: «يزيد عليه – أي على «كليلة ودمنة» ـ في حسـن نظمه؛ وقد صنفه للمأمون» .. ومن كلام له في كتاب «ثعله وعفراء».

«اجعلـوا أداء ما يجـب عليكم من الحقوق مقدما قبل الذي تجودون به من تفضلكم؛ فان تقديم النافلة مع الابطاء في الفريضة شاهد على وهن العقيدة؛ وتقصـير الرويـة مـضر بالتدبـير ومخـل بالاختيـار. فليـس في نفع تحمـد به، عوض من فساد المروءة ولزوم النقيصة»[2].

كانت طريقة «سـهل»، طريقة سيدنا علي، وكذلك، قيل عن ابن المقفع، وكان عديم التكلف فيما يترجم، حتى يبدو كأنه من إنشـائه، وكان فارسـيا مثله، و من بلدته «خوز» نفسـها، وعراقي المنشـأ أيضا. أهذا هو السبب في اتجاهه إلى هذا الأدب الذي بدأه ابن المقفع؟ ربما كان ذلك[3].

ثم نظمه ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٤ هـ في كتاب «نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة».

ونظمـه القاضي الأسـعد بن مماتي المصرى المتوفى سـنة ٦٠٦ هـ لصلاح الدين الأيوبي وضاع نظمه[4]. وجاء بعده عبد المؤمن بن الحسن الصاغاني،

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٥٥.
(٢) عصر المأمون جـ٣ ص ٥٢، وأخبار سهل في الأغاني ١٨ من ٢٩ – ٦١.
(٣) عصر المأمون جـ ٣ ص ٤٨ و ٥٠.
(٤) ابن خلكان جـ ١ ص ٨٤.

من أهل القرن السابع للهجرة، فنظمه أو شيئا منه أو كتابا على مثاله، وسماه، «درر الحكم، في أمثال الهنود والعجم»[1]. ثم نظمه جلال الدين النقاش من أهل القرن التاسع. ومن نظمه نسخة في مكتبة الآباء اليسوعيين في بيروت وأخرى في المتحف البريطاني.

ومن الكتب التي ألفت في هذا الموضوع كتاب «الصادح والباغم» لابن الهبارية، وكتاب «سلوان المطاع فى عدوان الطباع» لأبي عبد الله محمد بن أبي قاسم، المعروف بابن ظفر، وكتاب «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء»، وكتاب مرزبان نامه «لابن عرب شاه». وفي كشف الظنون أن أبا العلاء المعري ألف كتابا اسمه «القائف»، على مثال «كليلة ودمنة»، وهو في ستين كراسة، ولم يتم، وأن له كتاب «منار القائف»، يتضمن تفسيره في عشرة كراريس[2].

ونظمه أبان بن عبد الحميد للبرامكة أيضا. وفي كتاب الأوراق لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي ترجمة لأبان، اورد فيها كثيرا من أخباره وأشعاره واتصاله بالبرامكة فقال[3]:

أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفر مولى بني رقاش من أهل البصرة شاعر مطبوع، مقدم في العلم بالشعر والحفظ له. قدم بغداد فاتصل بالبرامكة وانقطع إليهم، وعمل لهم كتاب «كليلة ودمنة» فحسن موقعه منهم. ويقال إنه قلب الكتاب في ثلاثة أشهر إلى الشعر، وهو أربعة عشر ألف بيت. وذكر حمدان ابنه أنه كان يصلي ولوح موضوع بين يديه، فإذا صلى أخذ اللوح فملأه من الشعر الذي صنعه، ثم يعود إلى صلاته.

(١) في ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٢١ أن هذا الكتاب لابن الهبارية وأكمله الصاغاني، ومنه نسخ خطية في فينا وميونخ.

(٢) جـ ٢ ص ١٣٣ تاريخ آداب اللغة العربية، وضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٢١.

(٣) ص ١.

ويقـول الصـولي[1]. حدثنا حماد بن إسـحاق قـال: ألزم يحيـى بن خالد البرمكـي أبان بن عبـد الحميد دارا لا يخرج منها، حتـى ينقل كتاب «كليلة ودمنة» إلى الشـعر، فوهب له عشرة آلاف دينار. قال: ويقال: إن كل كلام نقل إلى شـعر فالكلام أفصح منه إلا كتاب «كليلة ودمنة»، فقال له ابان بن عبـد الحميد، أنا أعمله شـعرا اليخف على الوزير حفظـه، فنقله إلى قصيدة عملهـا مزدوجة، عدد أبياتها أربعة عشر ألف بيت في ثلاثة أشـهر، فأعطاه يحي بن خالد عشرة آلاف وأعطاه الفضل خمسة آلاف دينار، وقال له جعفر ابـن يحيـى: ألا ترضى أن أكـون راويتك لها! ولم يعطه شـيئا. قـال فتصدق بثلث المال الذي أخذه.

وفي هـذا الخبر إشـارة إلى اهتمام البرامكة بهذا الكتـاب، وربما كان ذلك راجعا إلى تشـجيعهم العام للحركـة العلمية والأدبية في زمنهم؛ يضاف الى هـذا أن الكتاب فارسي الأصل وابن المقفع فارسي. كما كان أبان، وكما كان البرامكة أيضا، وقد يكون ما ذكر عن الفضل بن نوبخت صحيحا، ويحتمل كذلـك أن نقـل عبد الله بن هلال الأهوازي للكتاب كان بإشـارة من يحيى ابـن خالـد، وكأن يحيى جعل نظمه مباراة، وأجـاز عليها هؤلاء الناظمين، وهم من الفرس. وقد أورد الصولي منها أكثر من سـبعين بيتا[2] بعضها من المقدمـة وبعضها من «باب الأسـد والثور»، وجعلها كلهـا من هذا الباب، وقد تتبعت هذه الأبيات وأصولها في كليلة، فوجدت أن ما اختاره الصولي لم يكـن مـن موضع واحد، وأنه جمع بين الأبيات مـع اختلاف مآخذها من الكتـاب. فبـدت للقارئ مفككة؛ وقد أشـار إلى شيء من ذلك المسـتشرق

(١) ص٢.

(٢) والأغاني لم ينقل منها إلا البيتين الأولين في ترجمة أبان جـ ٢٠.

«هيوارث دن» في ذيل كتاب الأوراق عندما أورد البيت:

قال له السبع لقد سمعت وكل ما تقول قد فهمت

حيث يقول: «فالضمير فى «له» لم يتقدم مرجعه في هذه الأبيات المختارة» وقد أورد الصولي فى الكتاب نفسه[1] ما يدل على أنه اختار هذه الأبيات من أماكن متفرقة؛ وفى عبارته شيء من الاضطراب، قال أبو بكر في ختام هذه الأبيات.

«والله ما أدري. لا ما اخترت ولا ماتركت، ولو علمت حقيقة هذه القصيدة ما ضمنت ما تضمنت، لأنها قصص لا يحسن بعضه إلا ببعض والإحسان فيها قليل. فقد أضربت عن ذكرها والاختيار منها. وفيما حكينا مما ذكرناه منها غنى وكفاية».

وأحب أن أورد بعض الأبيات ومأخذها لنرى نوع الشعر الذي نظمه أبان ـ ومقدار تصرفه. ونتخذ هذه الأبيات أساسا للمقارنة عند الكلام على نظم ابن الهبارية لها.

قال أبان:

الأهل والإخوان والأعوان عند ذوى الأموال حيث كانوا
والمال هادي الرأي والمروءة وهو على كل الأمور قوة
والمال فيه العز والجمال والذل حيث لا يكون المال
وربما دعا الفقير فقرهُ إلى التي يحبط فيها أجره
فيخسر الدين كما كان خسر دنياه، والخسران مالا ينجبر
وليس من شيء يكون مدحا لذي الغنى إلا يكون برحا

(١) ص ٥٠ كتاب الأوراق.

عـلى الفقـير، ويكـون ذمـا كـذاك يدعـى و بـه يسـمى
فـإن يكن نجـدا يقولـوا أهوجُ كـذاك عنـد الحـرب لا يعـرج
وهـو إذا كان جـوادا سـيدا سـمى، للفقر، مضيعًا مفسـدا
أو يـك ذا حلـم يُقـل ضعيـف أو يـك بسـاما يقـل سـخيف

هـذه الأبيات العشرة من باب «الحمامة المطوقة»، وإن كانت موجودة في كتاب الأوراق مع غيرها من الأبيات تحت عنوان باب «الأسد والثور». وليس هنـاك أبواب باقية من نظم أبان غير هـذا الباب. والأصل الذي نقلت عنه هذه الأبيـات من كتـاب «كليلة ودمنة» جـاء في كلام الجرذ الذي هجـره إخوانه، لما ضعفت قوته عن الصعود إلى السلة لإحضار الطعام، وضعفت قوته لأن ضيف الناسك هدم جحره وأخذ منه كيسا من الدنانير؛ ظنا «أن هذه الدنانير كانت مصدر قوته»، وقد صدق ظنه، قال الفأر لما جفاه إخوانه عندئذ[1]:

«ومـا الإخـوان ولا الأعـوان ولا الأصدقـاء إلا بالمـال، ووجـدت من لامـال لـه إذا أراد أمرا قعد به العدم عما يريده؛ كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الشتاء، لا يمر إلى نهر ولا يجري إلى مكان، فتشربه أرضه».

والذي يوازن بين هذه الفقرة وبين الابيات الثلاثة الأولى يرى أن البيت الأول كالجملـة الأولى، وربما كان أبان موفقا في هـذا النظم. والبيت الثاني قد تجاوز هذه الفقرة في الشـطر الأول وعاد اليها فى الشـطر الثاني. وقوله: «وهـو قـال كل الأمـور قوة» «عكـس قول ابـن المقفع و قعد بـه العدم عما يريده، وهو مفهوم منه».

أما التشبيه – على غموضه – فليس له ذكر في أبيات أبان.

(١) كليلة ص ١٨٩.

وليس من العدل أن نتهم أبان بالتقصير إذ أن هذه الأبيات مختارات وقد يكون فيما تركه الصولي ما يساوي الموجود عند ابن المقفع، أو قد تكون الطبعة التي عندنا مخالفة للتي نقل منها أبان.

ويتضح مما تقدم:

١ – الدقة في النقل عن ابن المقفع. فهذه الأبيات الخمسة الأخيرة تكاد تساوي النثر عند ابن المقفع وإن اختلفت الألفاظ.

٢ – ليس في النظم تلك القوة التى نجس بها في نظم الحكم أو القصص إذا كان الشاعر غير مقيد بالنقل عن كتاب. وليس أبان من الضعف في الشعر إلى هذا الحد الذي نراه هنا.

٣ – لا ندري شيئا كثيرا عمن نظم هذه القصص في القرن الثاني، ولم يبق لنا من نظم أبان إلا هذه الأبيات القليلة التي تزيد على السبعين قليلا، مع أن الصولي يقرر ان منظومة أبان حوالي أربعة عشر ألف بيت».

ولو بقي لنا شيء كثير لاستطعنا الموازنة. غير أننا نستطيع أن نقرر، مما بقى لنا، إنه التزم فيها طريقة معينة في البحر والقافية، فاختار الرجز لسهولته وكثرة ما يدخله من زحافات وعلل تجعل من اليسير على الشاعر أن يجول في ميدان واسع عند اختيار الكلمات التي يؤلف منها بيته، بحيث يكون قريبا من المعنى الأصلي. واختار القافية المزدوجة التي يستطيع أن يغيرها من بيت إلى بيت. وفي هذا تيسير على الناظم أيضا، لأنه يستطيع أن يتحرر من قيود القافية الواحدة التي يكون مجال الاختيار فيها محدودا.

٤ – كان أبان أستاذا في ذلك لابن الهبارية وغيره ممن نظموا – وليس عندنا إلا نظم ابن الهبارية – وربما كانت طريقته هذه توجيها للذين نظموا العلوم، وأبان أول من استخدمها، في نظم:

«قصيدة الصيام والزكاة نقل أبان عن فم الرواة»

وليس من غايتنا أن نحبذ نظم العلوم، فإن العلوم أبعد الأشياء عن القيود الكلامية؛ ولكننا نقرر هنا ما حدث، ونحاول أن نبين فضل السابق إن كان له فضل.

وقد نظم قصص الحيوان في عصرنا هذا كثير من الشعراء فجاء أرق وألطف من نظم أبان ومن نظم ابن الهبارية. وكتب المحفوظات، وكتب القصص الحيوانية؛ كالعيون اليواقظ وآداب العرب وقصص شوقي، تشهد بأن النظم قد رق على أيدي المحدثين واستطاعوا أن يأتوا بقصائد قصصية من هذا النوع بلغوا في تجويدها حدا كبيرًا.

***

الفصل العاشر
تداعي الحيوانات على الإنسان

هذه الرسالة ألفتها جماعة «إخوان الصفاء»[1] وطبعها «فريدرخ ديتربصي»[2] في برلين سنة ١٨٧٩م، وجعل عنوانها «في تداعي الحيوانات على الإنسان عند ملك الجن».

وخلاصتها: أن بني آدم لما سكنوا الأرض وأمنوا فيها سخروا الحيوان لخدمتهم، وحبسوه في ديارهم، وفر منهم إلى البراري كثير من الحيوانات فطاردوها فيها واحتالوا لصيدها، وهم يعتقدون أنها عبيد لهم هربت وطغت. وبعث محمد ﷺ فأسلم طائفة من الجن. وبقوا كذلك حتى ولي عليهم ملك منهم اسمه «بيوراسب الحكيم»، ولقبه «شاه مردان»، وكان دار مملكته في جزيرة طيبة الهواء والتربة والأنهار والثمار، يقال لها «بلاصاغون» في وسط البحر الأحمر مما يلي خط الاستواء[3].

وطرحت العاصفة يوما مركبا، إلى ساحل تلك الجزيرة فخرج من فيه من التجار والصناع وأهل العلم، واستطابوا الحياة فيها،

(١) تألفت هذه الجماعة في القرن الرابع الهجري في البصرة. والمشهور من أمرها أنها كانت جماعة فلسفية من حيث التفكير شيعية من حيث العقيدة، ثائرة على النظام السياسي القائم؛ يريدون أن يستبدلوا به غيره، يعظمون الأنبياء والفلاسفة ورعاة الدين من كل ملة، ويمزجون في رسائلهم الفلسفة بالدين ويضمنون هذه الرسائل أكثر ماعرف في ذلك العصر من مسائل الفلسفة والرياضة والمنطق والطبيعيات والإلهيات ويحاولون نقد المجتمع ونظامه، والتفكير السائد فيه نقدًا لاذعا.

(٢) مستشرق ألماني (١٨٢١ - ١٨٨٨ م).

(٣) هذا المكان موضع مختار لكثير من كتاب القصص كما في ألف ليلة وفي حي بن يقظان.

وأخذوا يتعرضون لحيوانها، فنفر منهم، فجدوا في طلبه لاعتقادهم أنه عبيد لهم. فهرب منهم الحيوان، وشكا أمرهم إلى «بيوراسب» ملك الجن، فدعا بني الإنسان إلى حضرته وأكرم وفادتهم؛ ثم سألهم على لسان ترجمانه عما جاء بهم، فأخبروه أنهم سمعوا بعدله وكرمه، فجاءوا يطلبون حكومته وعدله، ويخاصمون عبيدهم الآبقين بين يديه. فسألهم حجتهم، فقال زعيم الإنس: لنا دلائل شرعية وحجج عقلية. وقام خطيب من الإنس من أولاد العباس رضوان الله عليه فبين تلك الحجج من القرآن، واستغفر الله ونزل.

ثم دعا الملك البهائم والأنعام للرد، فقام زعيمها وهو البغل، فبين أن الله خلق الأكوان آمنة عامرة، ثم خلق الإنسان في الأرض لعمارتها؛ وحفظ الحيوان والانتفاع به. ورد على ما جاء به الإنسي من آيات، وقال إنه ليس في شيء منها دلالة على ما زعم الناس من أنهم أرباب والبهائم عبيد. وشكا ما أصابهم من ظلم واستعباد بعد ظهور الناس على الأرض، ورفض ما يقوله الناس عن سيادتهم للحيوان.

ودعا الملك طوائف من قضاة الجن وعدولها وفقهائها، ومن الجنود والأعوان، لاستماع رأي كل من الفريقين، والفصل بينهما. وجاء كل فريق بحجته.

وخلا الملك ببعض وزرائه وقضاته وسألهم رأيهم. ورأى رئيس الفقهاء أن تكتب البهائم قصة ما تلقى من جور بني آدم، ويفتي فيها الفقهاء، وسيحكم القاضي لهم «إما بالبيع أو بالعتق أو بالتخفيف والإحسان إليهم. فإن لم يفعل بنو آدم ما حكم به القاضي، وهربت هذه البهائم فلا وزر عليها»، ووافقت جماعة الجن على ماقال، إلا صاحب العزيمة من

آل بهرام فإنه رأى أن يأمر الملك هذه البهائم والأنعام الأسيرة أن تهرب في ليلة واحدة كما هرب الوحوش. وأن تعاونها الجن في ذلك، بفك قيودها وكسر الأبواب المغلقة عليها.

ولكن قائلا منهم حذرهم عداوة الإنس وذكرهم بما جرى بين آدم و بني الجان في الدهور السالفة.

فسأله الملك أن يقص شيئا من هذا، فقص عليه قصة الخلق والعلاقة بين آدم وإبليس، وإبائه السجود له، فطرده الله من الجنة؛ فنشأت العداوة بين بني آدم و بني الجن من ذلك الوقت إلى الآن.

واستعرض تاريخ العلاقة بين الجن والإنس إلى أن بعث الله ﷺ، وأسلم بعض الجن وصلح الأمر بينهما. ثم قال حكيم الجن لقومه: لا تتعرضوا لهم ولا تفسدوا الحال بينكم وبينهم ولا تحركوا الأحقاد الساكنة ولا تثيروا العداوة القديمة المركوزة في الطبائع والجبلة، فإنها كالنار الكامنة في الأحجار تظهر عند احتكاكها.

وجمع الملك مجلس القضاء أكثر من مرة، وتحدث فيها الحيوان والناس و بين كل حجته. و عرض لحجة الآخر فدحضها. حتى قال خطيب من الحجاز إن الناس يمتازون على غيرهم بالخلود والبقاء، وعندئذ سلم الجن والحيوان بالفضل للناس:

«فأمر الملك أن تكون الحيوانات بأجمعها تحت أوامرهم ونواهيهم، ويكونوا منقادين للإنس. فقبلوا مقالته، ورضوا بذلك، وانصرفوا آمنين في حفظ الله تعالى وأمانه».

وقد ختمت الرسالة بقول إخوان الصفا.

«ونحن قد بينا في هذه الرسالة ما هو الغرض المطلوب، على لسان الحيوانات، فلا تظن بنا ظن السوء، ولا تعد مقالتنا لعبة الصبيان ومخرفة الاخوان، لأن عادتنا جارية على أن نبين الحقائق بألفاظ وعبارات على وجه الإشارات، وتشبيهات على لسان الحيوانات، ومع هذا لانخرج عما نحن فيه، عسى أن يتأمل المتأمل في هذه الرسالة، ويتنبه من نوم الغفلة، ويتعظ من مواعظ الحيوانات وخطبهم، ويتأمل كلامهم وإشاراتهم، لعله يفوز بالموعظة الحسنة. وفقكم الله أيها الإخوان لاستماعها، وفهم معانيها، وفتح قلوبكم، وشرح صدوركم، ونور أبصاركم لمعرفة أسرارها، ويسر لكم العمل كما فعل بأوليائه وأصفيائه وأهل طاعته، إنه على ما يشاء قدير، وهو حسبنا ونعم النصير».

(١) تضمنت هذه الرسالة كثيرا من آراء اخوان الصفاء في الخلق منها. أن البهائم والجن أقدم من الإنسان. وأن الله سبحانه و تعالى خلق كل شيء على صورة مخصوصة لحكمة، كما بين ذلك زعماء الحيوان[1]، وأن من يعيب الصنعة فقد عاب الصانع، وقد ورد في قول زعيم البهائم: «تجد كل حيوان جعل الله له من الأعضاء والمفاصل والأدوات بحسب حاجته إليه، لجر منفعة أو دفع مضرة، وإلى هذا المعنى أشار موسى عليه السلام في سورة طه وقال: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[2]».

(٢) وفي هذه الرسالة صورة من علم إخوان الصفا بطبائع الحيوان وصفاته ومساكنه، والأمثلة على هذا كثيرة منها ما جاء في حديث ملك

(١) ص٥.
(٢) ص ٧، ٨، ٩.

النحل إذ يقول[1]: «ومما خصنا به وأنعم به علينا أن جعل خلقة صورتنا وهياكلنا وجميل أخلاقنا؛ وحسن سيرتنا، وتصاريف أمورنا، عبرة لأولي الألباب، وآية لأولي الأبصار، وذلك أنه خلق لى خلقة لطيفة، وبنية نحيفة، وصورة عجيبة. بيان ذلك أنه جعل بنية جسدي ثلاث مفاصل محزوزة فجعل وسط جسدى مربعًا مكعبا، ومؤخر جسدي مدمجا مخروطا، ورأسى مدورًا مبسوطا، وركب في وسطي أربعة أرجل ويدين، متناسبات المقادير كأضلاع الشكل المسدس في الدائرة، لاستعين بها على القيام والقعود والوقوع والنهوض، وأقدر أساس بناء منازلي و بيوتي على أشكال مسدسات مكتنفات كي لا يدخلها الهواء فيضر بأولادي أو يفسد شرابي.

ومن الأشياء العجيبة وصفهم للتنين والعنقاء[2]. وعلمهم العظيم بصفات الناس وأعمالهم وصفات بلادهم، كما جاء في خطاب الخطباء من بني آدم في أكثر من موضع.

(٣) وهم متأثرون بالفلسفة اليونانية ومن ذلك ما جاء على لسان فيلسوف من فلاسفة الجن، إذ قال لملكه[3]: «واعلم أيها الملك الحكيم أن هذه الصور والأشكال والصفات التي تراها في عالم الأجسام، وظواهر الاجرام، هى مثالات وأشباح وأصنام لتلك الصور التي في عالم الأرواح غير أن تلك نورانية شفافة، وهذه ظلمانية كثيفة، ومناسبة هذه إلى تلك كمناسبة التصاوير التي على وجوه الألواح وسطوح الحيطان إلى هذه الصور والأشكال التي عليها هذه الحيوانات من اللحم والدم والعظام والجلود،

(١) ص ٨٦.
(٢) ص ٧٠، ٧١.
(٣) ص ٥٨.

لأن تلك الصور في عالم الأرواح محركات وهذه متحركات.. وهذه محسوسات وتلك معقولات، وتلك باقيات وهذه فانيات باليات، زائلات فاسدات». فهذه آراء أفلا طون المعروفة بنظرية «المثل»[1].

وفي الكتاب كثير من الشواهد القرآنية، وكثير من طرق الاستدلال الدينية، يوردها خطباء الجن والإنس والحيوان تأييدًا لرأيهم.

(٤) ومن مظاهر الفلسفة الهندية عندهم فكرة التناسخ، فإنه لما خاف الجني أن يغلب الناس الحيوان بفصاحتهم، قال ملك الجن.. «تصبر هذه البهائم في الأسر والعبودية إلى أن يقتضى دور القرن، ويستأنف نشء آخر ويأتي الله بالفرج والخلاص ... فإن أيام هذه الدنيا دول بين أهلها، تدور بإذن الله وسابق علمه ونفاذ مشيئته، بموجبات أحكام القرانات والأدوار في كل ألف سنة مرة، أو في كل اثنى عشر ألف سنة مرة، أو في كل ست وثلاثين ألف سنة مرة، أو في كل ثلثمائة وستين ألف سنة مرة، أو في كل يوم مقداره خمسون ألف سنة مرة»[2].

وهذه شبيهة شبها ما بما قال به البوذيون من انتقال الأرواح وترقيها في الأبدان حتى تصل إلى الاندماج في الله[3].

(٥) يرى إخوان الصفاء تفضيل الناس على غيرهم من المخلوقات بالعقل؛ إذ جاء على لسان رسول التنين «ليس يفتخر بنو آدم بشيء من هذه - يقصد الضخامة والقوة والغلبة - ولكن يرجحان العقول وفنون

(١) خلاصتها: عالم الأشياء الذي يحيط بنا إنما يصور عالما آخر قوامه أفكار عقلية فكل شيء هنا شبح لفكرة هناك. قصة الأدب جـ ١ ص ٢٤٦ .

(٢) ص ٣٦.

(٣) قصة الأدب في العالم - جـ١ ص ٦٣.

العلوم وغرائب الآداب، ولطائف الحيل، ودقة الصنائع والفكر والتمييز والروية وذكاء النفوس»[١].

(٦) يرون أن الإنسان، على الرغم من امتيازه بالعقل والشرائع، قد حاد عن الصراط المستقيم بسبب سوء انتفاعه بالعقل والشرائع، وبسبب أنه ترك أخلاق الملائكة، وتخلق بأخلاق الشياطين[٢].

(٧) وقد عابوا على الناس كثيرًا من صفاتهم وأعمالهم فيما بينهم وبين أنفسهم، وفيما بينهم وبين الحيوان. وعابوا عامتهم وخاصتهم. فقد عابوا العلماء والفقهاء والقضاة من بني آدم على لسان النمر إذ قال للأسد[٣]: «ولكن أرى أن العلماء والفقهاء والقضاة من بني آدم قد تركوا هذه الطريقة التي قلت إنها أخلاق الملائكة، وأخذوا في ضروب من الشياطين، من المكابرة والمغالبة والتعب والبغضاء فيما يتناظرون ويتجادلون، من الصياح والجلبة والشناعة. وهكذا نجد في مجالس القضاة والحكام، يفعلون ما ذكرت وتركوا استعمال الأدب والعدل والنصفة».

ويفسر مساكنة الكلاب لبني آدم بأن ذلك، «راجع إلى مشاكلة الطباع ومجانسة الأخلاق،... وما في طباعها من الحرص والشره واللؤم والبخل وما شاكلها من الأخلاق المذمومة الموجودة فى بني آدم مما السباع عنه بمعزل»[٤].

(١) ص ٤٨.
(٢) ص ٦٥ وغيرها.
(٣) ص ٣٣
(٤) ص ٣٤

وشمل نقدهم للإنسان طعامه وشرابه ومساكنه و تعدد ملوكه[1]. و قد عرضوا فى كتابهم لبيان واجبات الملك[2] وحقوقه على الرعية[3].

(٨) أما أسلوب الكتاب فجدلي غالبا ويستخدم براهين الفلاسفة والفاظهم عامة، كما يستخدم عبارات الدين وأقوال الصالحين وأساليب الواعظين. ويتكلم على لسان الخطباء بأساليب الخطب، وعلى لسان الحكماء بأساليب الحكم وبراهين العقل والمنطق، وهو في كل ذلك صافي العبارة جيد الأسلوب بعيد عن التكلف والزخرف. وما جاء من ذلك فيه مقبول.

(٩) أما اختيار الحيوان والجن والإنس للمناظرة والجدل والحكومة؛ فأراه شيئا قصده إخوان الصفا لذاته، كي يبينوا آراءهم في هذه المخلوقات، وأصلها ومنتهاها وصلة بعضها ببعض، وحكمة الله في خلقها على صورها التي هي عليها. إلخ.

ولكنهم بجانب ذلك ينطقون الحيوان والجن بعيوب الناس، وإساءة بعضهم إلى بعض؛ كما يسيئون إلى الحيوان والجن. وأنهم لو تفكروا في هذه المخلوقات التي يرونها أقل منهم، ونظروا فيما يسودها من وئام، وما تسير عليه في حياتها من نظام، وما لها من أخلاق صالحة، وفوائد عظيمة، وأتبعوا النظر بالتقليد والعمل، لصلحت حالهم ورغدت معيشتهم.

***

(١) ص ٧٣.
(٢) ص ٧٣.
(٣) ص ٧٤.

الفصل الحادي عشر

نتائج الفطنة والصادح والباغم «للشريف بن الهبارية»[1]

ابن الهبارية من أشهر من نظموا قصص الحيوان في الأدب العربي وله من ذلك ثلاث منظومات هى: «نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة»، كتاب «الصادح والباغم»، وينسب إليه كتاب ثالث هو «درر الحكم في أمثال الهنود والعجم».

أما الأول والثاني فهما بين أيدينا، وأما الثالث فمنه نسخ خطية في فينا وميونيخ، وقد نسب إلي عبد المؤمن بن الحسن الصاغاني، وقيل إنه أكمله وقيل إنه نظم «لكليلة ودمنة» أو لشيء منه[2].

(١) هو الشريف أبو يعلى محمد بن محمد بن صالح، المعروف بابن الهبارية، الملقب نظام الدين البغدادي. من نسل على بن عبد الله بن عباس توفى سنة ٥٠٤هـ كان شاعرا مجيدا حسن المقاصد، لكنه كان خبيث اللسان، كثير الوقوع في الناس لا يكاد يسلم أحد من لسانه، وكان ملازما لخدمة نظام الملك أبي على الحسن بن على بن اسحق، وزير السلطان ألب أرسلان وولده ملك شاه، وله عليه الإنعام التام والادرار المستمر. وكان بين نظام الملك وتاج الملك أبي الغنائم بن دارست شحناء ومنافسة. فقال أبو الغنائم لابن الهبارية إن هجوت نظام الملك فلك عندي كذا وأجزل له الوعد. فقال له كيف أهجو شخصا لا أرى في بيتي شيئا إلا من نعمته فقال لابد من هذا فهجاهُ فبلغ ذلك نظام الملك فأغضى عنه ولم يقابله على ذلك بالإساءة بل زاد في أفضاله عليه (ص ١٩ جـ٢ وفيات الأعيان لابن خلكان).

(٢) جـ ٢ ص ١٣٣ تاريخ آداب اللغة العربية.

نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة:

طبع هذا الكتاب في المطبعة اللبنانية و بعبدا لبنان سنة ١٩٠٠م، وقد نشره وهذبه الخوري نعمة الله الأسمر الماروني اللبناني وكتب له مقدمة مختصرة سماها مقدمة المصحح، وبدأها، «باسم الله الأزلي»، وقد بين في هذه المقدمة:

(١) أنه وفق إلى وجود هذا الكتاب مخطوطا بيد الكاتب ألب بن عبد العزيز بن ألب في شهر ذي الحجة سنة ٧٤٧ هـ.

(٢) أن هذه النسخة الخطية كانت فى غاية ما يكون من الإتقان لولا النزر اليسير من أغلاط النسخ.

(٣) أنه قابل بين نظم الكتاب ونثره فلم يجد فرقا في حسن السبك ومتانة التركيب ولكنه وجد اختلافا في ترتيب الأبواب، واختلافا في تسمية بعضها، ووجد الشعر خاليا من مثال الرجل الخائف من الذئب، وهو أول أمثال باب «الأسد والثور»، ومن بعض فقرات من سائر الأبواب، وخاليا من «باب الحمامة ومالك الحزين والثعلب»، وهو آخر أبواب الكتاب، وينسب ذلك لأمرين: سهو الناسخ عن البعض[1] وعدم وجود البعض الآخر فيما أخذ عنه الناظم.

(٤) أنه فكر في طبعه، لما لكتاب «كليلة ودمنة» من الشهرة، ومن إقبال الناس عليه، ولسهولة حفظ الشعر وبقائه في الذاكرة، وأنه أحب إلى الحافظ من النثر.

(١) ليس من المعقول أن يسهو عن باب بأكمله، والمعقول أنه لم يكن موجودا في النسخة التي نقل عنها.

(٥) أنه أحجم عن طبعه لصعوبته ثم أقدم لما شجعه الناس وأكدوا له أن التقصير مغفور. وصحح أغلاطه وحذف مافيه من الأمثال التي يترفع أهل العصر عن مطالعتها ونظم غيرها مأخوذا من النسخ النثرية المطبوعة و نظم ما خلا منه الكتاب - كتاب ابن الهبارية - وأشار إلى ما نظمه بأن وضعه بين أقواس وأبقى على ترتيب الأبواب وألحق النظم بما يكفل لقارئه تفسير الغريب من ألفاظه.

أما عدم الفرق بين نثر ابن المقفع ونظم ابن الهبارية في حسن السبك ومتانة التركيب فمسألة فيها نظر، فللنثر أصوله البلاغية وللنظم أصوله أيضا. وقد بلغ ابن المقفع درجة عالية في النثر العربي. أما ابن الهبارية فأحسن نظمه في درجة متوسطة من الرجز.

ويكفي في بيان سبق ابن المقفع وإجادته أن أقارن بين النصين الآتيين : قال ابن المقفع:

«وقد قالت العلماء في الرجل الفاضل الرشيد. إنه لا يرى إلا في مكانين ولا يليق به غيرهما، إما مع الملوك مكرما، وإما من النساك متعبدا «كالفيل إنما جماله وبهاؤه في مكانين. إما أن تراه وحشيا، وإما مركبا للملوك»[١]

وقال ابن الهبارية نظما لهذه الفقرة :

فليكن الحر مع الملوك أو ناسكا في موضع متروك
كالفيل إما مركب السلطان أو في مكان ليس ذا مكان[٢]

فابن المقفع قدم لهذه النصيحة بقوله: «وقد قالت العلماء، ونسبة هذا القول إلى العلماء يحبب فيه من يسمعه. أما ابن الهبارية فقد بدأه بصيغة

(١) ص ١٠٢ «كليلة ودمنة باب الأسد والثور».
(٢) ص ٤٠ نتائج الفطنة.

الأمـر، وهى تحمـل معنى الاسـتعلاء، وفيهـا شيء من الغلظـة، وكثيرًا ما يكـون الأمـر صارفا عن قبول النصيحة» و قال ابـن المقفع، «إما مع الملوك مكرمـا، وإما مع النسـاك متعبدا» فهو في حالتيه عزيـز المنزلة كريم المثوى. امـا ابن الهبارية فجعله «مع الملوك» فقط، ولم يشر إلى منزلته معهم، «فإذا لم يكن، فيصير ناسكا في موضع متروك». وأحس أن «الموضع المتروك، زائدة لتكملـة النظـم ولا تؤدي الغرض منهـا، لما توحى به كلمـة «متروك»، من معنى الوحشة المنفرة من الناسك في هذا المكان».

وفي التشـبيه – يجعـل ابن المقفع الفيل جميلا بهيـا في حالتيه، وليس ذلك الناسـك عنـد ابن الهبارية. وكلمة «وحشـيا» عند ابن المقفـع توحي بالعزة التـي يسـتمتع بها الفيـل اذا لم يكن عنـد الملوك مكرما، وليـس كذلك عند ابن الهبارية لأنه سـيعتزل «في مكان ليس ذا مـكان»، والجناس بين «المكان ومكان» قد أثقله. وكيف يحب مكان لا قيمة له كالذي يريده ابن الهبارية!

وابن المقفع ناثر يقرر حقائق، وعالم يستعين على توضيح درسه بالأسلوب الجيد، والتشـبيه الجميل، والتقسـيم المنطقي الذى له مكان في النثر. أما ابن الهبارية فينظم معنى ابن المقفع وهو مقيد بقيود النظم. ويطرق معاني بعيدة عن معني الشـعر وخيال الشعراء، ويستخدم في بيانها أساليب العلماء، فلا يصل إلى هؤلاء ولا الى هؤلاء.

ومـن الطبيعي ألا يوجد في نتائج الفطنـة باب خطبة الكتاب لأنه وضع في أيـام محمد علي. أما باب مقدمة الكتاب الذي وضعه بهنود بن سـحوان فلعله لم يكن معروفا لابن الهبارية وإن كان بهنود بن سحوان قد توفى سنة ٣٠٢ هـ، قبلـه بقرنـين من الزمـان، أو أنه كان يعرف هـذا الباب وأهمله كـما أهمل باب عرض الكتاب لابن المقفع. ويستمر الترتيب من باب برزويه إلى باب الناسك

وابن عرس ثم يختلف الترتيب فيما بعد وتختلف التسمية في باب هيلار ملك الهند. ثم تأتي ثلاثة أبواب متفقة، ثم يختلف الترتيب إلى آخر الكتاب.

والاختلاف في التسمية في باب هيلار، والطائر قبرة والملك، واللبؤة والأسوار والشعهر. ليس تصحيفا فى الأولين إذ أن اسم الوزير «بيلار»، ورد قافية في النظم لما قال له «هيلار»:

الساعة الساعة يا بيلار بحقي اقتلها كما أختار[1]

وصاحب السر الأمين بيلار لا يكتم الأسرار إلا الأحرار[2]

وكذلك الحال في اسم الطائر «قبرة»، الذي ورد في «كليلة ودمنة» باسم «فنزة»، والنظم لا يترك مجالا للشك في الاسم، فقد ورد في النظم أنه كان عند الملك:

طائر يربيه يسمى قبرة كدمية في حائط مصوره

وقد يكون الخطأ من ابن الهبارية عند نقل الاسم، لتشابه الكلمتين في الرسم، أو أنه «قبرة»، في ابن المقفع وأخطأ الذين نقلوه فيما بعد فكتبوه «فنزة»[3].

أما الحذف والزيادة، وتحرر الناظم من حرفية الكتاب عند النقل فشيء لا بد منه: فالشجرة التي كان يقيم الجرذ عندها في «باب الجرذ والسنورة»، مثلا هى من شجر و البيرود، ذات ثمرة.

(١) ص ٢٠٢.

(٢) ص ١٩٢.

(٣) في كتاب أنوار سهيلي الفصل الثامن ص ٤٤٥ كلمة Lark وهي تقابل قبرة، العربية. وقد أشار الدكتور عزام في تحقيقه ٢٩٩ إلى أن "فنزة" أقرب كلمة إلى الأصل ولكنه آثر قبرة لاستعمال ابن الهبارية.

في أصلها جحر كشدق النون لجـــرذ ســمــى بــأفــريــدون

وليس للشجرة نوع ولا ثمر في كليلة. واسم الجرذ هناك «فريدون»، من غيرهمزة. وننقل بعض أبيات مثل التي نقلناها عن أبان في الرجل إذا افتقر قال بن الهبارية[1]:

فكل مـا يطرى بـه الغنى يلحـي علـيه المـقـتر الشقـي
إن كان شهماً قيل غر أهوج وحـــالـــه جمـعـيـه مـعـوج
أو كـان ذا جـود وذا سماح قيل: سفيه ليس ذا صلاح
وحلمه عجز، كـما وقـاره بـــلادة يعظم منها عـاره

وذلك هو قول ابن المقفع الذي نقلناه قبلا عن باب «الحمامة المطوقة».

وأمـا حذف بعض الأمثـال التي يترفع أهل العصر عـن مطالعتها، فهو معيب، إذ إن الأمانة في الطبع تقتضي الإبقاء على الكتاب كما هو، وكما أراده صاحبه، ولا عيب عليه في نظم ما خلا منه الكتاب مادام قد أشار إلى ذلك، وقـد رجعت إلى بعـض الأبيات التي غيرها فوجدته لم يفـق ابن الهبارية في نظمه. وذلك واضح في الطبعة المذكورة.

وكثيرا ما أشـار إلى أصول أبيات أو أشـطر غيرها، أو حذفها. وقد تغفر لـه هذه الإشـارة ما أحدثه مـن التغيير. وللقارئ، أن يحكـم على فائدة هذا التغيـير و مبلـغ حـرص كل من ابـن الهباريـة والخوري عـلى الأصل، عند مقارنتهـما «بكليلة و دمنة». وقد أخذ الخوري نعمة الله حذره لئلا يتعرض لمثـل هـذا النقد، فسـمى عملـه في عنـوان الكتـاب «تهذيبا» ولكـن الذين

(١) ص ١٣٧ نتائج الفطنة.

يريدون الكتاب كما هو، يرون عيبا فيما فعله من حذف وزيادة، وكانوا يودون الإبقاء عليه كما كان.

ويقول ابن الهبارية عن فضل كتابه:

وإن لي في نظم ذا الكتاب فضلا عن الأقران والأضراب
لانه خير كتاب صنفا وفيه علم مثله ما ألفا
فيه لأرباب الرجال عبره يزيد بالدهر الخبير خبره
سار مسير الشمس في الآفاق يضيء في النفوس والأخلاق

وأشار إلى حفظ يحيى بن خالد لنظم أبان بقوله:

أراد يحي حفظه فما قدر إلا بما قال أبان إذ شعر
لأن حفظ النثر أمر صعب وكلفه يعجز عنها القلب
كلت طباع القوم دون نظمه وعجزوا عن سبكه لعظمه
إلا أبان اللاحقي الكاتب فإنه في نظمه لغالب
ثم أبو يعلي، أنا، فإني نظمته بالجهد والتعني
متبعا فيه أبان اللاحقي وليس ـ وهو سابقي ـ بلاحقي
فان يكن أقدم مني عصرا فإنني أحسن منه شعرا
ما قدم العصر مفيد فضلا قد يفضل الفرع الزكي الأصلا
فاعتبروا النظمين ياساداتي فأنتم أعرف بالأبيات

وواضح من هذا أنه أراد معارضة أبان، وأن كل من حاول نظم الكتاب قد عجز عن ذلك في نظره، ولم يستطعه إلا هو وأبان. ولا أدري إن كان قد جهل المنظومات الأخرى التي نظمها الفضل بن نوبخت، وعبد الله ابن هلال الأهوازي وعلي بن داود أو تجاهلها.

أما نظمه فلم يفق نظم أبان، والأبيات التي نقلها الصولى في كتاب الأوراق لاتقل عن هذه في الجودة، إن كانت هذه جيدة.

وقد استخدم كل منهما الرجز لسهولته. وأرى فيما بقى من نظم أبان لكليلة ودمنة، ومن نظمه في العلوم كتاب «الصوم والزكاة»، ما يجعل له الفضل على ابن الهبارية. فالساقط من قول هذا الشريف كثير، وضعف «الشعر»، واضح إن سمى هذا شعرا، وفيه شبه بأقوال العوام، كقوله بعد أن فضل نفسه على أبان:

فاعتبروا النظمين يا ساداتي التي ... فأنتم أعرف بالأبيات

وقوله عن الإخاء:

وإنما الإخاء للمؤاخي ... كأنه مغرفة الطباخ
يَقى بها حرّ الطبيخ كفّه ... صحيحة إذا أراد عَرفه
حتى إذا ما دهرُها أفسدها ... وأصبحت مكسورة أوقدها

وقوله :

وتعب النسك يفيد راحة ... نفس اللبيب نحوها مرتاحة

والكتاب فيه كثير من هذه الأبيات الضعيفة التركيب، المهلهلة النسيج فضلا عما يلجأ إليه الشاعر من الضرورات كتسهيل المهموز، وقصر المدود وتسكين المتحرك، وتحريك الساكن، وأمثال ذلك؛ ولكنها ضرورات مقبولة، أما الزحافات والعلل فقد كثرت حتى لا يدري القارئ أيقرأ نظما أم نثرا. وأما القافية المزدوجة فقد فتحت أمام الناظمين أبواب التجويد، ويسرت لهم طول النفس، والاستمرار في القصة مهما طالت، وإن نظم

كتاب بتمامه أمر صعب شاق، فصاحب النظم مقيد بمعانى الكتاب المنثور، مضطر إلى المحافظة على الأصل، مرغم على التزام حدود الوزن والقافية، فإذا عرض شاعر لمثل هذا العمل واستطاع أن يبلغ ما بلغه أبان أو ابن الهبارية، وسلم له ما سلم لهما من النجاح، كان له حظ عظيم من التوفيق.

وإذا سلمنا بأن أبان اللاحقي قد نظمه في ثلاثة أشهر وعجبنا من ذلك، فالحال أعجب مع ابن الهبارية، الذي يقول إنه نظمه في عشر ليال، ولو أنه وقف عليه نفسه لنظمه فى خمس، ويرجع ذلك إلى سعد ممدوحه مشيد الدولة سيف الدين؛ يقول:

تم الكتاب وانقضت أبوابه ... كالدر إذ يزجي به سحابه
حرزت في عشر ليال عقده ... ولم أطق حتى استعنت جده
نعم، ولو أني وقفت النفسا ... عليه لا غير، لكانت خمسا

وإذا كان قد بلغ هذه الإجادة في هذا الزمن القصير، فماذا كان يحدث لو أنه عاد عليه بالتنقيح والتهذيب، ولو أعطى نفسه فسحة من الزمن، وتحرر كما تحرر ابن المقفع ومحمد عثمان جلال وشوقي، لأتى بما هو أجود وأرق وأوفى بالمعاني مما هو عليه الآن.

الصادح والباغم

هذا كتاب آخر نظمه على أسلوب كليلة ودمنة. ولقد أجاد فيه كل الاجادة، وسير الكتاب على يد ولده إلى الأمير أبي الحسن صدقة

ابن منصور ديس الأسدي صاحب الحلة[1]... فأجزل عطيته وأسنى جائزته. أما عدد أبياته وكذلك مدة النظم فقد أشار إليهما في قوله.

أنفقت فيه مده عشر سنين عده
بيوته ألفان جميعها معاني
لو ظل كل شاعر وناظم وناثر
كعُمْر نوح التالد في نظم بيت واحد
من مثله لما قدر ما كل من قال شعر
أنفذته مع ولدي بل مهجتي وكبدي

ولم ينس طريقته في الفخر بما يعمل. فقال في موضع آخر:

وهو كتاب حين خطير ليس له في فنه نظير

وقد بين في المقدمة أنه نظم هذا الكتاب لينفذه تحفة إلى ممدوحه وقدمه إليه وهو غائب عنه. وقد أسرف في الثناء على هذا الممدوح فقال إنه لو كان الشباب من هباته لما شاخ الناس:

أو اقتدى بفعله الزمان ما خلق الشر ولا الهوان
أو أنه يجير من جور الردى ما علقت كف المنون أحدا

وبدأ الكتاب بباب سماه باب «الناسك والفاتك» وجعل مقدمة هذا الباب أنه خرج للعمرة؛ وتخلف عن أصحابه؛ فلقي رجلا شيخا يناجي صاحبا مكتهلا، وافتخر كل منهما بقومه وما لهم من فضل وامتياز في الاختراع.

(١) كان يقال له ملك العرب، وكان ذا بأس وسطوة وهيبة، قتل سنة ٥٠١هـ (ابن خلكان جـ ١ ص ٢٨٧).

فكان قول الشيخ، قومي الهند الحكماء العلماء اللد
لو لم يكن من فضلهم إذ يختبر فضل الرجال منصف ويعتبر
إلا الذي أبدوه في الشطرنج للناس من علم سديد النهج
فيه إشارات إلى مواعظ نافعة لكل واع حافظ
قد رسموها للهدى مثالا إن الحكيم يضرب الامثالا
يعنون أن العيش في التدبير وليس بالقسمة والتقدير
قال له الكهل وقومي الفرس الحكماء ما بذاك لبس
لهم سياسات وتدبير حسن كالشرع عدلا في الفروض والسنن

ثم قال:

والعيش بالرزق وبالتقدير وليس بالرأي ولا التدبير
وقد وضعنا النرد للمثال لو فطنت بصائر الرجال

واستمر الفخر بينهما في أبيات كثيرة، بين كل منهما حجته في فضل ما اخترعه قومه، وما فيه من إشارات ودلالات؛ وما يستفيده لاعبه من سياسة وحكمة، وما كان لاختراعه من أثر في سياسة الملوك والدول. وهذا آخر حوار بينهما:

قال له الهندي: وهو صادق لكن لنا فضل عليكم سابق
تصنيفنا كليلة و دمنة يقضي لنا بحكمة وفطنة
كم فيه من موعظة وعلم وحكمة تعجب أهل الفهم
قال له الفارسي: في سواه لو كنت ذا علم به؛ معناه
قال: وما رأيته؛ قال: أجل ذاك لنقص فيك ليس يحتمل[1]

(١) قال الأولى فاعلها الهندي والثانية الفارسي.

سمعت بالله حديث الناسك إذ راعه الليل بلص فاتك
فقال: لم أسمعه فاذكر أسمع لا تنفع الأخبار إلا من يعي

وبدأ الفارسي قصة الناسك واللص الفاتك[1] وخلاصتها: أن هذا الفارسي خرج في جماعة من التجار، ومعهم ناسك نزل للصلاة في طريق غير آمن، فجاءه لص، فأخذ الناسك يعظه، ويعده أن يزوجه ابنته الوحيدة؛ فحزن اللص وأظهر أنه قد مات متأثرًا بقوة وعظه، فنادى الناسك أصحابه التجار ليعودوا ويشهدوا جهازه. فخاف اللص وقام يريد الفتك به، فتضرع الناسك إليه وأخبره ألا فائدة في قتله، فقال له اللص:

تريد أن تخدعني لتسلما وأنثني أعض كفى ندما

أما سمعت قصة الظليم وفتكه بالصياد. فقال الناسك: لا؛ فأخبرنى بها؛ فقال له: أخذ صياد ظليما فسأله الظليم لم أخذتنى:

قال له: شيخ مُعِيل[2] عائل ولي بنات حالهن حائل
تسعة أطفال صغار، فبكى الظـ ـليمُ ما قاله وضحكا[3]

فسأله الشيخ: ما الذي يبكيك ويضحكك؟

قال بكاي لفراخي، إنهم قد خيبت في الليالي ظنهم

فرق لبكاه وذكر أولاده، ثم سأله عن سبب الضحك. فقال الظليم:

خرجت تبغي الرزق للعيال والرزق في بيتك كالجبال

(١) الصادح والباغم ص٢٥.
(٢) معيل كثير العيال. عائل: فقير.
(٣) الضرب مخالف للعروض. والنظم مضطرب ولعله أراد أن تكون "فبكا" آخر الشطر الأول فخانه الوزن.

قال ـ وما ذلك ؟ قال: كنز في داركم حيث تُشَدّ العَنْزُ

ففرح الصياد وهم أن يطلقه، ولكنه خشى أن تكون هذه حيلة؛ فلم يطلقه، ففكر فى حيلة أخرى، فقص عليه قصة البعير والجمال.

أخبره الظليم أن جمالا كان سائراً بجمله وعليه طعام، فاستقبلا، «سرية مغيرة»، لم يرها الجمال وأبصرها البعير. فأخبره بخبرها فلم يصدقه، حتى أدركته وشدت وثاقه.

وعاد الظليم إلى حديثه مع الصياد، والصياد في شك من أمر الكنز الذي في داره، وقال للظليم:

من أين تدري علم ما في منزلي من الكنوز في الزمان الأول

فوصف له الظليم داره، وما زال به حتى صدقه وأطلقه. وعاد إلى أولاده حريصا على إخراج الكنز. «فلم يكلمهم وبات يحفر» فلم يجد شيئا وخرب الدار ولامه الناس.

ونعود للقصة الأصلية: قال اللص للناسك: إنك تريد أن تخدعني لأتركك فقال له الناسك:

إنك أن كففت عن أذاتي أعطيتك المفروض من زكاتي
وقلت للرفقة هذا طالب وحقه من الزكاة واجب
وكان خيرًا لك في الدارينِ مما ترى في موتي وحَيْنِي

فانخدع اللص الفاتك وسار معه، فلما وصلا إلى الركب أخبرهم الناسك أنه لص خبيث، فربطوه ربطا محكما، وقال له الناسك:

وقعت بعد ضربك الأمثالا وذكرك الظليم والجَمالا

فضرع إليه اللص وتاب على يديه، وأعطاه القوم شيئا من الزكاة.

وأطـلـقـوه فـغـدا يـقـول خُدِعْتَ عن رأيك يا جهول
من نال ما يريده فقد غَلَب قد اتفقنا، واختلفنا في السبب

وينهي بهذا باب «الناسك واللص الفاتك».

ويأتي بعده باب «البيان ومفاخرة الحيوان».

يقول الفارسي إن شيخا من الأعراب حدثه أنه خرج رائدًا لأهله، فجار عن مقصده فوقف حائرا، فرأى شخصا قريبا فارتاع وظنه الغول، ثم ظهر له نخل وأثل، فذهب إلى هناك فوجد عيون ماء ورياضا، فنزل فربط ناقته وأكل من بعض النخيل، ثم صعد نخلة لينام فوقها بعيدًا عن الأذى.

فـجـاء بَـبْرٌ وهـزبـرٌ وَنـمِـر والوحش والطير جميعا تُبْتَدَرِ
وجـاءت الأنعام والبهائم والهـام والطيور والأراقـم
والحـشرات جَلها ودقها مفتنة في خلقها وخلقها
وارتفع العنقاء فوق دُلبه[1] وهوأمير الطير، يبغي الخطبه

فخطب فحمد الله وأثنى عليه ماخصه به من بديع الحسن، وأفرده به من صورة شاهدة بقدرته. وان كذب به الطغام، وشك في وجوده الأنام لضعف عقولهم. وقال: إن هذا التكذيب ليس عجيبا من الناس.

فإنهم قد كذبوا بالصانع وأنكروا البعث ليوم جامع

واستمر العنقاء في حديثه عن بني آدم ومزاعمهم وإنكارهم للغيب

(١) نوع من الشجر الكبير.

وأنهم لوفكروا في ملكوت السموات والأرض لآمنوا بالله ولما قالوا: إن هذا من عمل الطبائع. أوأنه صنعة من غير صانع، أوأنه من عمل النجوم، إلى آخر ما أورده عن الناس ذما لآرائهم وعقائدهم، وعدم اعتبارهم وتفكيرهم. ثم يختم ذلك بالاستدلال على أن بني آدم ليسوا أفضل منهم، وملمحا إلى أن الحيوان خير من بني آدم لعدم إشراكه ويأسه فيقول:

أسألهم، ولا يقولوا مينا بأي شيء فضلوا علينا
ونحن لا نشرك بالله ولا نقنط من رحمته إذ نبتلى
فقالت الطيور مثل قوله وضجت الوحش به من حوله
وقالت الأنعام والسباع لقد أصاب الملك المطاع

***

ثم يقول الفارسي: إن الأعرابي تألم لما سمع هذا الطعن في بني جنسه الإنسان، وهم أن يجيب، ولكنه رأى نفسه وحيدا فخاف الهلاك، وخشى أن يكون مثله مثل من أضاع المال لطلب الربح: كالتاجر الذي أراد أن يبيع جواهره لملك، فعابها الدلال لعله يكرهها وقد يبيعها رخيصة. فعاد بها التاجر إلى بيته ليصلح مافيها من العيوب، على طريقة رآها في مكتوب.

فدقها في هاون وبلها بلبن الكلب يريد حلها

ووضعها في الشمس لعلها تحلها، فصارت الجواهر برادة، فندم المسكين، وكذاك من باع الوجود بالعدم.

ورأى الشيخ أنه لابد له من حيلة مع هؤلاء البهائم، وأن الكيد قد يغني عن القوة.

فاستعمل الحيلة والكيد مع هؤلاء البهائم، فنزل إلى عين ماء وغاص فيها إلى رقبته، وصاح صياحا عظيما أفزعهم، فكادوا يفرون، ثم ذهبوا إلى مصدر الصياح وسألوه: من أنت..؟ فقال رسول ملك الجن أرسلني إليكم في صورة إنسان. وقد سمع ما قلتم في حق بني آدم وإني سأناظركم وكيلا عنه. فدعوا الفيل للمناظرة، فلم يصلح، ثم دعوا الأنعام فتكلم منها الجمل فقال: إنها لا تنسى فضل الإنسان عليها، وطول صحبتها له.

فغضب النعام مما قال الجمل. واتهمه بالحمق، وأخبره أن سبب إكرام الناس لهم هو انتفاعهم بالحيوان. وأنهم يفعلون ذلك كالضرغام الذي أكرم حمارا وأنقذه من الطين وسمنه ثم أكله، أو كالذئب الذي مر بغزالة مريضة هزيلة فأخذها وأحسن طعامها حتى سمنت ثم أكلها. وهكذا الإنس في إكرامهم لبعض أنواع الحيوان.

فقال أبو أيوب: إن إكرام الناس أو إيذاءهم للحيوان فيه مصلحة.

ثم تكلمت العنقاء، وتكلم الحصان ينفي التهم عن بني آدم وتحدث كثيرا عن فضل هذا النوع من المخلوقات وان الله قد جعلهم سادة لهم، وسخر لهم ما في الأرض جميعا.

واستمر الجدل بينهم حتى آمن الجميع بأن الحصان «الصبا»، على صواب، وانقاد العنقاء ملكهم للحق، ودعا الشيخ الأعرابي فاعتذر اليه وقال له: قل لملك الجن: إنى قد تبت عن مقالي، وبان لي ما كان خفيا عني.

لكنه عجب من فعال ملك الجن، مع ما بينهم وبين الإنس من عداوة بالطبع، فنفى الأعرابي هذه العداوة وأثبت أن أصلهما النار والطين، ولا يمنعان ما بين الثقلين من قرابة التكليف، وأنهم مخاطبون جميعا بالأوامر والنواهي. وتفرق الجميع وذهب الأعرابي بالفرس الأشقر.

وينتقل بعد ذلك إلى الحكم والأمثال - فيذكر أنه اجتاز في طريقه بزهر أنيق وروضة أريضة، فيها طيور صوادح.

وطائر في شجره ليس يمس الثمره
كأنه مفكر أو واله محير

***

فأقبلت غزالة في حسنها مختالة
فربضت قريبا وانتصبت خطيبا

وتكلمت في غرور الدنيا، وفي صحبة السلطان.

فردت عليها الأيكية «الحمامة»، فصلا في واجبات السلطان، وآخر في علو الهمة وطلب المعالي، وثالثا في منفعة التجارب، ورابعا في هموم الدنيا وغمومها وخامسا في اجتناب الجهال. وجاءت كل منهما بكثير من الحكم والأمثال في سياسة الناس ومنافعهم ومضارهم وأخلاقهم وأعمالهم وطغيانهم إذا قدروا، وذلهم إذا هانوا، وأشباه ذلك.

ثم جاء بفصول في الحكم أكثرها صناعة لفظية: منها فصل. يبتدئ بحكم مع لا الناهية وغيره بحكم مع من الشرطية أوحكم مع ليس، أوحكم مع ما النافية أوكل، ثم حكم مع من الشرطية، وفصل في التوقي من كلام الناس، وفصل في شروط الصحبة، وفصل في الصحبة والقناعة وفصل في شرف السلطنة وجلالتها، وفصل في نصب العمال. وحكم متفرقة، وفصل في الكرم والسخاء وحكم مع ما التعجبية، وحكم متفرقة، وفصل في رداءة الأقارب وأقوال أدبية ثم يختم ذلك بأنهما افترقا، ثم تم الحديث وختم.

ويلى ذلك مدح الأمير صدقة، ثم فصل في الكتاب ومدحه ـ وأنه جعله يرسم الأمير صدقة.

وإذا نظرنا إلى الكتاب وجدناه ينقسم ثلاثة أقسام، بعد المقدمة.

(١) باب «الناسك واللص الفاتك»:

وقد تأثر فيه بكليلة ودمنة في إيراد حكايات على لسان البهائم والطير يقصد بها الحكم والموعظة، كقصة الصياد والظليم، وقصة البعير والجمال.

(٢) باب «البيان ومفاخرة الحيوان»:

وهومتأثر فيه بإخوان الصفا في تداعي الحيوانات على الإنسان وذلك من حيث الفكرة الفلسفية التي أودعها في المناظرة بين الحيوان بعضه وبعض وبينه وبين الأعرابى الذي أخبرهم أنه رسول ملك الجن لهم. ومن حيث الاستطراد والخروج من مناظرة إلى مناظرة، ومتأثر بكليلة ودمنة في الحكايات الفرعية والمغازي الخلقية.

(٣) باب «المحاورة بين الحمامة والظبية».

وقد تأثر فيه إلى حد ما، بأبي العتاهية في إيراد الحكم والأمثال في قصيدته الطويلة «ذات الأمثال».

ولكنه مشى فيها على طريقة أكثر نظاما، إذ جمع فيه الحكم المتشابهة تحت عنوان واحد، وأخذ العناوين من كتاب «كليلة ودمنة»، ومن كتب الآداب السلطانية، ومن كتب الأخلاق ومن مواعظ الصالحين، وضمنها آراء قيمة في أصناف الناس وفي أعوان السلطان وفي سياسة الرعية... إلخ وهذه الحكم خفيفة سهلة، مع حسن النظم، وإن كانت قد جمعت جمعا في بعض الأبواب وليس بينها رابط إلا الوزن.

وتأثر في نظمه بأبان بن عبد الحميد؛ إذ اختار الرجز والقافية المزدوجة ليسهل عليه مالا يسهل في غيرهما من الشعر، كما قلنا في نظمه لكليلة ودمنة.

أما عيوب الكتاب فمنها كثرة القصص الاستطرادية التي نراها في البابين الأولين. ثم ضعف الربط بين هذه القصص والقصة الأصلية، حتى أن القارئ ليجد نفسه في حيرة عندما يحاول معرفة الارتباط، أو وجه الشبه بين قصة «البعير والجمال»، الاستطرادية، وبين قصة «الفاتك والناسك» الأصلية، ويصعب عليه أن يجد هذا الارتباط المتين بين قصة «امرأة الراعي» وباب «التفاخر» ولا يجد إلا «إعمال الحيلة»، للوصول إلى الغاية، وهذا عيب مشترك بينه وبين «كليلة ودمنة».

ومن هذه العيوب في باب البيان أنه أقام العنقاء والظليم والجمل والحصان خطباء، ولكنك لا تدري القائل إلا بشق النفس، وذلك أنه لا يميزه حين ينتقل الكلام، بل يمهد بكلمة «قال» فلا تعرف الفاعل لهذا الفعل؛ وقد كان الجمل والحصان في صف الإنسان، فإذا كان الكلام كذلك تحيرت فلم تدر أقائله الحصان أم الجمل، والأمر كذلك مع العنقاء والظليم.

والعناوين التي وردت في الطبعة الأخيرة سنة ١٩٣٦م ونشرها عزت العطار عناوين ليست ذات أهمية، فكثيرا ما يهمل العناوين الرئيسية لقصص مهمة ويظهر العناوين التي لاقيمة لها. ولوجاء لكل قصة بعنوان لكان في هذا ما يوضح غموض الكتاب، ويبين مواطن الاستطراد. وليس في هذه الطبعة شيء يكشف عن الغموص الذي أشرت إليه سابقا.

والصناعة اللفظية في الأبواب التى جعل حكمها تمشي على وتيرة واحدة في أولها أوطريقة نظمها، قد خفت في موضعها لأنها مستقلة، وكل بيت منها حكمة واحدة، أومثل مستقل.

وهذا الكتاب متأخر عن نظم كليلة ودمنة «المسمى نتائج الفطنة»:

(١) لأن هذا الكتاب من عمل ابن الهبارية؛ والثاني نقل والرجل كان قديرا في هذا النوع من النظم، فبدأ بنظم نتائج الفطنة، ثم رأى نجاحه فيه فأراد أن يجرب حظه في الاختراع على مثاله.

(٢) وإن نتائج الفطنة قد تم فى عشر ليال كما يقول ابن الهبارية وهذا «الصادح والباغم» في عشر سنين، والذي سهل عليه نظم كليلة أن معانيها وأبوابها وقصصها معروفة، فما عليه إلا النظم.

(٣) وإن تأثره بكليلة ودمنة ظاهر فى الاستطراد القصصي، وفي المبادئ والآراء التي اشتمل عليها كل منهما في المعاملات والحقوق والواجبات والنظم السياسية وأخلاق الناس؛ وذلك فى نظري قد ينهض دليلا على أن نفس ابن الهبارية امتلات أولا بهذه المعاني من كليلة ودمنة حين نظمه، ثم أراد تقليده فعمل هذا الكتاب على نمطه فجاء مشابهًا لكثير من غايات ابن المقفع من كتابه، بسبب تأثره به حين نظمه.

(٤) ثم أنه قد جاء في المفاخرة بين الهندي والفارسي أن الهندي افتخر بوضع قومه لكليلة ودمنة، فرد عليه الفارسي بأن هناك حكما أخرى في غيره:

قال له الفارسي: في سواه لو كنت ذا علم به؛ معناه
قال، وما رأيته، قال أجل ذاك لنقص فيك ليس يحتمل

***

سمعت بالله حديث الناسك إذ راعه الليل بلص فاتك
فقال لم أسمعه فاذكر أسمع لا تنفع الأخبار إلا من يعي

فهذا التسليم بأن هناك حكما خارجة عن كليلة ودمنة لا يعرفها الهندي، إشارة إلى الإتيان بجديد، ويغلب أن يكون ذلك بعد استيعاب كليلة في النظم. وفيه نوع من التحدي، وكان نفس ابن الهبارية هي التي تتحدى الهند بعد أن نظم كليلة ودمنة، فكان «الصادح والباغم» آية ذلك التحدي.

أما باب «البيان ومفاخرة الحيوان»، فأثر اخوان الصفا واضح فيه فقد جاء في رسالة «تداعي الحيوانات على الإنسان»:

«فقام خطيب من الإنس من بني العباس رضوان الله عليهم» وقد دعاه إلى ذلك ملك الجن ليبين بالحجج الشرعية والعقلية أن الحيوان عبيد للناس، فإذا عرفنا أن ابن الهبارية من نسل العباس أيضا رأينا أنه أراد تحقيق ظن إخوان الصفا، فجاء بهذا الباب؛ بجانب. مافيه من روح رسالتهم، من حيث النزاع بين الإنسان والحيوان؛ وقد دافع عن الناس على لسان الأعرابي كما دافع الخطيب من الإنس من بني العباس» في اخوان الصفا ولكنهما اختلفا في الغاية فالجن قد أقروا بفضل الناس عليهم في إخوان الصفا وبلغوا هنا مرتبة المساواة بسبب اشتراكهما في التكليف وتشابه الأصل.

وبعد فقد طال الحديث عنه لأنه ابتداع، وهذا النوع قل فيه الابتداع عندنا فكان له نصيبه من طول الحديث عنه تلخيصا وتعليقا.

***

الفصل الثاني عشر
سلوان المطاع
لابن ظفر

جاء في صفحة العنوان أن هذا الكتاب هو«سلوان المطاع في عدوان الأتباع».

«تأليف الشيخ إلامام العالم العلامة حجة الدين أبي هاشم محمد بن أحمد ابن ظفر غفر الله له ولنا وللمسلمين أجمعين».

وفي الصفحة الأولى من هذا الكتاب أن المؤلف كان منتهيا من تأليفه وكتابته بخطه في شهر رجب سنة ٥٦٥هـ وقد قدمه هدية[1] لصديقه «سائد السادة، وقائد القادة»، أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم القرشي، «وقد بين في هذه المقدمة ما اشتمل عليه الكتاب من أبواب، والطريقة التي سار عليها في تأليفه، فقال:

«وهوكتاب عمدت فيه إلى أمثلة استأثر خواص الملوك ببضاعتها،

(١) أهدى ابن الهبارية كتاب "نتائج الفطنة" الى ابن موسى سيد الكفاة، والصادح والباغم إلى الأمير صدقه بن دبيس، وكان كليلة ودمنة مقدما من بيدبا إلى دبشليم. وقيل إن ابن المقفع ترجمه موعظة للمنصور، وترجم ابن عربشاه كتاب «مرزبان نامه» بإشارة من مخدومه الذي لا تمكنه مخالفته. وكان عمل هؤلاء تكريما لمن وسم باسمه، وأهدى إليه، إلا ترجمة عبد الله بن المقفع لكليلة. ودمنة. بل إن من هؤلاء السادة من دعا إلى التأليف أوالترجمة. وفي هذا رد. على من يقول إنها تؤلف في عهود الظلم والاستبداد فقط.

ومنعتهم الغيرة عليها من إذاعتها، فتوسعت بالتعبير بألفاظي عليها، والتخيير بعلمي لها، والتفنن بقوى فظنتى فيها، توسعا لا يحظره شرع، ولا ينبو عنه سمع... وصدرتها بأى من التنزيل المحكم، وأحاديث عن المصطفى ﷺ، إلى ما يلي ذلك من منثور الحكم وموزونها، وأبكار الآداب وعونها، فبرزت روضة للقلوب والأسماع، ورياضة للعقول والطباع، وسميتها «سلوان المطاع في عدوان الأتباع». والسلوان جمع سلوانة وهى خرزة يزعم العرب أن الماء المصبوب عليها إذا شربه المحب سلا».

ثم قال: «وهى خمس سلوانات: السلوانة الأولى في التفويض، والسلوانة الثانية فى التأسي، والسلوانة الثالثة في الصبر والسلوانة الرابعة في الرضى، والسلوانة الخامسة في الزهد. وأنا أرغب إلى الله سبحانه وتعالى في إلامداد بالسداد، والإرشاد إلى نفع العباد».

وتأتي أبواب الكتاب بعد ذلك جارية على هذه الطريقة التي أشار إليها في هذه المقدمة.

فالسلوانة الأولى مثلا. تبدأ بقول: «ربنا تقدس اسمه: فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرا» وقوله تقدس اسمه «وعسى أن تكرهوا شيئا وهوخير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهوشر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون»، ويتلوذلك بيان كيف تؤدي الآيتان إلى التفويض، ثم يذكر قصة مؤمن آل فرعون وكيف عامله الله وأكرمه حين فوض أمره إليه.

ثم أحاديث عن النبي ﷺ تدعوإلى التفويض، وآخرها قوله عليه السلام: «إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك،

وألجأت ظهري إليك؛ لامنجي ولا ملجأ منك إلا إليك...». إلخ ثم «أسجاع وأبيات» في التفويض. ثم، «روضة فائقة ورياضة رائقة» وذلك إيذان بإيراد القصة أوالقصص التي يقصها، ومغزاها هوعنوان الباب:

وأول قصة أوردها كانت من التاريخ العربي. وهى قصة الوليد بن يزيد، ولما أدبر أمره، وأرسل خادما يأتيه برجل على هيئة خاصة، فأتاه به، وسأله أن يحدثه، فأخبره بقصة جده عبد الملك لما خرج عليه عمروبن سعيد، فقد مر جده برجل لا يعرفه، وسأله عما يراه في حروب الخليفة. فقال له الرجل إن حرب ابن سعيد أولى من حرب ابن الزبير: لأن الأول باغ خرج على إمام بايعه. وضرب مثلا لعاقبة الباغي قصة الثعلبين، ظالم ومفوض، والحية وهذه أول قصة حيوان يذكرها، وخلاصتها:

أن ثعلبا اسمه «ظالم» كان يقيم في جحر، وعاد إليه يوما فوجد فيه حية استوطنته، فذهب يطلب لنفسه مأوى، فانتهى به الطواف إلى جحر حسن الظاهر، حصين الموضع، في أرض خصيبة، لثعلب يدعى «مفوضا». ورثه عن أبيه، فناداه «ظالم»، فرحب به وأدخله جحره، وسأله عما قصد، فقص عليه خبره وشكا إليه الحية، فرق له «مفوض»، ثم قال له: «أن من الهمة ألا تقصر عن مطالبة عدوك؛ وأن تستفرغ جهدك في ابتغاء دفعه وملكه. وإنه كان يقال:

من تهيب عدوه فقد جيش لنفسه جيشا، وكان يقال: رب حيلة أنفع من قبيلة، وكان يقال: الموت في طلب الثأر خير من الحياة في العار.

وكان يقال: إذا طلبت لقاء عدوك بالقوة، فلا تقدمن عليه حتى تعلم ضعفه عنك، وإذا طالبته بالمكيدة فلا يعظمن أمره عندك وان كان عظيما.

والرأى عندي أن تنطلق معي إلى مأواك الذي انتزع منك غصبا، فلعلي انتهي إلى وجه مكيدة في تمكينك منه، فإن أفضل الرأي ما أسس على الروية ولهذا قيل: «يفسد التدبير بثلاثة أسباب، أحدها أن تكثر الشركاء فيه، فإذا كان ذلك انتشر التدبير فيه وبطل؛ والثاني أن يكون الشركاء في التدبير متنافسين متحاسدين، فيدخله الهوى والبغي فيفسد. والثالث أن يملك التدبير من غاب عن الأمر المدبر، دون من باشره وشاهده، فإذا كان ذلك كذلك دخله حقد المباشر الحاضر، وفوت الفرص. ثم إن تدبير المسموعات مؤسس على ظنون الخبر، وتدبير المبصرات مؤسس على يقين النظر».

ثم انطلقا إلى جحر «ظالم»؛ وعادا؛ وظل «مفوض» ليلته في جحره يفكر في حيلة. أما «ظالم» فقد رأى من سعة جحر «مفوض» وطيب موقعه ماجعله يطمع في غصبه.

فلما أصبحا عرض عليه «مفوض» أن يبقى معه في هذا المكان، وأن يعينه على احتفار مسكن قريب منه، فأظهر شدة الشوق والحنين إلى وطنه، وأنه لا يستطيع احتمال الغربة، وأن حروف هذه الكلمة مجموعة من أسماء تدل على معنى الغربة، فالغين: من غيبة وغَرر وغم وغلة - وهى حرارة الحزن والظمأ - وغرم وغول - وهوكل مهلكة، والراء، من روع ورعب ورنق - وهوالكدر - ورزه - وهوالهلاك، والباء من بلوى وبؤس وبعد وبرح - وهى الداهية ـ وبوار ـ وهوالهلاك.

فلما رأى مفوض منه شدة اشتياقه إلى وطنه، قال له: أرى أن نذهب يومنا فنحتطب حطبا وتربط منه حزمتين، وإذا أقبل الليل انطلقت أنا إلى بعض هذه الخيام فأخذت قبس نار، واحتملنا القبس والحطب وقصدنا إلى

مسكنك فجعلنا الحزمتين على بابه، وأضرمناهما نارا، فإن خرجت الحية احترقت، وإن لزمت الجحر أهلكها الدخان. فقال،ظالم، نعم الرأي.

ثم احتطبا حزمتين وذهب «مفوض» ليجيء بقبس من إحدى الخيام القريبة، فعمد «ظالم» إلى إحدى الحزمتين فغيبها في موضع، وذهب بالأخرى إلى جحر «مفوض» وسد الباب بها سدا محكما، ورأى أنه بذلك يستطيع أن يتحصن من «مفوض» إذا حاصره، وعنده طعام وشراب في الجحر يقوى بهما على الحصار. وعاد «مفوض» فلم يجده، فأحسن به الظن، وقال في نفسه: لعله لم يرد أن يكلفني احتمال الحطب معه. وبدا له أن يلقي القبس ويلحق «ظالما» ليحمل معه الحطب، ثم كره أن يطفئ الريح القبس فأدخله في باب الجحر، فأصاب الحطب فأضرمه، فاحترق «ظالم» وحاق به مكره.

فلما اطلع «مفوض» على أمر «ظالم» قال: مارأيت كالبغي سلاحا أكثر عملا في محتمله ! ولما أطفئت النار دخل جحره، فاستخرج جيفة «ظالم» فألقاه، وأوطن جحره على حال تحفظ واحتراس واستعداد لكيد الكائدين.

ونستطيع أن نقرر شيئا عن قصص «ابن ظفر» من هذه القصة، وكثير من عباراتها من كتابة «سلوان المطاع»، فنقول:

إن القصة لطيفة تشوق القارىء لما فيها من حسن الربط، والسير في طريق الغاية الخلقية ولكنها تعني بهذه الغاية، وتحرص على الحديث عنها، بدلا من ترك القصة تشير إليها، فانقلب أديبا أكثر منه قصصيا، وانتهز كل فرصة في القصة كي يؤكد صفة الواعظ ويقويها في نفس القارىء، وقد اكتفيت ببعض تلك المواعظ في هذا المختصر السابق للقصة. وتكاد قصصه كلها تجري على هذا النمط ولكن هذا لم يذهب بجمالها، واستيلائها على انتباه القارئ.

ومن أظهر ما يمتاز به ابن ظفر في كتابه:

(١) أن العناوين التي اختارها متصلة بالدين، والقصص التي ساقها، على تنوعها، تدور حول المعنى المفهوم من العنوان.

(٢) وأن قصص الحيوان، على قلتها، كانت تأتي استطرادا تبعا لقصة أصلية مقتبسة من التاريخ، كقصة «ظالم ومفوض»؛ في أثناء حديث الرجل مع عبد الملك. وقصة العجوز عن الحصان الذي لم يرض بمرعاه ولا بصاحبه وفر بسرجه ولجامه، وأدركه الليل جائعا، ومنعه اللجام الطعامَ. ومنعه الركاب أن ينام، ومنعه السرج أن يتمرغ، حتى ساءت حاله جدًّا.

أما العجوز فقد قصت هذه القصة على رجل كان يتطلع إلى امرأة غيره فحبسه زوجها وأذاقه العذاب ووكل به تلك العجوز.

أما قصة الرجل الذى تطلع إلى امرأة غيره فقد قصها وزير فارسي على سيده «سابور» ليتأسى بها لما وقع في أسر ملك الروم.

(٣) وأن ابن ظفر كان يتعرض لتفسير بعض الكلمات لغويا كما فسر «السلوانة» (ص ٥) والتأسي، (س ٣٥)؛ وألفاظ اشتمل عليها هذا الخبر (ص ٨٩)، أوعلميا، «كالحرباء» (ص ١٣) أوتأتي كلمة أعجمية فيفسرها ككلمة «موبذان موبذ»، (ومعنى هذا اللقب حفظة الدين، وهوعند الفرس كالنبي (ص ٢٩)، وكلمة «البطريك» وتفسير هذا الاسم أبوالآباء (ص ٣٩). وقد يتعرض لحروف الكلمة فيلمح فيها شيئا كثيرا من المعاني كما سبق في كلمة «الغربة».

(٤) وكان تأثر ابن ظفر بالفلسفة والأخلاق واضحا في عباراته وألفاظه، فقد كان يكثر من التقسيم المنطقي، ويحاول استقراء النواحي التي

يتكلم فيها مستخدما ألفاظ العدد التى تفيد الحصر، وتدل على الاستقراء ويستخدم أساليب الفلاسفة والأخلاقيين وعباراتهم ومعانيهم كقوله:

«أربعة إذا أفسدهم البطر لم تزدهم التكرمة إلا فسادا: الولد والزوجة والخادم والرعية، وضربوا لذلك مثلا القوى الأربع المرذولة، إذا هاجت لتعدي حدودها المصلحة؛ وهى الغضب إذا تعدى حد الشجاعة، وحد الأنفة من الرذائل. والشهوة إذا تعدت حد الراحة من اكتساب الفضائل؛ والحرص إذا تعدى حد الكفاية، والكسل إذا تعدى حد راحة الجسم من اكتساب المصالح؛ فإن هذه القوى الأربع إذا تعدت هذه الحدود لم تزدها المداراة والرفق إلا هيجانا وطغيانا، وإنما تعاني بحسم موادها». (ص ٧٥).

(٥) يأتي في عباراته كثير من المحسنات البديعية، كالجناس والتورية والطباق إلى آخره. وله بعض الشعر يقوله أويستشهد به؛ ولكنه في صناعته اللفظية بعيد عن التكلف. وقصصه سهلة العبارة جميلة التركيب، لا يعمد فيها إلى البديع إلا إذا خرج عن القصة إلى الوعظ وضرب الأمثال وسوق الحكم.

(٦) وابن ظفر تلميذ «لابن المقفع»، يجيد تقليده، في ضرب الأمثال التي يأتي بها في أثناء القصة. وفى استخدام الأسلوب المنطقي الذي يكثر فيه الاستنتاج والتفصيل والتقسيم.

ولكنه يخالفه فيما عدا ذلك، كتسمية الأبواب، وتصديرها بالقرآن والحديث والحكم والأمثال والشعر، وخلوها من المحاورة التي يقدمها ابن المقفع في أول كل باب. ومجيء قصص الحيوان فيها تابعة لقصص تاريخية، بعضها عن ملوك العرب كقصة الوليد بن يزيد (ص ١١)؛

أو الفرس كقصة أرد شيرين بابك بن ساسان (ص ١٣٠)، أويزدجرد بن سابور ذي الأكتاف (ص ٩٣). ولم تهمل قصص ملوك اليونان أيضا (ص ١٠٣، ١٣٦).

كان «ابن ظفر» نحويا لغويا أديبا فى عصر غلب فيه الجدل والفلسفة وكان بن المقفع أمام عينيه، فجاء كتابه مطبوعا بكل هذه الطوابع.

***

الفصل الثالث عشر
فاكهة الخلفاء- مزربان نامه

مؤلفهما ابن عربشاه[1] من أدباء القرن التاسع، وهذه أشهر مؤلفاته:

١ - عجائب المقدور في نوادر تيمور، هوتاريخ تيمورلنك الفاتح المغولى، بسط فيه حال ذلك الطاغية، وما ارتكبه في أثناء حروبه من الفظائع. وقد عاصره وسمع به. وهومسجع العبارة طبع بمصر مرارا، ونقل إلى اللاتينية، وطبع غير مرة في لندن وباريس واكسفورد.

٢ - التأليف الطاهر في شيم الملك الظاهر (جقمق): في جزءين.

٣ - فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء: في الأدب على ألسنة الحيوان نحوكتاب كليلة ودمنة، منقولة عن مزربان نامه، نثرا مسجعا.

٤ - مرزبان نامه، كأنه مختصر لفاكهة الخلفاء أومتن له.

---

(١) هوأحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقي الرومي، ويعرف بابن عربشاه وبالعجمى ولد سنة ٧٩١ بدمشق، ونشأ فيها، وهرب مع أمه وإخوته إلى بلاد الروم ومنها إلى سمر قند، وبلاد الخطا، وأقام في تركستان، وتلقى العلوم على شيوخ تلك البلدان وغيرهم، ثم نزح إلى المملكة العثمانية في آسيا الصغرى، وخدم سلطانها محمد الأول (حكم سنة ٨٠٥ - ٨٢٤ هـ)، فنقل له بعض الكتب من الفارسية إلى التركية. وتولى له ديوان الإنشاء، وكتب عنه إلى ملوك الأطراف عربيها وفارسيها وتركيها، فلما مات السلطان المذكور عاد ابن عربشاه إلى الشام فأقام في حلب وقد تزايدت معارفه، وانقطع للمطالعة في الفقه والبيان، ونزح إلى القاهرة في زمن الملك الظاهر جقمق (تولى سنة ٨٤٢ - ٨٥٧هـ) حتى مات سنة ٨٥٤هـ في الخانقاه بالصالحية وكان بارعا في النظم والنثر وسائر العلوم يكتب في اللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية وأتقن الخط. (جـ ٣ ص ١٥٥ تاريخ آداب اللغة العربية كشف الظنون جـ ٢ / ١٦٣ الضوء اللامع جـ ٢ / ١٢٦).

ويتبين من ترجمة ابن عربشاه أنه كان جوالا: ولد في الشام، وتعلم في بلاد المشرق، وخدم سلطان العثمانيين واتصل بالملك الظاهر «جقمق» ملك مصر. فسهلت عليه هذه الرحلات أن يتصل بآداب الفرس والترك، وكان بطبعه أديبا ونقل بعض الكتب الفارسية للسلطان محمد الأول ملك العثمانيين، ونقل مرزبان نامه إلى العربية أيضا، وتاريخ تأليفه لفاكهة الخلفاء يدل على أنه كان في مصر متصلا بالملك الظاهر «جقمق» فقد جاء في آخر هذا الكتاب أنه فرغ منه سنة ٨٥٨هـ والملك الظاهر توفى قبل ذلك بعام. وأشهر كتبه التي عن الحيوان:

فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء:

ولعل هذا الكتاب آخر كتاب كبير وضع في الأدب العربي على نمط كليلة ودمنة.

وقد بين مؤلفه في مقدمته أن كثيرا من الأذكياء يقصدون إبراز بعض الحكم والعبر، على ألسنة الوحوش والبهائم والسباع، وأصناف الأطيار وحيتان البحار، وسائر الهوام. لتميل لسماعه الأسماع، وترغب في مطالعته الطباع، لأنه أسند إلى ما لا يعقل، فإذا أسند إليها مكارم الأخلاق، وأخبر بأنها تعاملت فيما بينها بموجب العقل والوفاق. أصغت الآذان إلى استماع أخبارها؛ ومالت الطباع إلى استكشاف آثارها، وتلقتها القلوب بالقبول، والصدور بالانشراح، والبصائر بالاستبصار، وانتفع بها العامة والخاصة؛ في السياسة والمعاملات، لئلا يكونوا أقل من العجماوات: زيادة عما فيه من فكاهة للسامع. وسرور للنفوس.

وقد أشار في هذه المقدمة إلى كتاب كليلة ودمنة، وسلوان المطاع، والصادح والباغم، في لغة العرب، وإلى جماعة أخرى وضعت كتبا مثلها

في غير لسان العرب، وأنه جمع فى هذا الكتاب مجموعة من الأخبار بلغته عن الرواة، وجعلها على لسان أبي المحاسن حسان، وجعل الكتاب عشرة أبواب، وسماه «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء»، أما أبواب الكتاب فهي:

الباب الأول: ذكر ملك العرب، الذي كان لوضع هذا الكتاب السبب.

الباب الثاني: في وصايا ملك العجم، المتميز عن أقرانه بالفضل والحكم.

الباب الثالث: في حكم ملك الأتراك، مع ختنه الزاهد شيخ النساك.

الباب الرابع: فى مباحث عالم الإنسان، مع العفريت جان الجان.

الباب الخامس: في نوادر ملك السباع، ونديميه أمير الثعالب وكبير الضباع.

الباب السادس: في نوادر التيس المشرقي، والكلب الأفريقى.

الباب السابع: في ذكر القتال بين أبى الأبطال الريبال، وأبي دغفل سلطان الأفيال.

الباب الثامن: في حكم الأسد الزاهد وأمثال الجمل الشارد.

الباب التاسع: في ذكر ملك الطير العُقاب، والحجلتين الناجيتين من العقاب.

الباب العاشر: في معاملة الأعداء والأصحاب؛ وسياسة الرعايا والأحباب؛ ونكت وأخبار، وتواريخ أخيار وأشرار.

وقد بين في الباب الأول على لسان الشيخ أبي المحاسن أن السبب في وضع هذا الكتاب أن فيلا من الأفيال؛ واسع السلطان، كثير الأعوان، كان له ستة أولاد، كل بالسيادة مذكور، وبالعلم والحلم مشهور، وكان أكثرهم فضلا وعقلا «الحكيم حسيب».

فلما مات أبوه استولى الأكبر على الملك وأطاعته المملكة، ثم نفس عليه إخوته، ونازعوه في السلطان إلا حسيبا الحكيم، فقد أراد أن يعتزل الفتن

إلى أن تنجلى الأمور؛ ليؤلف كتابا يشتمل على فنون من الحكمة، وأنواع من دقائق الأدب والفطنة. ولطائف التهذيب. وأخلاق العباد، ويكون عونا على اكتساب مصالح المعاش والمعاد، وتتوفر به مكارم الأخلاق والشيم. وعوالي تهذيب النفس وطرائف الفضل والحكم. وذهب إلى أخيه فأخبره بما استقر عليه رأيه، فاستشار الملك وزيره، فخوفه أخاه الحكيم وما عزم عليه، وسأله أن يجمع بينهما ليبين للسلطان دسائسه. فجمع الملك كبراء الدولة وحكماءها وأدباءها وغيرهم في مجلس عام، للاستماع إلى رأي كل منهما. وتكلم الحكيم حسيب فقال إنه في مثل هذه الحكم يجب حسن الأداء، ثم حسن الاستماع؛ ثم الاستفادة، ثم المرتبة الرابعة وهي درجة العمل، وأما الغاية القصوى فهى الإخلاص في العمل، وطلب الآخرة واتباع رضا المولى.

ثم بين أن النصيحة ثقيلة على النفس والقلب، لأن النفس مائلة إلى الفساد، والنصيحة محض خير وبر... والنفس مطبوعة على الأذى والشر، فيهما تنافر من أصل الخلقة.

ثم بين أن العقل أفضل شيء حل في الإنسان، وأن الخلق الحسن أفضل درة في تاج العقل، وأن أفضل الناس بعد الرسول الكريم هو المثل الذي يحي شريعته. وأورد بعد ذلك ما يجب على الملك من العدل والشفقة لتصلح أمور الرعية. وحذره الطيش والخفة؛ ودعاه إلى اجتناب الإسراف والتبذير وأن يصرف المال في وجوهه، من غير سرف ولا تقتير. وأن يتفكر قبل أن يصدر أمرا.

ثم قال إنه أراد الاعتزال لما رأى المملكة محتلة والظلم فاشيا، فدعاه الملك أن يستمع إلى رأى الوزير فيما قاله وما أراده، فقال الوزير: إن ما ساد

المملكة من الشدة هوبسبب فساد الناس والزمان، وإعراضهم عن طاعة السلطان، وما شعروا أن الملوك والسلاطين ممن اختاره الله تعالى، وألبسه من خلع جبروته كمالا وجلالا.

فرد الحكيم حسيب بأن صلاح الرعية تابع لصلاح السلطان، وأن على الحكام أن يعدلوا، وألا يأخذوا أحدا بجريرة أحد، وأن يسيروا على سنة أسلافهم؛ ومن لم يفعل ذلك أصابه ما أصاب الذئب مع الجدي المغني. وخلاصتها أن ذئبا أراد الإغارة على قطيع فعجز عن أن يصيب منه شيئا ليقظة الراعي وتحفظه، ثم تخلف جدي فأدركه الذئب، وفكر الجدي في حيلة يخرج بها من هذه الورطة، فقال للذئب إن الراعي قد أرسلني هدية إليك لأنك لم تفجعه في شيء من قطيعه، وأمربى أن أغنيك قبل أن تأكلني، وإن صوتي اللذيذ؛ ألذ للجائع من جدي حنيذ، وغنى فطرب الذئب؛ ودعاه أن يرفع صوته، فغنى بأعلى صوته؛ فسمعه الراعي فأقبل بعصاه، فلم يشعر الذئب الذاهل، وهولحسن السماع غافل؛ إلا والراعي بالعصا على قفاه نازل، فهرب الذئب متألما نادما وهو يقول[1].

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

وإنما أوردت هذا النظير، لمولانا الملك والوزير، ليعلم أن العدول؛ عن طرائق الأصول، ليس إلا داعية الفضول، ولا يساعده معقول ولا منقول... ومن يشابه أباه فما ظلم، ويؤخذ من مفهوم هذا الحكم أن من لم يشابه أبه فقد ظلم، خصوصا الملوك والسلاطين.

(١) ص ١٩.

ثم يقول: ومن ترك التأمل والافتكار، أصابه ما أصاب آوى مع الحمار فقال: أفدنا أيها المختار، كيفية هذه الأخبار.

فقص عليه الحكيم قصة لي أوى الذي كان يغير على بستان فشعر به صاحبه فسد عليه طرق الخلاص، وضربه ضربا مميتا وألقى به في الطريق، فلما أفاق ترك البستان وقال؛ لا خير لي في جواره، ولا قرب داره، فإن سلمت هذه المرة، فما كل مرة، تسلم الجرة، والأليق بالحال، الترحال... والذي شق الأشداق، تكفل لها بالأرزاق، وذهب إلى ذئب كان صديقا لأبيه فأحسن لقائه، وعزم على الإصطياد ليطعمه، فقال الثعلب: «لا تتعب فأنا أذهب، فلي صاحب حمار، كأنه تيس مستعار، وذهب ليأتيه به، ولما وجه آوى لطلب الزبون، انتهى في سيره إلى طاحون، فرأى حمارا قد آلمه العمل، ثم تركه أصحابه فذهب إلى المرج يرعى. فتقدم آوى إليه، وسلم سلام معرفة عليه،... وسأله عن الأهل والأولاد، فقال له: أي أهل وولد، وأنا فى هذا البؤس والنكد... هذا يركب وهذا يضرب... وهذا يحمل حمله، وهذا ينخس بالمسلة... فكأني في مشاقي كما قيل:

ولا يقيم على ضيم يـراد به إلا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

فاظهر آوى التوجع، وزين له الفرار إلى أجمة آمنة طيبة المرعى، فرضى وسار معه مسرعا. فلما قربا من الأجمة أبصر الذئب، ففكر في الحيلة، فقال للثعلب. لقد جئت قبل أن أودع جيراني « وأبت مالى من التعلقات، وأريد أن أرجع لأسوي أموري هناك، وأهم ما يشغلني أنني تركت هناك وصية من أبي، لا أستطيع الهدوء بغيرها في يقظة ولا منام. وألوى راجعا فرجع

معه الثعلب، وظل الحمار يحدثه حتى وصلا إلى الضيعة، فرفع الحمار صوته بالنهيق، فسمعته الكلاب، فخرجت إلى لقائه فرأت ابن آوى وقد أراد الهرب، فاحتوشته وانتوشته، واختطفته واقتطفته، ووزعته ومزعته ومرشته وقرشته، فلم تُبق منه عينا ولا أثرا».

ثم قال الحكيم حسيب: «وإنما أوردت هذا المثال وعرضته على الرأي العال، ليعلم أن الاغترار بالكلام محال، والإصغاء إلى الحكايات والقول البطال، من غير تنقل من ألفاظها إلى معانيها، وتأمل في مقاصدها وفحاويها، والاعتماد على القضايا المزخرفة، والركون إلى الأمور المسفسفة، لا يفيد سوى الندم، وزلة القدم، والأصل في الولايات والمناصب، التفكير فى الخواتم والتأمل فى العواقب.

عندئذ أدرك الملك والوزير فضل الحكيم حسيب، واعترفا له بسداد الرأي؛ وحكّمه الملك في ولايته، وولاه على الحكام والقضاة، وبسط يده في الأقاليم وأطلق لسانه فى التعليم،، فنهض الحكيم من مجتمعه... وامتثل المراسيم الشريفة، واشتغل بتأليف هذه الحكم الظريفة، وترتيبها بالعبارات اللطيفة».

وتأتي بعد ذلك بقية أبواب الكتاب كما أوردناها في المقدمة. وهذه خلاصة أحد الأبواب وهوالباب السابع في ذكر القتال بين أبي الأبطال الرتبال، وأبي دغفل سلطان الأفيال.

قال الشيخ أبوالمحاسن، من ليس له في الفضل مساوٍ ولا مواسٍ: إن الملك سأل أخاه الحكيم حسيبا أن يقص عليه قصة القتال بين الأسد والفيل فروى له أن ملكا من الأفيال كان له رعية وجنود وملك كبير؛ في جزيرة

في بعض أطراف الهند، وكان قد رغب فى النزهة، فعلم بمكان طيب يحميه أسد هصور، فحبب إليه بعض رعيته أن يذهب إلى هذا المكان، وأن يجلي الأسد عنه، وكان للفيل أخوان اسمهما «المقبل والمدبر» وهما وزيراه، فاستشار هما فأشار عليه أخوه «المقبل» ألا يفعل، فذلك ظلم وسوء جوار، والأسد مالك صعب وسلطان خطير.

واستشار أخاه الثاني «المدبر»، فقال إن الأسد حيوان ظلوم، ويجب تخليص رعيته منه. وأن نفقات مملكة الفيل تزداد، وسكان مملكته يكثرون، ولا بد من مجال حيوى لهم، يفي بنفقات المملكة التي تكثر يوما بعد يوم. وضرب مثلا قصة تيمورلنك الأعرج الدجال، فسأل أبو مزاحم «الفيل» أخاه عديم المراحم عن تلك القضية. فأخبره بما فعل تيمورلنك من غزووسلب ونهب، حتى ظفر بما تطلعت إليه همته العالية.

فمال الفيل إلى رأيه وطلب من أخيه «المقبل»، الاستعداد، فحاول أن يثنيه عن عزمه فلم يفلح، وجمع الفيل جموعه وأعد عدته فاطلع على هذه الأحوال غراب يكني أبا المرقال كان له وطن وولد، وسكن في ممالك الأسد، لكنه قدم جزيرة الأفيال للتنزه، على سبيل التفرج والتفكه، فعاد إلى الملك وأخبره بما رأى، فجمع الأسد مجلسا من رئيس الأسود والنمور والثعالب والذئاب؛ فأشار رئيس الأسود بالصلح، وأشار رئيس النمور أبومرسال بالمراسلة للصلح حتى يستعدوا. فإذا وقعت الحرب لم يؤخذوا على غرة، وأشار الذئب بالتحف والهدايا ليكف عنهم الأفيال، ورأى الثعلب إعمال الفكر والحيلة، فاقترح أن يرسل رسولا يعرض الصلح ويتجسس، فإن تم الصلح. وإلا عاد فأخبر قومه بما أعد الأفيال لهم. فرضوا برأيه. واختاروا

لذلك ذئبا، فذهب فخوف الفيلة بطش الأسد وجنوده، فثار الفيل وهاج، وأرسل رسولا إلى الأسد يخيره بين التسليم والفرار، فغضب الأسد غضبا شديدا، وكاد يقتل الرسول.

واستشار أبا الحصين، الثعلب، فقال له: لا تخش بأسهم، ولا تغتر بضخامتهم، فإنهم أهون مما تظن، وبحسن التدبير، ومساعدة التقدير، يتم لنا النصر.

ثم أخبره «الثعلب» أن الوهم قتال، والعاقل المدبر يحتال، كما بلغ الحمار بعقله ما أراده، فسأله ملك الآساد عن حكاية أبي زياد «الحمار».

فأخبره أن حمارًا كان قد تركه أصحابه بعد ما شاخ، فعاد إليه شبابه وقوته من طيب المرعى والفراغ، وعلا صوته ونهيقه، فخافه أسد كان يقيم قريبا منه. وفي ذات يوم كلمه وطلب منه طعاما، فدعاه الحمار إلى منزله. فصادفهما نهر، فقال له الأسد. أنا أحملك في الذهاب، وتحملني في الإياب. وفي عودتهما أنشب الحمار مسامير نعله في الأسد فآلمه، وظن به القوة والبطش ووهم أن قوة الحمار أشد من قوته، فترك له البلاد.

ثم أرسل (الأسد) أبو الضراغم إلى (الفيل) أبي مزاحم برسالة مع الذئب حدثه فيها عن سبب وضع علماء الهند للشطرنج، وأن صورة الرقعة صورة الممالك، وأنها قسمت بالسوية، وجعل لكل قسم جنس من الرعية ونوع من السير لا يتعداه، ومكان لا يتخطاه، وحذره أن يجور ويميل فيصيبه ما أصاب أصحاب الفيل، حين أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.

ولكن الفيل لم ينته عما أقدم عليه، فغلب هووجنوده، وانتصر الأسد وأعوانه «وظهر سر قوله عليه الصلاة والسلام. من آذى جاره ورثة الله داره. والله لا يهدي القوم الظالمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خير خلقه، وآله وصحبه وسلم أجمعين».

والطريقة التي اتبعها الحكيم في تأليف أبواب الكتاب أن أورد حكايات ونوادر عن أشهر ملوك الأمم في أيامه، أوالشعوب المعروفة في زمانه، فأورد نوادر ملوك العرب والعجم والأتراك في الأبواب الثلاثة الأولى، فلما فرغ منها أورد مباحث زاهد الإنس العالم، مع شيطان الجن الآثم. فلما فرغ أمره أخوه أن يقوي الطباع، بذكر نوادر الوحوش والسباع. فلما أنهى الحكيم حسيب كلامه، وذكر من النصائح والحكم عن ملوك العرب والترك والعجم، ومن مباحث الجن والإنس، استطرد إلى فوائد البهائم والوحوش، ورقم في دار ضرب البلاغة من حسن الصياغة والرقوش؛ ما قعد له من زواهر كلامه على سكة دينار الفصاحة أحسن النقوش، فافتخر أخوه الفيل بوجوده[1] وقال له: قد أفدت حكم سائر الحيوان، فكرر علينا من حكم منطق الطير، ففعل، وذلك في الباب التاسع والعاشر.

«فلما انتهى الحكيم في مقترحه؛ وما قصده من بيان محاسنه وملحه نهض الوزير وقبل قدميه، واعترف له بالفضل المنعم عليه، وأنه مالك أزمَّة الإنشاء؛ وملك الكلام يصرفه كيف شاء»، وأنه شيخ المنقول وأستاذ المعقول. وأما أخوه الملك ففرح به، واتخذه في مهام أموره، مقام أميره؛ ودعاه أن يسعى في الصلح بينه وبين إخوته ففعل؛ وانتهى الكتاب.

(١) ص ١٤٩.

وهذا كتاب آخر من وحى كليلة ودمنة، ألف في القرن التاسع الهجري واقتدى مؤلفه بابن المقفع أوبالحكيم بيدبا، وجعل المواعظ فيه على ألسنة الحيوان والطير؛ وجعل الحكيم حسيبا يقف من أخيه موقف الموعظة: فلا يرضى الوزير بذلك حتى يسمع ما يرغمه على الإعجاب؛ كموقف دبشليم من بيدبا؛ فلما انتهى من مواعظه وآدابه وما رسمه في كتابه من حكم وسياسة للعامة والخاصة، رضي عنه الملك وجعله مقدما في دولته، ومستشارا في أموره؛ فأصلح بينه وبين إخوته، كما أصلح بيديا بين الملك دبشليم وبين رعيته.

لكن بيدبا كان أشجع من الحكيم حسيب، فإنه عرض نفسه لغضب دبشليم، ولم يقصر في تقديم النصيحة مع علمه ببطش الملك. أما حسيب فقد أراد أن يعتزل، ولولا أنهم دعوه وناقشوه ما ذاعت آراؤه. ولعل حقوق الأخوة هى التي جعلت الموقف أكثر اعتدالا مما كان بين دبشليم وبيدبا، ولعل ابن عرب شاه راعى ذلك؛ فدل به على دقة ملاحظته للموقف، وما يتطلبه من معاملة.

وقد اقتفى آثار كليلة في جعله قصصا على ألسنة الحيوان؛ وفي الاستطراد من قصة إلى قصة؛ وفي ضرب الأمثال، وإيراد القصص لتفسيرها، لتكون هذه الأمثال بمثابة الربط بين القصة الأصلية وفروعها.

ولكنه زاد على ما في كليلة ودمنة أن رتب أبوابه على النحوالذي أشرنا إليه والذي يمكن أن نقسمه أربعة أقسام: حكايات الملوك؛ حكايات الإنس والجن، حكايات الوحوش والبهائم؛ حكايات الطير. وأكثر من الحكايات التاريخية عن ملوك فارس والترك والمغول. ومن الصفات الظاهرة في هذا الكتاب:

١ - أنه جعل الحكايات على لسان راوٍ، هوالشيخ أبوالمحاسن حسان، فأتى اسمه في أول كل باب، فيحدثنا عنً الحكيم حسيب وأخيه الملك في ذلك المجلس، وتارة يقول لنا أبوالمحاسن إن الحكيم هوالذي تكلم، وتارة يخبرنا أن أخاه هوالذي اقترح عليه الموضوع الجديد. وربما كان متأثرا في هذا بطريقة المقامات.

٢ - أما الغاية الخلقية من الباب فلم يلتزم إيرادها في كل باب، وإن التزم ذلك في كل قصة جزئية، فقد ختم الباب السادس بقوله: «وفائدة هذه الحكايات»، والباب الثامن بقوله: «وفائدة هذا المثل الجاري بين الدب والجمل معرفة فضيلة الأمانة؛ ووخامة المكر والخيانة». وقد يقول هذه الفائدة ضمنا، كما ختم الباب السابع بقوله: «وظهر سر قوله عليه الصلاة والسلام: «من آذى جاره ورثه الله داره».

أما الختام الذي التزمه في آخر كل باب فهو: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، بصور متعددة، وإن كانت معانيها متحدة.

٣ - وقد كثر فى كل باب أن يذكر الحيوان بكنيته أوبلقبه: فيسمى الأسد أبا الأشبال، والرئيال، وأبا الحارث والحيدرة. ويسمى الفيل أبا دغفل وأبا مزاحم، والحمار أبا زياد، والغراب أبا المرقال، والثعلب أبا الحصين، والفأرة أبا راشد؛ والدب أخا نهشل؛ والنمر أبا مرسال، والجمل أبا أيوب، وهكذا. وربما كان ذلك من تأثير العصر الذي كثر فيه استخدام الألقاب والكنى وخلعها على الملوك والوزراء والفقهاء والكتاب وغيرهم من كل من له عمل في الدولة، وليست البهائم والطير أقل قدرا في هذه الحكايات».

٤ - جعل الكتاب معرضا للعلوم والمعارف المشهورة في زمانه. فأورد

فيه مسائل فلسفية وحكايات تاريخية. ومشكلات فقهية: وأحكاما منطقية، ومناقشات كلامية.

٥ - أما القواعد التي أوردها في الآداب والأخلاق، والحكم التي جاء بها لإصلاح المحكومين والحاكمين، في معاملتهم الخاصة والعامة؛ فمستقاة من الدين، ومن فلسفة الأخلاق، ومن الآداب السلطانية. وقد جاء منها الكثير الذي شمل كل أنواع المعاملات الإنسانية تقريبا: كآداب العبد مع ربه وآداب الحاكمين والمحكومين، والأصدقاء والأولاد والزوجة، وتدبير الأموال، وقيادة الجنود وحقوق العلماء ورعاية الجار، وحسن تدبير المال؛ وهكذا.

٦ - أما طباع الحيوان فقد راعاها في قصصه إلى حد كبير، ولكنه قد يخرج عليها في بعض القصص، كقصة الحمار الذي غر ابن آوى، والأول مشهور بالجهل والثاني مشهور بالمكر. وجدي الراعي الذي غر الذئب فغنى له حتى سمعه الراعي، والأول مشهور بالغفلة والثاني بالخبث والغدر.

٧ - أما أسلوبه فقد كان صورة صادقة لأسلوب القرن التاسعة الذي ظهر فيه الكتاب، ومن أظهر صفاته الصناعة اللفظية كالسجع والجناس وتكلف التشبيهات والكنايات إلى حد مملول. وقد تقدمت أمثلة ذلك.

وقد استخدم فيه مصطلحات العلوم والفنون بكثرة، واقتبس من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والأشعار القديمة والحديثة، وترى فيه الأمثال والكلمات العامية المصرية مثل: كل شيء تزرعه ينفعك إلا ابن آدم إذا زرعته، يقلعك. عرف الكلب بيت العميا. ما كل مرة تسلم الجرة. من خرجت قرعته كسرت قرعته. ذهبت السكرة وجاءت الفكرة. الزبون. برطلوا عليه؛ مما كان مستعملا في زمانه. وما زال بعضه مستعملا إلى اليوم.

وهذا الكتاب أهم الكتب التي ظهرت في العصور التركية تقليدًا لكليلة ودمنة. ولوخلا من القيود اللفظية التي أثقلته، ومن الاستطراد الذي ورثه عن كليلة ودمنة، واستقلت قصصه، لكان من أهم الكتب التي ظهرت في خرافات الحيوان.

كتاب مرزبان نامه

أما كتاب «مرزبان نامه»، فيعتبر أصلا لفاكهة الخلفاء. ويقول ابن عربشاه في مقدمته (ص ٥): وقد وُضع فى ذلك – قصص الوحوش والبهائم وسائر الطير والسباع – كتاب يسمى بمرزبان نامه، مترجم باللسان التركي عن الفارسي، فأشار إلى المخدوم الذي لا يمكنني مخالفته أن أترجمه باللسان العربي فامتثلت أمره وترجمته، وقد جعله واضعه ثمانية أبواب:

الباب الأول: في تسميته وسبب وضعه.

الباب الثاني: في ذكر العالم والعفريت.

الباب الثالث: في ذكر أحوال الثعلبين.

الباب الرابع: في ذكر الكلب المسمى بالذكي والعتر.

الباب الخامس: في ذكر السبع والأفيال.

الباب السادس: في ذكر وقائع الجمل والأسد.

الباب السابع: في ذكر ملك الطير والحجلتين.

الباب الثامن: في معاملة الأحباب.

وترى من هذه الأبواب أن كتاب فاكهة الخلفاء يزيد بابين هما الثاني والثالث فيه، أما أسماء هذه الأبواب فتكاد تكون واحدة، إذا حذفنا مقتضيات السجع في فاكهة الخلفاء.

وأما ما تنطوي عليه هذه الأبواب من المعاني والحكايات والغايات الخلقية فتتشابه في كليهما تشابها كبيرا.

والفرق بين الكتابين شكلي، وإن كان الراوي أبوالمحاسن حسان، وبعض حكايات فاكهة الخلفاء ليس له نظير فى كتاب «مرزبان نامه». ويكثر في فاكهة الخلفاء السجع المتكلف المملول، والجمل والكلمات والأمثال العامية. ولا تجد إلا قليلا من ذلك في مرزبان نامه.

ويشتركان في الصفات العامة، والمقاصد التي يرمي إليها كل منهما كإصلاح الحاكمين بالمواعظ وضرب الأمثال، وبيان ما لهم وما عليهم، مع شيء من التلطف والتملق عند الحديث عنهم أوإليهم، والإكثار من الأمثال والآيات والأحاديث، وشواهد الشعر والنثر في القديم والحديث، واستخدام طرق الفلاسفة والمناطقة والفقهاء والصوفية، في أثناء الحديث على لسان الناس والحيوان، ممن يأتي ذكرهم فى الكتابين؛ فكثرت المصطلحات العلمية وأساليب العلماء لذلك.

وهذا بعض ما ورد في الباب الأول من مرزبان نامه على لسان مرزبان لأخيه:

«يجب على الملك أن يصغي إلى نصيحة الذي قد جرب منه الصدق والمودة وعلم منه محض النصيحة، ولا ينفر من خشونة النصيحة ومرارتها، فإن الناصح المشفق مثل الحكيم الحاذق: إذا اشتكى إليه المريض مرارة فمه، فإنه يصف له دواء مرا، فإنه ما وصف له الدواء المر إلا ليعيد إليه حلاوة فمه. ولا يستحقر النصيحة ولا الناصح، فإن سليمان عليه السلام، من أجَلّ سادة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وهوأحد من ملك الدنيا،

وحكم على الجن والإنس والطير والوحش والريح - استشار نملة حقيرة فنجح في أمره، ولما خالف وزيره آصف بن برخيا في قضية ابتلاه الله تعالى، وسلب ملكه حتى صار أجيرا لسماك على ما قيل».

وهذا ما أتى في فاكهة الخلفاء في هذا الموضوع نفسه[1].

«وعلى الملك أن يصغي للنصيحة: ممن مودته صحيحة، وقد جرب منه الصدق. وعلم منه الإخلاص في النطق، لاسيما إذا كان ذا عقل صحيح، وود صريح.. ولا ينفر من خشونة النصيحة ومرارتها... فإن الناصح المشفق كالطبيب الحاذق؛ فإن المريض الكئيب، إذا شكا إلى الطبيب، شدة ألمه، من مرارة فمه، يصف له دواء مرا. فيزيد حرارته حرا، فلا يجد بُدًّا من شربه، وإن كان في الحال ينهض بكر به؛ لعلمه بصدق الطبيب، وأنه في الرأي مصيب، وما قصد بالدواء المر، زيادة الضر، وإنما قصد بألمه، عودة الحلاوة لفمه. ولا يستحقر النصيحة، إن كانت صادقة صحيحة؛ ولا الناصح، خصوصا الرجل الصالح، فإن سليمان وهومن أَجَلِّ الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، وأحد من ملك الدنيا. وحكم على الجن والإنس والطير والوحش والهوام، استشار نملة حقيرة فنجح في أمره، وخالف وزيره آصف برخيا فابتلى بفقره وسلب من جميع ما ملك، وصار كما قيل، أجيرًا لصياد السمك[2].

والنصان يوضحان ما تقدم.

(١) ص ٩ فاكهة الخلفاء.

(٢) قصة سليمان واشتغاله أجيرا لسماك أوطباخا، قصة يهودية أتى بها الكشاف عند تفسير قوله تعالى «ولقد فتنا سليمان» في سورة (ص) وهى موجودة في دائرة المعارف اليهودية مادة: سليمان.

أما الكتابان فأرجح أنهما كتبا للسلطان الظاهر «جقمق»، من مماليك برقوق. فقد كان عهده من خير العهود في تاريخ المماليك، وهم الذين كثرت في أيامهم المظالم، وسوء أحوال الحكام، وحوادث القتل والغصب، وفداحة الضرائب، ومكايد القصور. ودسائس القواد والولاة.

غير أن السلطان «جقمق» كان حاكما قويا. وقد مدحه موير (Muir)[1] فقال عن حكمه إنه كان خير حكم، بالنسبة للمماليك، وإنه كان نموذجا حسنا في إسلامه، وأنه أحب العلماء ورغب في مصاحبتهم.

كل هذه الظروف ترجح أنه هوالمراد بقول ابن عربشاه في مقدمة مرزبان نامه (ص ٥) «فأشار إلى المخدوم الذي لا تمكنني مخالفته أن أترجمه باللسان العربي».

أما فاكهة الخلفاء فقد جاء في ختامه أنه انتهى من تأليفه «سنة ٨٥٨هـ»، بعد موت السلطان «جقمق» بعام - وقد ألفه على هذه الطريقة الرمزية التي ضرب فيها الأمثال. وأتى بالقصص - وأكثرها من الحيوان ـ عسى أن يكون في ذكرها ما يلين قلوب أولئك الحكام الظالمين، ويهديهم سبيل الرشاد. وكان له في أخلاق السلطان «جقمق»؛ وتسامحه، وحبه للعلماء، خير مشجع على الجهر بهذه النصائح الرمزية؛ تعليما للملوك وتأديبا للرعية.

***

(١) ص ١٤٥ تاريخ دولة المماليك في مصر ترجمة محمود عابدين وسليم حسن.

الفصل الرابع عشر
«قصص الحيوان في ألف ليلة»

«ألف ليلة وليلة» كتاب يشتمل على قصص متنوعة، بعضها له أصل تاريخي، وبعضها من عمل الخيال والاختراع، وبعضها مصري وبعضها عراقي وبعض حكاياته وارد من الهند، وبعضه منقول عن الفرس وبعضه من أصل عربي[1].

وقد كان للحيوان فيه قصص مهمة. فقد بدأ الكتاب بالحديث عن بطش الملك «شهريار»، بنسائه وجواريه بسبب خيانة زوجته، وصار يتزوج كل ليلة امرأة ثم يقتلها، حتى ضج الناس، وهربوا من المدينة فأمر وزيره أن يجدله زوجة فلم يجد، وعاد الوزير إلى بيته محزونا مغتما. وعرفت بنته «شهرزاد» السبب، فقبلت أن تتزوج من الملك، فإما أن تعيش، وإما أن تكون فداء لبنات المسلمين، وسببا لخلاصهن من بين يديه. وأصرت، فحذرها أبوها وقال لها: «أخشى عليك أن يحصل لك ما حصل للحمار والثور مع صاحب الزرع. فقالت له: وما الذي جرى لهما يا أبت؟ فقص عليها أبوها الحكاية وخلاصتها: أن تاجرًا من الريف كان يعرف لغة الحيوان والطير، وكان عنده في داره حمار يكرمه، وثور يرهقه. فسمع الثور يوما يشكو إلى الحمار مشقة العمل، فنصح له أن يتمارض ويمتنع عن الأكل والشرب حتى يستريح، ففعل. فلما سمع صاحبهما بمرض الثور

(١) في أصول الأدب للزيات ص ٥٠.

– أو تمارضه – أمر أن يحل الحمار محله. فلما ثقل الحمل على الحمار ذهب إلى الثور وقال له: لقد سمعت صاحبنا يفكر في بيعك للجزار إن لم تقم، فلما سمع هذا الكلام شكر الحمار.

وقال له في غد أسرح معهم. ثم إن الثور أكل علفه بتمامه حتى لحس المدود بلسانه. كل ذلك وصاحبها يسمع كلامهما. وأصبح الثور نشيطا معافى؛ فضحك صاحبه لما رآه حتى استلقى على قفاه من الضحك. فسألته زوجته عن السبب، فأخبرها أنه سر؛ إذا أفشاه مات. فأصرت على أن تعلم السبب؛ فجمع أولاده والشهود والقاضي، وجمع أهله وأهلها وأهل حارته، وأخبرهم بأمرها، وأنها تلح عليه أن يفشي السر، وفي ذلك هلاكه. فأصرت على أن تعلم السبب. فرضي زوجها وسلم أمره لله، ثم إن التاجر ترك هذه الجموع وذهب ليتوضأ قبل أن يموت. وكان عنده كلب وديك تحته خمسون دجاجة. فسمع الكلب يلوم الديك على فرحه وسروره في اليوم الذي سيموت فيه سيده. فسأله «وكيف ذلك الأمر » فأخبره بالقصة. فقال الديك: والله إن صاحبنا قليل العقل. أنا لي خمسون زوجة أرضي هذه وأغضب هذه، وهو ما له إلا زوجة واحدة، ولا يعرف صلاح أمره معها: فما له لا يأخذ بعضا من عيدان التوت ثم يدخل إلى حجرتها ويضربها حتى تموت أو تتوب، ولا تعود تسأله عن شيء!، فلما سمع التاجر كلام الديك عاد وقد عزم على ضربها.

ثم قال الوزير لابنته: ربما فعل بك مثلما فعل التاجر بزوجته، فسألته عما فعل، فقال: إنه أدخلها حجرة ليقص عليها الخبر ثم يموت، ولكنه لما خلا بها في الحجرة ضربها ضربا شديدا بعيدان من التوت حتى أغمى عليها فقالت له تبت، ثم إنها قبلت يديه ورجليه، وتابت وخرجت هى وإياه، وفرح الجماعة وأهلها، وقعدوا في أسر الأحوال إلى الممات.

وهذه الحكاية فى المقدمة، ويرجح أن هذه المقدمة من أصل هندي وقصة الحمار والثور هذه شبيهة بقصص كليلة ودمنة. بجانب ما فيها من إخراج قصة من أخرى ومشابهة للأسلوب في القصص الهندي فإن من لوازم القاص الهندي أن يقول: لا تعمل ذلك، وإلا أصابك ما أصاب فلانا، فيسأله السامع: وكيف ذلك. فيجيب القصاص على هذا السؤال برواية القصة.... وقولهم فيها «كيف كان ذلك» ترجمة حرفية لهذه الجملة السنسكريتية «كاثات»[1].

أما أثر القاص المصري في هذه الحكاية فواضح في أسلوب كتابتها وألفاظها العامية فيما تقدم. ثم إن المغزى في هاتين الحكايتين ظاهر، فإن الحمار قد آذاه قوله، ورأى لغيره ولم ير لنفسه[2]. وأما الديك فقد كان مرشداً إلى صلاح الأحوال الزوجية بطريقته العنيفة التي جاءت بثمرتها مع الزوجة.

وهذه قصة وردت في قصة الملك «يونان» والحكيم «رويان» في الليلة الخامسة إذ قال الملك لوزيره: أنت دخلك الحسد من أجل الحكيم فتريد أن أقتله وبعد ذلك أندم، كما ندم الملك السندباد على قتل البازي، ثم أخبره بأن السندباد خرج للصيد ومعه هذا البازي: وطارد غزالة حتى ظفر بها في مكان قفر، وعطش الملك، وعطش الحصان، فلم يجد الملك إلا شجرة ينزل منها ماء مثل السمن، فأخذ طاسة وملأها منه؛ فلطش البازي الطاسة فقلبها، وكرر ذلك. فضربه الملك بالسيف، فرمى أجنحته، فصار البازي يقيم رأسه ويقول بالإشارة: انظر الذي فوق الشجرة، فرفع الملك عينه

(١) Ancient India and Indian Civilization P. 325 وفي أصول الأدب للزيات.
(٢) ص ٣١٧ كليلة ودمنة باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين.

فرأى فوق الشجرة حية، والذي يسيل سُمُّها، فندم الملك على قص أجنحة البازي؛ ومات فحزن عليه حزنًا شديدًا؛ لأنه جازاه على الإحسان بالإساءة وندم حيث لم ينفع الندم.

وفيه من القصص الشبيهة بكليلة ودمنة باب خاص عنوانه «حكاية تتعلق بالطيور» وقد مهد الكتاب لذلك بقوله ثم أن الملك قال لشهر زاد: أشتهي أن تحكي لي شيئا من حكاية الطيور فقالت حبا وكرامة.

وقصت عليه قصة الطاووس الذي كان يأوى إلى جانب البحر مع زوجته ثم هربا خوفا من الوحوش والسباع. فنزلا بجزيرة وأكلا من ثمرها وشربا من أنهارها. ثم أقبلت عليهما بطة فزعة وحذرتهما ابن آدم، فنزلت إليها زوجته، ورحبت بها وأخبرتها أن ابن آدم لا يستطيع أن يصل إلى هذه الجزيرة. فأخبرتها البطة أنها رأته في المنام، وأن مناديا ناداها فحذرها منه ومن حيله وخداعه، وأنها قامت من نومها مذعورة، ولقيت شبلا فاستجارت به فقبل حمايتها، ثم أخبرها أن والده يحذره ابن آدم. وأقبل عليهما حمار فزع وأخبرهما بما يلقاه من ابن آدم، وأنه هارب منه، وقد تركه قبل إشراق الشمس.

ولقوا بعد ذلك حصانا فأخبرهم بما يصيبه من الآدمى وأنه قد فارقه في نصف النهار. وظهر لهم جمل قص عليهم قصته مع ابن آدم، وقال إنه فارقه وقت الغروب. وأراد الحرب فاستبقاه الشبل قائلا: تمهل قليلا يا جمل حتى تنظر كيف أفترسه وأطعمك من لحمه، وأهشم عظمه وأشرب من دمه. قال له الجمل: يا بن السلطان أنا خايف عليك منه وقد تحقق ظن الجمل، فقد جاءهم نجار من بني آدم، فصنع صندوقا واحتال على الشبل حتى أدخله فيه، وألقى به في حفرة وأحرقه[1].

(١) ص ٢٤جـ ٢٠.

وسمعت الطاوسة كلام البطة فَسَرتْ عَنْها وقالت لها «إن كان على جبيننا شيء نستوفاه[1]».

ثم ظهر لهما غزال فأكرما مثواه. ثم نزل بالجزيرة قوم من بني آدم فصادوا البطة وهرب الظبي والطاوسة، فصاحت البطة قائلة. «لم ينفعنى الحذر من القضاء والقدر».

واجتمع الظبي والطاوسة بعد ذلك فحذرها مكر ابن ادم وخداعه فقالت له: «ما قتل البطة غير تركها التسبيح ولقد قلت لها أنى أخاف عليك من تركك التسبيح، لأن كل ما خلقه الله يسبحه، فإن غفل عن التسبيح، عوقب بهلاكه»..

ويقص قصصا أخرى عن الحيوان، أليفه ووحشيه، ويفرغ منها بمثل هذه النتيجة، لا «ينفع الحذر من القدر» ويعرض في أثناء هذه القصص كثيرا من الحكم والأقوال الوعظية التي فيها رجوع إلى الله، أو دعوة إلى حسن سياسة، أو إرشاد إلى خلق قويم، أو شبه ذلك.

ونعود في الجزء الرابع في حكاية «ورد خان» ابن الملك «جليعاد» إلى حكايات كليلة ودمنة معدلة بالزيادة أو النقص، وموشاة بالحكم والآداب ومتبوعة أو مسبوقة بالعبارات المألوفة عند الانتقال إلى القصص الحيوانية وهذه القصص الحيوانية تأتي استطرادا في «ورد خان»، وإن شغلت الجزء الأكبر منها. ويغلب على الظن أن القصة الرئيسية وضعت لجمع هذه القصص الحيوانية، وضم بعضها إلى بعض من أجل غاياتها الخلقية.

ففي القصة أن «جليعاد» كان ملكا عقيما من ملوك الهند، وأن الله رزقه بولد، وأخبره المنجمون أنه سيحكم بالبطش والقسوة أولا ثم يصلح حاله، وقد كان.

(١) ص ٢٦-٢٠.

وإذا رجعنا إلى القصص الحيوانية في ألف ليلة وجدناها أشكالا منها:

١ - ما هو شبيه بكليلة ودمنة، كالقصص الأولى في مقدمة الكتاب ومنها قصة التاجر وحماره وثوره وكلبه وديكه. وقصص الحيوان والطير في الجزء الثاني، وقصص «ورد خان» في الجزء الرابع.

٢ - ومنها قصص يخترع فيها الحيوان من اللحم والدم إرضاء لخيال الإنسان ورغبته في أن يصعد إلى طبقات الجو، على بساط الريح أو بأجنحة الطير، أو على مراكب يخترعها وتسبح به في السماء، ، كحصان الأبنوس في «حكاية الحكماء أصحاب الطاووس والبوق والفرس» (جـ ٢) وهى مأخوذة من قصة فشنو والنساج التي تقدمت (ص ١١٧).

٣ - ومنها حكايات عن عجائب المخلوقات من الحيوان الغريب الشكل في قصة «حاسب كريم الدين»، وقصص السندباد (جـ ٣).

هذا عدا ما اشتملت عليه من قصص السحر التي تحول الإنسان فيها حيوانا أو جمادا، ولا شك أن اختلاف أزمنة هذه القصص ومصادرها، هو السبب في هذه المجموعات المتباينة من القصص الحيوانية في ألف ليلة وليلة. ومن هنا رأينا اختلافها عن قصص الحيوان في كليلة ودمنة ومقلديه، وفي قصص إخوان الصفاء وابن الهبارية.

***

الفصل الخامس عشر
«الخرافات الحديثة»

تأثرت الخرافة الحديثة عندنا بالخرافة الغربية، وتأثرت بعلوم التربية الحديثة - وأكثر رجالها من العلماء الغربيين - وسلسلة نسب هذه الخرافات الغربية ترجع إلى اليونان، وأشهر رجالها عندهم هو «أيسوب» الذي سبقت الإشارة إليه وجاء بعده بثلاثة قرون «ديمترياس الفاليرى» فكتب مجموعة من هذه الخرافات تشمل ما نقل إلى اليونان من مصر، ونسب كل منها إلى «أيسوب» السابق.

ونظم «بابريوس» «Babrius» الذي عاش قبل الميلاد بمائة وخمسين سنة بعض هذه الخرافات في أسلوب جميل. أما أشهر من كتب الخرافات اللاتينية، وكان مقلدا فيها للإغريق كغيره من أبناء قومه، فهو «فيدراس»[1] «Phedrus» وقد نظم القديم منها كما فعل «بابريوس» والفرق بينهما أن شعر «بابريوس» رقيق، أما الثاني فقوي موجز يطبع الخرافة الإغريقية بطابع الوقار.

ولما طغى البرابرة على الدولة الرومانية لجأت الخرافات اللاتينية والإغريقية إلى الأديرة. فجمعت كتبها هناك وانتفع بها بعض القساوسة في الوعظ، ومنهم «القديس سيريل Saint Cyrille»، في القرن التاسع م. الذي جمع منها مجموعة ينتفع بها هؤلاء الوعاظ، ولكنها كانت ثقيلة ومتكلفة.

(١) فيدراس: تاريخ حياته مجهول كغيره. يقال إنه ولد في مقدونيا وكان رقيقا ثم أعتق وعاش في عهد تيبير. Tibere، حوالى القرن الأول.

وظهرت القوميات في أواخر القرون الوسطى، واهتمت كل أمة بلغاتها واتصل الأوربيون بالشرق مرة ثانية، في أسبانيا، وفي الحروب الصليبية، وفي الرحلات. فعرفوا الخرافات الشرقية، كما اهتموا بالخرافات المحلية. وكان من ذلك كله أن تجددت الخرافة وأصبحت تستقى من خيال الشعوب. و من الخرافة القديمة المدخرة في خزائن القساوسة، ومن الخرافات الشرقية. وقد يضيف إليها بعض الكتاب خرافات مستقلة، من خيالهم أو مبنية على ماهو شائع في قومهم.

وتمتاز الخرافات الشرقية الأصل بما فيها من شخصيات وحوادث وعادات أجنبية. وقد تمتزج في الخرافة صفات الشرق والغرب.

وأشهر من نظم خرافات من مؤلفي العصور الوسطى «ميري دي فرانس»[1] فقد نقلت إلى الشعر الفرنسي مجموعة من الخرافات ترجمها «هنري الأول» ملك إنجلترا عن اللاتينية إلى الأنجلوسكسونية.

وإذا كنا نجهل كثيرا من كتاب الخرافات في هذه العصور التي ازدهرت فيها فقد شاعت خرافاتهم وتحمس لها الجمهور، وأقبل عليها الشعراء والأخلاقيون ورجال السياسة، يؤلفون فيها، أو يقتبسون منها، في كل مناسبة. وأكثر من اهتم بها أولئك الذين يخاطبون الجماهير الساذجة، ذات النفوس الصافية، التي تسرها هذه التعاليم والأخلاق في صورة لطيفة تعرف طريقها إلى القلب. وقد اهتم بها مارتن لوثر[2] وظنها خير مرشد إلى الفضائل، فطبع ونقح أيسوب.

---

(١) ميرى دى فرانس Marie de France: ولدت في كامبين Campiégne في أواخر القرن الثاني عشر.

(٢) مارتن لوثر Martin Luther:: (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م). من أشهر رجال الإصلاح الديني في ألمانيا ومؤسس المذهب البروتستفتى.

وفي النصف الأول من القرن السادس عشر نصح البابا «بوس الرابع» لأحد الشعراء فنظم مائة خرافة شعر[1]! فجاءت نادرة الرقة، صافية الأسلوب.

أما أسبانيا فكانت تفضل الخرافات الشرقية التي ورثتها عن العرب وتضمنها المقالات والقصص المطولة.

ونشر في فرنسا كثير من الخرافات فى القرن السادس عشر وتمتاز برقتها وبساطتها وقوة عباراتها.

أما النصف الأول من القرن السابع عشر فكان عصر انحطاط وإهمال لها، حتى جاء لافونتين فارتفع بها إلى أعلى درجاتها.

لافونتين[2]

Jean de La Fontaine

مجموعة خرافاته التي نشرها «أوبرتان»، خليط من الخرافات الشرقية والغربية قديمها وحديثها، وقد أشير فى ذيل الصفحات عند كل خرافة إلى مصدرها إن كان معروفا. وأكثرها معروف.

وكانت نفس لافونيتن ميالة إلى التأمل والدراسة، والاستغراق أحيانا، في ملاحظة الحيوان. كان يجد السرور في نزهة خلوية وحيدا، وفي التأمل وفي ملاحظة طرق الحيوان الأعجم وأخلاقه. وهى دراسة أوحت إليه بفكرة

(١) «Aubertin. P. 29».

(٢) لافونتين: (١٦٢١-١٦٩٥م). من أسرة فرنسية عالية. أراد أن يدرس الدين ولكنه عدل عنه إلى القانون. ولم يبدأ الكتابة إلا بعد الثلاثين وبدأ الخرافات بعد ذلك (The Outline of Lit P. 375).

الخرافات التي أهدى فيها إلى قومه، وإلى الناس جميعا، خير مجموعة من قصص الحيوان في الشعر..[1]

وكان يعتقد أنه يحاول عملا جديدا مهما، وقد قال في مقدمته الأولى: «إنني أخدع نفسي؛ مؤملا إذا لم أستطع السير في هذا العمل بنجاح أن أظفر بفضل البدء فيه»..

وكان يستغرق فى ملاحظة الحيوان فينسى كثيرا مما يجب أن يفعل:

«يحكى أنه دعي يوما إلى الغداء عند صديق له، فنسي ذلك نسيانا تاما. ولما سئل عما شغله أجاب بأنه كان يحضر جنازة نملة، وأنه صحبها إلى القبر، ثم عاد مع الأسرة الحزينة التي فقدت السلوان».

على أن دراسته للحيوان لم تكن دراسة علمية، ولا أراد ذلك في خرافاته، ولكنها كانت نوعا من الاستغراق في الموضوع ظهرت آثاره في كتابة تلك الخرافات العظيمة.

وتمتاز هذه الخرافات ببساطتها، ورقة شعرها، وتنوع أغراضها، وحسن تصوير شخصياتها.

وتكاد كل خرافة منها تحتوي على قصة قصيرة، ووصف، وحديث أو حوار، وتمثيل، وتصوير للشخصيات، وفكرة خلقية. ويظهر فيها حبه للطبيعة، ومقدرته في الشعر وفي الملاءمة بين أجزاء القصة.

ومن أظهر ما تتميز به هذه القصص أنه جعل أبطالها من الحيوان صورا لأفراد الجماعات الإنسانية. وقد نشر «هنري تين»[2] «Taine»، كتابا عن

(١) مقدمة تارفر Tarver عن لافونتين ص ١٨.

(٢) فيلسوف ناقد مؤرخ فرنسي (١٨٢٨ - ١٨٩٣م) ومن أشهر كتبه تاريخ الأدب الإنجليزي.

خرافات لافونتين، بين فيه هذا التشابه بين جماعات الحيوان وطبقات الناس في العصر الذي عاش فيه لافونتين. ومن ذلك أنه عقد موازنة بين السبع والملك، فَبيَّنَ أن لافونتين يرى صاحب الجلالة «الأسد» وقورا عظيما دائما، وأنه يدرك ما يليق بجلالته وبعقيلته. فمخالبه ترفعت عن أن تعاقب الوعل لما اجترأ على عدم البكاء عند موت اللبؤة، ودعا الذئاب أن تقدم هذا الوعل البائس قربانا إلى روحها المقدس. وأورد «تين» أمثلة كثيرة أخرى من هذه الموازنة، فبين أن السبع عظيم في العادة، وأنه جدير بالتقدير والإعجاب.

وجاء بموازنات عن بعض الحيوانات وأشباهها من طبقات الناس كالموازنة بين الثعلب والذئب والكلب... و من يشبههم من رجال البلاط إلخ.. كان لافونتين شاعرا حقا، وإن حبه للطبيعة ليذكر بفرجيل، كما يذكر به مانراه في لافونتين من رقة وعاطفة قوية، وهو ممتلىء بالفكاهة الماكرة، والنكتة الرقيقة، وهو يشبه هوراس في أنه يتهكم من غير أن يجرح، ويدور حول القلوب فيلعب بها، وهو ملاحظ دقيق للناس، ويرسم الجماعة كلها في القرن السابع عشر رسما يعيد إليها الحياة، بعظمتها و نقط الضعف فيها، من ترفها إلى فقرها، ومن الحاكم العظيم إلى الرجل الحقير، ومن صاحب الجلالة الأسد، إلى رجل الحاشية النسناس»..

ويعتبر لافونتين أشهر من كتب الخرافات الحيوانية في العصر الحديث

العيون اليواقظ في الحكم والأمثال والمواعظ

وفي القرن التاسع عشر الميلادي اطلع كثير من المثقفين عندنا على أدب الفرنسيين ونقلوا بعض الآثار القيمة من أدبهم. ومن الذين شاركوا في هذه الترجمات والنقل قاض له شهرة في الأدب هو المرحوم «محمد بك عثمان جلال المصري» توفي سنة ١٨٩٨ م ٣١٦ هـ).

ويعنينا من ذلك كتابه «العيون اليواقظ وفي الحكم والأمثال والمواعظ». وأشار «جورجي زيدان» إلى أنها هي أمثال لافونتين، وقد كتب لها المؤلف مقدمة نثرا تحدث فيها عن واضع هذه الحكايات الأول وهو «أيسوب» وجاء بتفصيل تاريخه من أول أمره إلى نهايته، وبدأ النظم بتقريظ لكتابه فمدحه، ثم أشار في قصيدة أخرى بعد التقريظ إلى حكاياته التي أوردها، وأنها مشتهرة الأصول، ثم مدح الخديوي عباسا؛ ثم جاء بهذه الحكايات بعد ذلك وورد في المقدمة:

وانظر فتلك روضة المعاني ودحة المنطق والبيان
نظمت فيها مائتي حكايه وكلها بالحسن في نهاية
فيها إشارات إلى مواعظ نافعة لكل واع حافظ
ضمنتها أمثالها والحكما وربما استعرت قول الحكما

وفي هذه الأبيات القليلة يشير «محمد عثمان جلال» إلى طريقته في التأليف؛ فقد اقتصر على مائتي حكاية، وهو قدر ليس بالقليل. وضمن كل حكاية مثلا أو حكمة، من إنشائه، أو مستعارًا من أقوال الحكماء.

وأما أن هذه الحكايات هى حكايات لافونتين فذلك صحيح إلى حد كبير، وقد تتبعت هذه الحكايات في أمثال لافونتين فوجدت كثيراً منها بعناوينها وتفاصيلها هناك:

ولكنه لم يتتبع الترتيب الذي جاء به لافونتين فيما أخذه عنه، وحاول أن يظهر شخصيته واضحة قوية، فجاء كتابه تعريبا، مثل كتاب كليلة ودمنة، لا نقلا حرفيا. ولعله أول من تأثر بالحكايات الغربية في استقلال القصص، والإيجاز، والبعد عن الاستطراد، وذلك من أهم الطوابع التي تميز قصص الحيوان عند الغربيين منذ اليونان، إذا استثنينا عددا قليلا منها، مثل قصص

الثعلب Romans du Renard، وقد أشار إلى سبب الاختصار في الحكاية الثالثة عشرة بعد المائة «حكاية النسور والحمام» إذ يقول عما جرى بين النسور:

فلا تسل يا صاحبي عما جرى بَحْرُ دِمَا بين النسور قد جرى
ولاختصار لم أطق تفصيلا ولم أرد لشرحها تطويلا
فالطرس لم يصبر على رمي القلم كذا من التطويل كلت الهمم

كما يقول في حكاية العجوز وصبيانها والديك: (ص ١٣٤).

عني اسمعوا حكاية العجوز واصغوا إلى كلامها الوجيز ولم يكن هذا تكملة الوزن، فإنه قد سار على هذه الطريقة فعلا، كما أشار إليها قولا؛ لأن الأصل الذي نقل عنه أكثرها، وهو لافونتين، كان كذلك.

(٢) وقد حاول تمصير هذه القصص وتعريبها بطرق متعددة، كأن يضيف الحيوان إلى مكان فى مصر - فحكاية الحمار حامل الملح والحمار حامل الاسفنج[١] تبدأ بقوله:

حمار بولاق له حمير وفى البلاد شغله كثير وحكاية الذبابة والنملة أولها:
تشاحنت ذبابة مع نمله[٢] ما بين بـولاق وبـين الرمله

وقد يضيفها إلى بلد شرقي. كحكاية الذئب الذي لبس ملابس الراعي: إني سمعت حكاية في المشرق عما جرى للذئب وهو يحلق[٣] وفي قصته الدرفيل والقرد[٤] أن الأول أنقذ الثاني من الغرق لما انكسرت به المركب

(١) ص ٥٤.
(٢) ص ٧٤.
(٣) ص ٦٨ «دمشق».
(٤) ص ٦٦.

وسار به إلى الشاطئ:

وقال: ذي دمشق، أنت منها ؟ قال: نعم، سل ما تشاء عنها
قال له: جزيت خيرا، قل لي: وحمص هل رأيت فيها مثلي؟
قال له: حمص حبيبي، وَلَـهْ في عشرتي بين الرجال وَلْـه
وظـن أن حمص كـان رجلا فـقـال مـاقـال ومـا تعقلا
فضحك الدرفيل مما قالا وظـنـه، مـا فهم الـسـؤالا
والتفت الدرفيل للنديم رآه قـردا جـاء مـن أبريم
قـال لـه خيبت فيك ظني رح وانصرف يابن القرود عني

وانظر أيضا إلى الحوار في هذه القصة، وإلى السخرية المضحكة من جهل القرد وتكلمه بما لا يعلم. وفي حكاية الدب والصاحبين[1]:

حكاية رويـت دون مين عمن حكاها قبل في شخصين
راحا لشخص في الحجاز فرا وبـالـدراهـم المـلاح اغـترا
باعاه جلد الـدب وهو حي وكـيـف ذا يـدرك يـا أخي

وفي حكاية «القوقعة والمتداعيان» يبدؤها بقوله[2].

شخصان أقبلا من الحج معي قـد لقيا قـوقـعـة في ينبع

والطريف أن الصورة التي في الكتاب فوق هذا البيت صورة قسيس، والشخصان في ملابس القرون الوسطى، وبيد كل منهما قبعة، وهى منقولة

(١) ص ١٠٨.
(٢) ص ١٥٣.

عن كتاب لافونتين. وفى حكاية القط والثعلب أنهما[1]:

قد طلبا الرحلة للحجاز واشتغلا في العفش والجهاز

ويقول في بدء حكاية التاجر والحاكم[2]:

سمعت أن أحد الأروام تَاجَرَ عَامًا في ضواحي الشام

وحكاية شجرة البلوط والسنبلة يضيفها إلى الإمام السيوطي فيقول[3]:

حكاية عن شجر البلوطِ نقلتها عن شيخنا السيوطى

وهى من حكايات لافونتين (٢٢ من الكتاب الأول) نقلها عن الخرافة (٤٣) من أيسوب. ولكن الوزن قد دفعه إلى هذا الإسناد فجاء موفقا خفيف الروح.

(٣) وقد يخترع من عنده أوقاتا أو أزمانا لحكاياته. ففي حكاية السبع والأرنب التي أوقع فيها الأرنب بملك الوحوش؛ إذ أخبره أنه كان قادما إليه بأرنب فقابله سبع آخر وأخذه غصبا عنه[4]:

قال له السبع وأين كانا أوضح لي الزمان والمكانا

فقال: كان في طلوع الشمس في بلدة تسمى بعين شمس و في القصة في «ميتم السبع»، أنه لما ماتت زوجته جاءت الوحوش للتعزية فقال لهم[5]:

(١) ص ١٥٥.
(٢) ص ١٦٢.
(٣) ص ٥٥.
(٤) من ٢٧.
(٥) ص ٧٧.

أمرتكم أن تحضروا في القلعة يوم الخميس مع نهار الجمعة

وكأن الأسد يعرف أيام التعزية والترحم عندنا فدعاهم في اليوم المحدود. وفى حكاية الذئب والبطة[١]:

إني رأيت الذئب يوم العيد أوى إلى البطة من بعيد

وفي حكاية الكلب والذئب:

ذئب ضعيف مر بعد العصر يسعى على القوت بجنب القصر

(٤) و هو يختم كل حكاية بمغزى خلقي، قد يكون من نظمه وقد يكون بيتا عربيا كاملا. فقد ختم حكاية الحمامة والنملة بقول أبي العتاهية.

فمن أغاث البائس الملهوفا أغاثه الله إذا أخيفا[٢]

وفي حكاية «الحكيمان» يختمها بقول «معن بن أوس»:

لعمرك ما أدري، وإني لأوحل على أينا تعدو المنية أول[٣]

وفى حكاية «الكنز والرجلين» يختمها بقول ابن الهبارية:

والعيش بالرزق وبالتقدير وليس بالرأي ولا التدبير[٤]

وقد يكون شطر بيت مثل: «ومن يشابه أبه فما ظلم[٥]».

وفى حكاية سيء البخت:

(١) ص ٧٧.
(٢) ص ٨.
(٣) ص ٥٤.
(٤) ص ١٢٦.
(٥) ص ١٧١.

«تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن[١]».

وقد يكون مثلا عاميا كاملا أو مختصرا أو معدلا كما ترى في ختام حكاية البنت المعجبة بنفسها التي رضيت آخر الأمر بزوج قبيح، مثل قوله:[٢]

فلقد صح ها هنا قول من قال في النكت
خطبوها تعززت تركوها تندمت

وفي حكاية الكلب الذي ترك الرغيف واتبع خياله[٣]:

ومثله بين الورى كثير من شانه في العيشة الغرور
ما حصلوا بالجهل في أي زمن لا عنب الشام ولا كرم اليمن

وفي حكاية حرب الفيران مع ابن عرس يختمها بقوله[٤]:

هكذا العريان بين القافله في راحة والناس عنه غافله

والقرآن الكريم كان مددا له أيضا، يقتبس منه في المغزى؛ بشيء من التحوير فقد ختم حكاية المها الذي نظر نفسه في الماء بقوله[٥]:

وأنتم يا سامعي فانتبهوا لا تكرهوا شيئا، عسى أن تكرهوا

وفى حكاية الجنايني وسيده كان ختامها:[٦]

وآية الملوك أوردوها إن دخلوا قرية أفسدوها

(١) ص ٧٢.
(٢) ص ١٠٤.
(٣) ص ٤٣ .
(٤) ص ٢٢.
(٥) ص ٤٣.
(٦) ص ١٥٤.

وفى حكاية النهي عن الإسراف يقول في آخرها[1]:

وورد النهي عن الاسراف في الذكر والحديث والقوافي
فـجـاء: «إن الله لا يحب» وهـو إذا مـعـرة وذنـب
«خير الأمور» من حديث المصطفى والله ربي فهو حسبي وكفى

وفي حكاية الحصان والذئب[2]:

وهكذا الناس: كل من بدا بالخبث لا يخـرج إلا نكدا

كما جاء بالأحاديث الشريفة في المغزى أيضا ففي حكاية الرجل القبيح الزوجة: [3]

ما كذب القائل في أفكاره قـد حـفّـت الجـنـة بالمكاره

وفي حكاية النهي عن الإسراف السابقة: «خير الأمور» من حديث المصطفى. والتاجر الذي أوصى أولاده يقول لهم[4]:

أوصيكم في العيش أن تتحدوا مـن ينفرد فشمله مبدد
واشتركوا في الرأي والبضاعة إن يـد الله مـع الجـماعـة

ورأيته يجعل الدخول على المغزى بتمهيد أحيانا، وبغير تمهيد أحيانا أخرى. أما اللغة التي استعملها، والألفاظ التي استخدمها، والأمثال والتعابير التي بين بها أفكاره وحكاياته، فكانت خليطا من الفصيح الراقي،

(١) ص ١٥٢.
(٢) ص ١٤.
(٣) ص ٢٠٥.
(٤) ص ٦٩.

والعامي المعرب وغير المغرب، ولكنه كان في كل ذلك يحرص على أن تكون العبارة قوية الأداء للمعنى.

وكانت عباراته وألفاظه العامية خفيفة تضفي على القصة روح المرح وبخاصة إذا أعربها. وهاك قصة الثعلب مقطوع الذنب[1]:

حكاية في ذكرها ترى العجب ... عن ثعلب رأيت من غير ذنب
و ذاك أنه بفخ وقعا ... وفات فيه ذيله وطلعا
ثم انزوى من خزيه وانكسفا ... و مال بين قومه وانعطفا
وقال لابد أزيع المكرا ... وأن يكون الكل مثلي زعرا
شاهدته جاء إلى الثعالب ... وكان ذا بعد أذان المغرب
وقال: ما منفعة الذيول ؟ ... باردة باسلة في الطول
تكنس من ورائنا الأراضي ... من منكم بطولهن راضي؟
نقطعها ونستريح منها ... فصدقوا ما قد ذكرت عنها
قال له أحدهم: سمعنا ... ولكلام قلته أطعنا
لكن نريد أن نراك من ورا ... كيف تكون إن غدوت أزعرا
فاحمر حالا وجهه من الخجل ... وراح مكسوفا وولى بالعجل
قال: فردوا مكره إليه ... و هلكوا من ضحك عليه

لاشك أن هذه الحكاية خفيفة الروح ظريفة في عباراتها وألفاظها العامية كقوله: وفات فيه ذيله وطلعا. وقولهم له: «لكن نريد أن نراك من ورا كيف تكون إن غدوت أزعرا «وكذلك حاله لما انزوى من خزيه وانكسفا. ولما

(١) ص ٧٩.

احمر وجهه من الخجل، وراح مكسوفا وولى بالعجل. وقد كانوا على صواب، عندما هلكوا من ضحك عليه»..

وأعتقد أن هذه الحكاية لو جاء العامي فيها فصيحا لما استمتع قارئها بما فيها من خفة الروح، كما يستمتع الآن.

وهو في الشعر والزجل قوي التصوير. يوضح الشخصيات، والحوادث حتى يكاد القارئ يلمسها: ففي الحكاية السابقة يظهر واضحا تصويره للثعلب ومكره. ومكر الثعالب وسخريتهم، وقالب الفكاهة الذي بدا فيه قولهم الساخر.

وقد جاء بحكايات من العامي الصريح ولكنها قليلة، وهو فيها منطلق متمكن من صناعته، فليس فيها قلق ولا اضطراب، ولا تحوير في الكلمات ومنها قصة القطة التي قلبت امرأة وهى:

زي القصة دى ما يمكنشى عن راجل ويبيع الطرشي
كان له قطه جوه بيته مطرح ما كان يمشي تمشي
من حبسه فيها يطعمها روس الضاني ولحم الكرشي
قال يارب تبدلها لي جارية من نسوان الحبشي
حبه ربه غيرها له جارية تسوى ألفين قرشي
راح السوق جاب ناموسيه قبل المغرب ما تأخرشي
بعد المغرب جاب يتعشى وياها بالقرع المحشي
هما على السفره يتعشوا إلا وفار في القاعه يمشي
نطت دى الست اللي بتاكل مسكت دي الفار اللى بيعشي
قال يارب اسخطها قطه ده اللي فيهش ما يخلهش!

ويظهر أن سوق الزجل كانت رائجة، وكان الشعر العربي غير طيع لكثير من أهل النظم. ونلاحظ أن هذا الوقت هو الذي كان فيه السيد عبد الله النديم والشيخ على الليثي - ماتا سنة ١٨٩٦م - ولهما من الزجل والأشعار الخليط شيء كثير، يجمع إلى الفكاهة قوة النقد، كما فعل محمد عثمان جلال، الذي أثر الطريقة الرمزية على ألسنة البهائم والطير.

وفي كتابه حكايات كثيرة جديدة لم تعرف عند مؤلفي القصص الحيوانية من العرب بسبب أصلها الذي نقلت عنه. وقد شاع كثير من حكاياته بمعناه أو بلفظه، وعرف طريقه إلى كتب الأطفال التي أدرك مؤلفوها قيمة القصص الحيوانية فنثروا قصص محمد عثمان جلال أو نقلوها شعرا.

جاء بعد صاحب العيون اليوافظ اثنان من أدباء الخرافات هما المرحومان إبراهيم بك العرب، وأمير الشعراء شوقي بك.

وقد انتهجا وجهة غربية فى شكل خرافاتهما، فجعلاها قصصا مستقلة قصيرة، وآثر الشعر على الزجل وشبهه، عند صاحب العيون اليواقظ. وقد سمى الأول مجموعة خرافاته «آداب العرب».

وقدم لها بمقدمة يقول فيها:

أما بعد فهذا كتاب خدمت به نابتة الوطن المحبوب، وأجريت فيه الأمثال والحكم المأثورة ليأخذوا منها ما يربى نفوسهم، ويقوم أخلاقهم، ويطبعها على أصوب آراء المتقدمين.

وقد التزمت أن أجعل مواعظ كتابي أقاصيص قريبة التناول، واضحة المعنى، سهلة النظم.

وجعل أكثر تلك الأقاصيص عن الحيوان وختمها بعظات. ومن القصص المشهورة التي يبدو فيها حسن النظم واضح للغاية، حكاية

الطاووس الذي أظهر إعجابه، واختال بين الورد والآس، فبدا فتنة للعين و بحسن ريش الذيل والرأس، ، فتصدى له عصفور وذمه، وعاب سيقانه العارية:

فقام من حولهما طائر يرميهما بالمنطق القاسي
فقال: كل منكما معجب و غافل عن عيبه ناسي
لو نظر الناس إلى عيبهم ما عاب إنسان على الناس

وشعره عامة في درجة جيدة وإن كان بعضه ضعيفا. وكان يختم كل قصة بالمغزى كما تقدم. وهو من نظم غيره من الشعراء السابقين في أكثر هذه القصص، ويحسن التمهيد له فيمشي مع القصة ويوافقها تمام الموافقة.

فإذا كان من نظمه بدا فيه الضعف أحيانا. وقد سمى هذه القصص «العظات» وعددها تسع وتسعون. والخاتمة التي جمع فيها حكما، ووصف فيها صنوفا من الناس، شعرها رصين وقور، يناسب موضوعها.

أما شوقي فقد شاعت خرافاته قبل أن تجمع في الجزء الرابع من ديوانه وعرفت طريقها إلى كتب التلاميذ «كاليمامة التي كانت بأعلى الشجرة» و«الثعلب الذي برز في شعار الناسكين والعصفورتين اللتين حلتا في الحجاز على فنن».

وهى غريبة المظهر أيضا باستقلالها وقصرها، وهذا المثال منها وهو قصة الثعلب والديك خلاصته: أن الثعلب أراد أن يمكر بالديك ليأكله، وكان بعيدا عن متناوله فظهر في شعار الواعظين ليخدعه، وأرسل إليه رسولا يدعوه ليؤذن لصلاة الصبح، فاعتذر الديك لما أصاب بني جنسه من الثعالب ولقد أحسن شوقي تصوير الثعلب في مكره، وألبسه ثياب الواعظين حتى كاد يعد منهم.

فمضى في الأرض يهدي ويسب الماكرينا
ويقول الحمد لله إلـه العالمينا
يا عباد الله توبوا فهو كهف التائبينا

وما أحسن حيلته حين جعل الأذان لصلاة الصبح مبررا لدعوة الديك، أما الديك فقد أجاب جواب موتور.

فأجاب الديك عذرا يا أضل المهتدينا

وقال الرسول الثعلب:

بلغ الثعلب عني عن جدودى الصالحينا
عن ذوي التيجان ممن دخل البطن اللعينا
أنهم قالوا: وخير القول رأي العارفينا
مخطئ من ظن يوما أن للظالم دينا

أليس شوقي قويا في تصويره للثعلب المخادع والديك الموتور ؟ إن كل لفظ كتبه شوقي في هذه القصة ينطق بقوة هذا التصوير، وأما غاية القصة فيجمعها البيت الأخير.

وقد التزم شوقي هذه الطريقة. أما مصادر قصصه فكان منها الشرقي ومنها الغربي. وكان يصبغ قصصه بصبغة محلية كما كان يفعل صاحب العيون اليواقظ. ففي قصة العصفورتين الحجازيتين نرى موطنهما في الحجاز، وقد مر بهما ريح جاء من اليمن فعز عليه ما هما فيه من ضنك بسبب بؤس البيئة التي يعيشان فيها. ولما دعاهما أن يسيرا معه إلى اليمين:

قـالـت لـه إحـداهمـا والـطـير فـيـهـن الفطن
يـاريـح أنـت ابـن السبيل مـاعـرفـت مـا الـسـكـن
هـب جـنـة الخـلـد اليمن لاشيء يـعـدل الـوطـن!

وله كثير من هذه القصائد البديعة التي سما شعرها، ولطف حوارها، ودقت عباراتها، وناسب بين معناها ومبناها.

وقد عنى رجال التربية وعلم النفس ببيان قيمة القصص عامة - ومنها الحيوانية - في تهذيب الأخلاق، وتربية الخيال، وتعليم أساليب اللغة. واعتمدوا في ذلك على دراستهم للطبائع والغرائز وقوة الخيال. ووضعوا الأسس التي يجب أن تسير عليها القصص كي تؤدى إلى غايتها في تربية أخلاق التلاميذ وأذواقهم، ووجدانهم وخيالهم، فتنوعت القصص واختلفت باختلاف أعمار التلاميذ.

كما روعي فيها جانب تعليم اللغة، فحاول مؤلفوها الترقي في الأساليب من سنة إلى سنة، وزيادة الثروة اللغوية والبلاغية عند التلاميذ.

واستخدمت القصة فى غير الخرافات أيضا. وجاءت على شكل حديث الحيوان عن نفسه. وفي أثنائها تأتي المعلومات من التاريخ الطبيعي حقائق لا خيال فيها. كما ورد بعض هذه القصص على شكل محاورات أو مفاخرات بين الحيوان بعضه وبعض، ولا تخرج المعلومات فيها عن حقائق التاريخ الطبيعي.

وكان من آثار ذلك أن تنوعت قصص الحيوان تنوعا عجيبا، فكان منها الأسطوري، وكان منها الحقيقي، ونقل بعض المؤلفين حكاياتهم في التهذيب عن الشرقي القديم، والغربي المترجم، وكان بعض هذه القصص

موضوعا، وبعضه منقولا نقلا دقيقا أو بتصرف. وجاء بعضه مع غيره من القصص الأخرى فى كتب المطالعة، وبعضه في كتب خاصة بقصص الحيوان، و بعضه مطولا وبعضه مختصرا.

وقد شاعت في أنحاء العالم قصص حيوانية مصورة تعرضها دور الخيالة من عمل السينمائي المشهور «وولت ديزنى» وغيره؛ ومن أشهر الحيوانات التي صورها الفأر «ميكي ماوس»، وكان لعبقريته في تصويره، ورسم حكاياته، وعرض قصصه، وتلوين هذه القصص بألوان جذابة من الفكاهة والغرابة أكبر أثر في إقبال الأطفال عليها. فكانت وسيلة لطيفة جدا من وسائل تسلية الأطفال، وتعليمهم وتربية خيالهم.

والحق أن قصص الحيوان في القرن العشرين تحتاج إلى دراسة مستقلة تبين أنواعها وغاياتها، تأثيرها في الأطفال، ومناسبتها لأعمارهم، ومقدار نجاح المؤلفين فى ذلك. وما استعانوا به من وسائل البيان والعلم، والقواعد النفسية والتربوية، لكي يصلوا إلى غايتهم.

وقد يكون ذلك جزءا من دراسة عامة لقصص الأطفال – ومنها قصص الحيوان – في القرن العشرين.

***

المراجع العربية

الأذكياء لابن الجوزى.
الأمالي لأبي علي القالي ١ ، ٢ طبع دار الكتب.
الأغانى لأبي الفرج الأصفهاني طبع دار الكتب والسامي.
ألف ليلة وليلة صبيح.
إخوان الصفا – لعصر الدسوقي الحلبي.
أساطير العرب في الجاهلية – عبد المعيد خان.
آداب العرب – لابراهيم بك العرب.
الأوراق – للصولي (نشره هيوارث دن). مطبعة الصاوي.
أمثال لقمان.
البيان والتبيين للجاحظ. «السندوبي».
بلوغ الأرب للألوسي. الطبعة الثانية بالمطبعة الرحمانية.
تاريخ آداب العرب – مصطفى صادق الرافعي. «المكتبة التجارية».
تاريخ آداب اللغة العربية ١،٤ جورجي زيدان مطبعة الهلال.
تاريخ الأدب الفارسي رضا زاده شفق ترجمة دكتور هنداوي.
تاريخ الأمم الاسلامية ١، ٢ الخضري.
تاريخ دولة المماليك فى مصر «موير» ترجمة محمود عابدين وسليم حسن.
تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، الإسكندري وسليم حسن.
التاريخ القديم شفيق غربال بك.

تداعي الحيوانات على الإنسان، نشر، ديتريصي طبع برلين.
تفسير: الطبري، الزمخشري، النسفي، الألوسي، الفخر الرازي، البيضاوي.
جمهرة أشعار العرب طبع السندوبي.
جمهرة الأمثال «للعسكري»، هامش أمثال الميداني.
حياة الحيوان الدميري.
الحيوان للجاحظ .
حي بن يقظان لابن الطفيل.
خزانة الأدب للبغدادي.
سلوان المطاع لا بن ظفر.
سيرة ابن هشام.
الشعر والشعراء لابن قتيبة.
الشوقيات جـ ٤ لشوقي.
شرح شواهد الكشاف.
الصادح والباغم لابن الهبارية.
ضحى الإسلام لأحمد بك أمين.
الضرائر للألوسي.
الضوء اللامع ٢،١ للمخاوي.
طبقات الشعراء لابن سلام.
عصر المأمون لفريد رفاعي.
العقد الفريد لابن عبد ربه.

العيون اليواقظ لمحمد عثمان جلال.
فجر الإسلام لأحمد بك أمين.
في الأدب الجاهلي لطه حسين باشا.
في أصول الأدب لأحمد حسن الزيات
فاكهة الخلفاء لابن عربشاه.
الفهرست لابن النديم.
القرآن الكريم.
قصص القرآن الجاد المولي.
قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار.
قصص العرب الجاد المولي وآخرين.
قصة الأدب في العالم جـ ١، ٢.
القاموس المحيط.
كليلة ودمنة لابن المقفع.
كليلة ودمنة تحقيق الدكتور عزام.
كشف الظنون لكاتب حلبي.
الكتاب المقدس.
لسان العرب لابن منظور.
مجمع الأمثال للميداني.
مروج الذهب للمسعودي.
مرزبان نامه لابن عربشاه.
المستشرقون لنجيب العقيقي.

المسئولية والجزاء للدكتور علي عبد الواحد.
معجم البلدان لياقوت.
منبعا الدين والأخلاق - برجسون تعريب الدروبي وعبد الدايم.
مقدمة ابن خلدون.
معاهد التنصيص للعباسي.
موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس.
نتائج الفطنة لابن الهبارية.
نهاية الأرب للنويري.
النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية لمحمد محمود جمعه.
الوسيط للإسكندري وعناني.
وفيات الأعيان لابن خلكان.

المراجع الأجنبية

Ancient India and Indian civilization.

The Anvar -١- Suhaili, Eastwick.

The big Book of animal stories, Mary, S. Lane.

Chamber, encyclopaedia.

Comus and Lycidas. Milton.

Encyclopaeddia Britannica.

The Jewish Encyclopaedia.

The koran, translation, Fodwell, Everyman,s.

Medieval Islam, Von Grunbaum.

Myths and Legends of ancient Egypt, Lewis Spence.

The story of civilization, Durant.

The Shorter Oxford English Dictionary.

The Squire,s Tale, Chaucer.

The Wisdom of India by Michael Jarefh.

Nouveau petit Larousse.

Les Fables de La Fontaine, Tarvèr.

Fables de La fontaion, Charles Aubertin.

طبع بمطابع دار المعارف